محمد سمير ندا

صلاة القلق

رواية



صلاة القلق

المؤلّف: **محمّد سمير ندا**
عنوان الكتاب: **صلاة القلق**

تصميم الغلاف: **محمّد إسلام بوغدو**
خط الغلاف: **سمير بن قويعة**
لوحة الغلاف: **سمير بن قويعة**

ر.د.م.ك: **978-9938-979-57-2**
الطبعة الأولى: جوان 2024
الطبعة الرابعة: أفريل 2025
جميع الحقوق محفوظة للناشر©

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة 2، تونس
الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات
الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
37 شارع قصر النيل-وسط البلد- القاهرة- مصر
Tel: +20235714003

محمد سمير ندا

صداع القلق

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

إهداء

إلى جموع الصامتين

الذين شهدوا على كلّ تاريخٍ لم يُكتب بعد...

(من الحتميّ أن يواصل المريضُ الكتابة، لا بدّ من تشجيعه وتحفيزه على تفريغ كلّ ما يختزنه من صورٍ ومشاعرَ وكلماتٍ حبيسة، الأوراق والأقلام هي صلتُه الوحيدة بالعالم، فإن انقطعت هذه الصلة سقطَ في عوالمه البديلة، الحبرُ هو ما يغذّي طاقتَه ويروي خياله ليبقيَه حيًّا، فإن جفّ الحبر ذبلَ الجسد، واستعدّت الروح للرحيل)

من تقرير الطبيب المعالج – 1988

في البدء سـطعَ ضوءٌ عظيمٌ مزّقَ أجفان النيام. تلاهُ دويٌّ هائـلٌ صـمَّ آذانَ الأجنّـة في الأرحام، فتشـكّل المكانُ على ضفّة الزمـان، وظلّت الأعناق ملتويـةً تعانق حلمًا علِقَ في سمـاء الأمـس، وهاجسًـا يطـوفُ على أسـطح البيوت ويتسـوّر الجـدران، بينمـا ظَلّ صـوتٌ واحدٌ يتسـلّل إلى أسماع الصامتين، فيشـّد الشعور، ويبدّل الوقائع والأمور، ويحكـي عن رحى حـربٍ دارت ولن تتوقّـف، مُحذّرًا من سـاعة حسـابٍ ينال فيهـا المتخاذلون ما يسـتحقّون من ويلات العقاب.

جرت هذه الوقائع في «نجع المناسي»

والأحـداث قـد تكـون مسـتمرّةً حتّـى كتابـة هـذه السطور...

يا كلمتي لفّي ولفّي الدنيا طولها وعرضها
وفتّحي عيون البشر للّي حصل على أرضها



عبد الحليم حافظ

كلمات: عبد الرحمن الأبنودي

لحن: بليغ حمدي

سهم الله في عدوّ الدين

استيقظَ الشيخ أيّوب المنسيّ صباحَ اليوم، فلم يجِدْ رأسَه بين كَتفيه.

نال منه الوباء، فحوّلَ رأسَه كتلةً عظميّةً جرداءَ خلَتْ من الشعر، وبدَتْ أقربَ إلى هيئة الحصى منها إلى رؤوس البشر، بينما احتفظَ جسدُه الطاعن بقوامٍ بشريٍّ يحاكي في خموله السلاحف، من دون أن يمتلك درقةَ الوقاية.

عرف الشيخ قبل ليالٍ أنّ شيئًا قد تغيّر. أدرك أنّ خللًا حلَّ بنسق الحياة في النجع، وراحت حواسُّه تبثّ شعورًا مطّردًا بخطرٍ مُحيقٍ منذ سقوط الحجر الناريّ على بعد كيلومتراتٍ من المكان. حدث ذلك قبل أماسٍ عديدة. يومئذٍ أضاء الانفجار السماء. مزّقَ الحَجَرُ سُحبَها، ونثر النجمات فما عُدنَ يتراصَصن في مواضعهنّ التي رسمَها الأجداد؛ خبتْ أنوارها فازداد اللّيل حلكة، وهجرت الطيورُ الناعسة أغصانَ التوت والجمّيز. وشابت أغصان الصفصاف وترنّحت سوق النخل.

أحدث الانفجارُ دويًّا هائلًا، فخيّمَ الصمتُ على رؤوس المارّة والقُعود، ورجفت القلوب، وتوقّف كلّ شيءٍ في تلك الصحراء

المدجّجة بالألغام. لكنّ بضع شظايَا تطايرت على مقربةٍ من الدور، فأمستْ قِبلةً للناظرين وسيرةً للحكّائين.

فهم أيّوب أنّ ذاك الدويَّ الهائل قد يكون سببًا في ما استجدّ على الناس من أعراضٍ مرضيّةٍ لم يعد بالإمكان غضّ النظر عنها. فقد استفحل الوباء حتّى نال من الشيخ نفسه في غضون أيّام، هو وزوجته وبناته الخمس. أقضَّ القلقُ مضجعَ أيّوب ابن الوليّ جعفر، حتّى تشابه عندَه اللّيل والنهار.

طالت اللّيالي كأنّها ليلٌ واحدٌ ممطوط. وشعر الشيخ بأنّ ثمّة أمرًا جللًا يمنع الشمسَ عن البزوغ، فظلّ يناجي الله أن يهبه كرامةً من كرامات أبيه.

كان يقف أمامَ جلباب أبيه الملطّخ بالدم، ويستدعي زمانًا ولّى. يتذكّر الضجّةَ المغلّفةَ بغبار الراكضين خلف عِجلٍ ضخمٍ هاربٍ من سكّين الجزّار في قريةٍ تتاخِم النجع القديم، وأذناه تضجّان بصخبِ ذلك اليوم، من صياح صِبية الجزّار، وتدافع الأهالي إذ انضمّوا إليهم في مطاردة العجل الهارب. لقد قطعَ بهم الطرقات والأزقّة حتّى وقفَ أسفلَ دار الشيخ جعفر.

يومئذ، علتْ نداءات الناس، أخذوا يطالبون بإطلالةٍ مباركةٍ من الشيخ العائد من الموت. كان يعرف أنّ أبَاه باتَ يهذي أغلبَ الوقت، وأنّ عقلَه فقدَ الصفاء الذي سبق ميتتَه الأولى. حدّث أبَاه بما يجري. وطلب منه تلبيةَ النداء الصاخبِ أسفلَ الدار. فاتّكأ الشيخُ على ساعده الأيمن ومضى معه. لم يعلّق، كأنّ الأمر لا يعنيه. هبطَا

الدرج، فوجدَا العجلَ يقف حذوَ مدخله في قلق، كان مذعورًا يضرب الأرض بقوائمه، وقد نضبت في عينيه مسالك الهرب.

أقبل عليهما شابٌّ، وناولَ الشيخَ جعفر سكّينًا، ثمّ ترجّاه أن يذبح العجل الشاردَ. لكنّ الشيخ طلَب كوبًا من الماء، ولم يعلّق. فهرع أيّوب إلى الطلمبة[1] خلف الدار. وحين عادَ بالكوز المعدنّي؛ وجدَ العجل خائرًا، والسكّين في يد أبيه. بدا له غارقًا في نوبةٍ من الدهشة والذعر، وقد اكتسى جلبابُه بلون الدم، بينما كان الناس يكبّرون ويهلّلون، ويتنافسون على تقبيل يد الشيخ المبارك ولحيته وكتفَيه. كانوا يتسابقون إلى غَمْس كُفُوفهم في جلبابه المضرّج بدم العجل الذبيح. وتحدّث بعضُهم أنّ العجل ألقى بنحره على السكّين في يد الشيخ فخرّ ميّتًا، وبرعُوا في سرد تفاصيل عن نظرته الراضية وخواره الأخير، وعن قوّة الشيخ إذ ظلَّ مُنتصبًا في محلّه على الرغم من انقضاض العجلِ على مجلسه. لم يتحرّك الشيخُ الطاعن، بل كان يهذي بكلامٍ غير مفهوم، وينثر لعابَه، ويومئ برأسه إلى مريديه.

تلك واحدةٌ من معجزات أبيه. فبعدَ مَوْتته الأولى والثانية صار وليًّا تُحمَل الشموعُ إلى جوار ضريحه في الجبّانة[2] مساءَ كلّ جمعة. لم يفهم الشيخ أيّوب ما جرى يومئذ، بيد أنّه ظلَّ يحتفظ بالجلباب. ولم يغسله، بل علّقَه لاحقًا في موضعٍ بارزٍ من مضيَفة أبيه، إلى جوار

(1) الطلمبة: آلة ميكانيكيّة تستخدَم لرفع المياه من مستوى إلى آخر من أجل استخدامها في ريّ الأراضي.
(2) الجبّانة: المقبرة.

صورته الفوتوغرافيّة الضخمة في زيّ الإحرام. كان الزائرون يتبرّكون بذكرى الجلباب وسيرة الواقعة، ويقفُ هو أمامَه بين حينٍ وآخر، فيستدعي حيرةَ ذلك اليوم، كأنّ العجل ذُبح الساعةَ.

يشعرُ بأنّ النجعَ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى معجزةٍ مشابهة، قوّةٍ صافيةٍ خارقةٍ تعيدُ النجمَ السّاقطَ إلى موضعه في صدر السماء، أو تردّ القذيفةَ الضالّة إلى مدفعها. إلّا أنّ خليل الخوجة، الممثّل الرسميّ لنجع المناسي، أذاعَ أمرًا آخر وهو في مجلسه مع مريديه. ففي داره الشرقيّة -على مقربةٍ من مطبعته العتيقة التي تنقل الكلامَ المسموع إلى ورق ملموس- صرّح نقلاً عن الجهات الحكوميّة المنشغلة بحربٍ ضروسٍ تأبى رحاها أن تتوقّف عن الدوران منذ عشر سنوات، فقال إنّ السقوط لم يكن لقذيفةٍ أو صاروخ. ثمّ عادَ وأكّد أنّ الحرب لن تصلَ إلى حدود النجع المزروع في خاصرة الصعيد، ولو طالت آمادُها عشرات السنين.

هذا الرجلُ العارف بشؤون الحرب عزَا الأمرَ إلى سقوط نيزكٍ قرب النجع، ثمّ عادَ فأطلق على النيزك اسمَ الشهاب، فما فهمَ الناس ماهية النيزك، ولا عرفوا كيف تكون الشُهُب. وشاعَ بينهم أنّ القمر الاصطناعيّ الذي تحدّث عنه الرئيس جمال عبد الناصر ربّما سقط في تجربة إطلاقه الأولى. لكنّ خليل الخوجة دأبَ على نفي الأمر، وعقبَ صلاة الجمعة وزّع على الناس طبعةً جديدةً من جريدة «صوت الحرب». كان يطبعها في صفحةٍ واحدةٍ باللّونين الأحمر والأسود، ويفسّر ذلك بأنّ الدولةَ ترشّد الإنفاق،

فتُقلّل عدد الورق المطبوع، وتوفّر الحبرَ للأخبار العظيمة الوشيكة. والأغربُ من طباعة صحيفةٍ من صفحةٍ واحدةٍ هو إصرارُ الخوجة على أن يوزّعها ولدُه الأخرس حكيم على كلّ الدور في النجع، مع علمه بأنّ الغالبيّة العظمى من الأهالي لا يعرفون القراءة. لكنّه ظلّ حريصًا على أن يُطلِع الناسَ على صور الطائرات والدبّابات والصواريخ أوّلًا بأوّل.

تحدّثت صفحة «صوت الحرب» عن سقوط النيزك قرب نجع المناسي، وعادت ووصفته بالشهاب. لكنّ خبراء علوم الفضاء والقادة العسكريّين الذين صرّحوا للصحيفة، اتّفقوا على وجوب التعامل مع الأمر كأنْ لم يكن، فالوطنُ في حالة حربٍ لا تهدأ طبولُها منذ عشر سنوات، وليسَ من مصلحة الوطن أن تُنشر الأكاذيب. سعدَ الناس بذكر اسم نجع المناسي في جريدة الدولة، لكنّ سعادتهم سرعان ما تلاشت. وظَلَّ الشيخ أيّوب، الخبير بشؤون الدنيا، وابن الشيخ جعفر، وليّ الله العائد من الموت، يستشعر الخطر، وينسج له صورًا في مُخيّلةٍ أربكها ضوء الشهاب فلم تعد بمثل صفائها الأوّل.

تشكّلت للخوف في كوابيس صحوته ملامحُ قطٍّ أسود، يتسحّب برويّةٍ من حقل البرسيم المتاخم للمسجد، حتّى ينقضَّ على مرقده قُبيل صلاة الفجر بلحظات. كان يرى القطَّ يقف على ساقَيه الخلفيّتَين، ثمّ يراه ضخمًا كضواري الغاب، ينقضُّ عليه، وينتزع كبدَه، قبل أن يأكله في هدوءٍ وتلذّذٍ أمام عينيه.

راح شكُّه يتعاظم تجاه كلّ شيء، ويتساءل عن ذلك الإله الذي خلق نجعًا منزويًا كنجعهم هذا، ثمّ أسلمَ مفاتيحَ السماء ومصائرَ العباد إلى رجلٍ مجهولِ الأصل مثل خليل الخوجة، واصطفاه ليحلّ محلّه، كنبيٍّ بعثَه في قومٍ نسيهم ببُقعةٍ ممحوّة من السجلّات.

ويحتدُّ في صدره السؤال: ماذا رأى الله في ذلك النبت الشيطانيّ كي ييسّرَ له قيادةَ النجع بمباركة الدولة؟! يتساءل ويثور ويناطح السماءَ كفرًا بما أتتْ به، ثمّ يعود ويعتكف في جلسات استغفارٍ لا يقاطعها سوى نشيجه الصامت.

ويهدأ، فيعودُ ويُسِرُّ إلى نفسه بالاستفهام ذاته: كيف يضع الله ثقتَه في رجلٍ كالخوجة، جاءَ إلى النبع فارًّا من أمرٍ غير معلوم؟ قيل في البدء إنّ وراءه ثأرًا في الأُقْصُر دفعَه إلى سكنى النجوع، وقيل إنّه لصٌّ فرّ بأموال الناس، أو شرّيرٌ استحوذَ على تركة أبيه وسرق إخوته. ثمّ أخذت صورتُه تتحسّن تدريجيًّا، فشاعَ بين الناس أنّ دارَه سقطت، فضرَب في الصحراء حتّى استقرّ به المقام في النجع، وذاع بينهم الخبرُ تلو الخبر، بما يمنح الخوجة أصلًا طيّبًا وأبوَين صالحين.

يتذكّر يومَ أفاق النجع على صراخ الخوجة، وقد اكتشف أنّ تمثال الزعيم عبد الناصر -الذي انتصب ذات يومٍ في باحة داره بينما الناس نيام- قد انشطر نصفَين. يسترجع أمارات الهلع على وجوه الجميع، وقد جاؤوا يواسُون الخوجة في التمثال. بدا الخوجة ثائرًا دامعًا، والناس مطرقُون في خشيةٍ ومذلّة، وأصابعُ الاتّهام تتنقّل بين الوقوف والجلوس، حتّى أنهى هوَ الأمرَ حين حمل رأس التمثال

وكتفَه اليمنى ذات الذراع المرفوعة، ووضعه في صدر داره، بينما بقي نصفُه السفليّ في موضعه؛ صنمًا بلا هيبة، ومحطّةَ انتظارٍ للطيور المتعبة.

وُضع التمثال أوّل مرّةٍ تحت ستر اللّيل، فلمّا أصبحَ الناس وجدُوه على مقربةٍ من دكّان الخوجة، تلك البقعة السحريّة التي يحجّ إليها أهلُ النجع ويطوفون حولَها يوميًّا. ظنّ بعضُهم أنّه أحد تماثيل الفراعين، لكنّ بعض الأذكياء لاحظوا أنّ التمثال لرجلٍ يرتدي حُلّةً رسميّة، ويرفع يمناه ليُحيّي جماهيرَ لا يراها سواه، ولا يسمع أصداء هتافاتها غيره.

قال الخوجة إنّ التمثال للزعيم المُلهم، وإنّه منحوتٌ في القاهرة، ثمّ أفادَ أنّ صانعيه مصابُو حرب. فتعجّب بعضُ السامعين من تفرّغ المُصابين لنحت التماثيل لمن زجَّ بهم في الحرب، لكنّهم واصلوا دفعَ ربع إيراداتهم للمجهود الحربيّ كما جرت العادة، بل طالبَ أغلبُهم بتوفير الخامات والتدريب اللّازمَين لنحت تمثالٍ أكبر حجمًا في النجع، وسمّى آخرون التمثالَ بمسخوط الزعيم، قبل أن تسري بين الناس حكاياتٌ بطلُها تمثالٌ للزعيم مبتورُ الرأس ينشط بعد مغيب الشمس، فيغادر موضعَه ليجوب الطرقات كأنّه يتفقّد أحوالَ رعيّته!

كانت المشاهدُ تتكاثف في عيني الشيخ، فتُضبّب رؤيته إلى الواقع، وفي صدره تتردّد أصداء السؤال؛ كيف نسي الناس حكاية زوجة الخوجة، فقد هربت من داره ذات عشيّةٍ تاركةً وصمةَ عارٍ

على بابه؟ كيف يتناسون السهام التي ظلَّتْ مصوّبة شطر المرأة التي أنجبت صبيًّا لا يشبه أباه ولا يحمل من ملامحها قبسًا واحدًا؟ وعلامَ يُجلّه الناس ويُكرّمه الله بعد الفضيحة والشكوك والمذلّة؟ كيف يقدّسون حجَرَه المشطور ويتغاضون عن ولده المبتور اللسان وقد تزامنت ذكرى مولده مع صدمة الهزيمة الزائفة؟ أينسى هؤلاء أنّ الخوجة وامرأتَه كانَا يجهّزان الولائمَ للاحتفال بخامس عيد ميلادٍ لابنهما وقتَ نشوب الحرب؟ أَوَ ليست تلك بدعةً صرَفَ الشيخ سنواتٍ من عمره في تفسيرها؟ لماذا يتجاهلون كلّ الشكوك المتراكمة على باب الخوجة فينصاعون لإرادته ويمنحونه -صاغرين- مفاتيحَ ألبابهم؟! كيف يتبوّأ المنابرَ في الطرقات، وتتهافتُ عليه الأنظارُ تستجديه الأخبار، وترجوه كي يبوحَ بما هو مسكوت عنه، حتّى بعد سقوط الشهاب، وتبدُّل أحوال العباد؟

لِمَاذا يلتفّون حول الخوجة؟ بينما يكتفي، هو الشيخ ابن وليّ الله، بالوقوف بين الناس، ليهزّ رأسه، ويومئ إيجابًا، ويتمتم بكلماتٍ تدور في أفلاك الرضا والتسويف وجَبْر ما انكسر من خواطر الآملين.

- متى تنتهي الحرب يا شيخنا؟

«قريبًا بمشيئة الله».

- متى يعود الشباب؟

«وقتما تنتهي الحرب».

- ولماذا لا يرجعون في إجازة؟ الأمّهات بِتْنَ كالثكالى وأبناؤهنّ

أحياء يقاتلون...

«الوطن كأمّ، ونداؤه أكثر قداسةً من دموع البشر».

- أفلا يستجيب الله لدعائك وصلواتنا؟

«يستجيب لما فيه الصالح لكنّكم لا تعلمون، ولو أطلعكم على الغيب لرضيتم بما أنتم فيه تتجادلون».

- الخوجة يقول إنّ الإجازات متوقّفةٌ لضراوة الاقتتال، وتقول أنت إنّ الحرب موشكةٌ على النهاية، فمَن منكما يصدقنا القول؟

هو يكره خليل الخوجة! يضايقه أن يستحوذَ الرجلُ على ما يستحقُّه هو من اهتمامٍ يليق برجل دين. هو إمام مسجد النجع الوحيد، وآخر نسل المنايسة الآيل إلى الانقراض. إنّه ابن الشيخ الذي عادَ من الموت بعد دفنه. وهو الوريثُ الوحيد للرجل صاحب الكرامات والمعجزات. ثمّ إنّه مَن وَأَدَ كلّ التوتّرات طيلةَ الوقت. هو كاتم الصوت الذي دأبَ على امتصاص التذمّر في مهده، وهو وحدَه مَن صبغ الحربَ الضروس بإطارٍ دينيٍّ يروّض آذانَ المتسائلين بعباراتٍ عن القداسة والجنّة ونصر الله القريب. هو من يربط على قلوب الملتاعين الباحثين عن مصائر أبنائهم، ما بين مُجنَّدٍ لم يعد في إجازةٍ منذ سنوات، ومُتطوّعٍ انقطعت أخبارُه ولم تنقطع الأظرف الماليّة التي يرسلها إلى ذويه. هو الساتر الحقيقيّ أمام الغاضبين، وهو حامي الدولة ومُشرّع الحرب، فلماذا يكون الخوجة مُمَثِّلَ النجع أمام الدولة؟ ماذا فعل خليل الخوجة سوى المشاركة في

مظاهراتِ رفض التنحّي؟ كيف أمسَى رجلَ النجع الأوّل، وهو الضيف الثقيل المجهول النسب؟

يودُّ لو يُلقي بالخوجة خارج أسوار النجع، لكنّ الخوف ممّا طرأ على النجع يُكبّله، ووباء القلق يجرّده من إرادة المواجهة.

وكانت لشكوك الشيخ أمارات، ولمخاوفه دلالات، إذ استفاق النجعُ الهادئ عقبَ ليلة الضوء الباهر وقد استوطن أجسادَ ساكنيه الوباءُ الملعون. حاول الشيخُ أن يُعرضَ عن الأمر رغم تناميه. وظَلّ يهرب من هواجسَ لا تتوقّفُ عن استنفار حواسّه، لكنّه ترك أوهامَه وعادَ ليُقرّ بما هو جليٌّ بَيّن.

بدا الأمر كلُّه أشبهَ بخرافةٍ تسرّبت من إحدى حكايات الجدّات. كان يشعر بنفسه طفلًا مغمض العينين، تركه رفاقُه لصيقًا بحائط الدار الطينيّ وقد ولّى العالمَ ظهرَه، وراح يعدّ الأرقامَ حتّى يختبئ كلٌّ منهم بعيدًا عن ناظريه، ثمّ تركوه طيلة أيّامٍ تناوب عليه فيها اللّيل والنهار، جاعلينَ منه فريسةً معصوبة العينين، تنهشه كلّ ظلال الخوف الراسخة من حكايات الطفولة، ولم ينطق أيٌّ منهم بكلمة الخلاص؛ خلاويص![1] لكنّ توالي المشاهدات برهَن على أنّ

(1) خلاويص: كلمةٌ ترتبط في التراث الشعبيّ بلعبة (عسكر وحراميّة) وهي لعبةٌ ارتبطت بمرحلة الطفولة، إذ يغمض أحدُ الأطفال عينيه وينتظر حتّى يختبئ باقي الأطفال، يسأل الطفل المغمض العينين «خلاويص؟» فيجيبه الأطفال «لسّه»، بمعنى أنّهم لم يحكموا اختباءهم بعد، فيواصل الطفل إغماض عينيه ويكرّر السؤال مرّةً تلو أخرى، حتّى يجيبه الصمت فيشرع في البحث عنهم، ومن يعثر عليه أوّلًا يكون هو المكلّف بإغماض عينَيه في الدورة الجديدة من اللعبة.

الأمر ليس حلمًا، وقضى ثقلُ الزمن بأنّ اللّعبة التي يتصوّرها لم تبدأ حتّى تنتهي.

لقد تجسّدَ القلقُ كوحشٍ يطوفُ بنعومةٍ فوقَ أسطح دور النجع، كأنّه خرجَ من الحَجَر المضيء الذي سقط من فوهة العدم ليغيّر مجرى الحياة. فما عاد الأطفال يلعبون حذوَ ضفّتَي الترعة، وتوقّف الأهالي عن إرسالهم إلى الكُتّاب الوحيد. وأضحت النسوة صموتاتٍ كالربابة المبتورة الأوتار في دار شواهي، وما عدنَ يتغنّين وهنّ يغسلن أوانيهنّ أو يجدلن سعفَ النخل. ولا عُدن يتبسّمن بدلالٍ للأطفال المتحلّقين حول شواليّ اللبن[1] قبل غليه، ولا يمسّدنَ بِرَامَ الفخّار بكفوفٍ تلطّخها القشدة. وحتّى الجدّاتُ انزوينَ في أسرّتهنّ النحاسيّة، وأشعلنَ الشموعَ ورُحن ينطفئن كذبالة النار.

قلّ عددُ المصلّين في صلاة الفجر، وربّما في كلّ الصلوات. وكان الشيخ يتلو الفاتحةَ في صلاة الجمعة، وينتظر أن يسمعَ كلمةَ آمين تهزّ جدران المسجد، لكنّ الهمهمات الشاردة أضحت أقصى ما يبلغ مسمعه.

ثمّ ظهرت أعراضُ سقوط شعر الرأس والحاجبين.

وهكذا استيقظَ الشيخ ليجد رؤوسَ الناس وقد غدَتْ أشبه برؤوس السلاحف. حتّى النساءُ رُحنَ يغطّين رؤوسهنّ بعدما كُنَّ

(1) شوالي اللبن: أوانٍ فخّاريّة يترك فيها الحليب في درجة حرارة الغرفة حتّى يتجبّن اللبن خلال ثلاثة أيّام حسب حرارة الجوّ، ثمّ تفصل طبقة القشدة المتكوّنة أعلى الحليب، ويعرف ما تبقّى أسفلها باللبن الرائب.

يتنافسنَ في قياس أطوال شعورهنّ وجودةِ جَدل ضفائرهنّ، فقد حوّل الوباء الغامض مسابقاتهنّ مرويّاتٍ حزينةً تُحكى أمام المرايا وقصصًا عن ذكرياتٍ لا تُروى، وعن ضفائرَ تُركت ليعيث فيها القمل.

أمّا الرجال، فقد حرصَ كلٌّ منهم على أن يعتمر طاقيّتَه طوالَ الوقت، بعدما اعتادوا استخدامَها في مواسم الجَني المتزامنة مع قيظ الشمس فحسب. أفلحَ الأغلبيّة في مواراة رؤوسٍ يغزوها الصلعُ بسرعةٍ فائقة، لكنّهم استسلموا لواقع الحياة بلا حاجبَين!

وشيئًا فشيئًا، بدَا على الناس ارتضاءُ العيش برؤوس السلاحف. فأصبحَ أقلُّ ضوءٍ يزعجهم، وأبسطُ صوتٍ يوتّرهم. لقد أخذوا من السلاحف مظهرَها، وخمولَها، لكنّهم لم يحظوا بما تحظى به من حمايةٍ وخصوصيّة. وبمرور الوقت، عاثَ في عقولهم وباءُ القلق.

راح الشيخُ يُراقب الفلّاحين وهم يضربون بفؤوسهم الأرضَ في همّةٍ مبتورة، وعيونُهم محمرّةٌ مفتوحةٌ على أفقٍ لا يأتي بشهبٍ جديدة. التوتّر يدمغ وجوهًا سوّدتْها الشمس، والمقلُ زائغةٌ تستقرّ بعيدًا عن مواضع ضربات الفؤوس، رؤوسٌ مُطرقة، وأجسادٌ انكفأت على ظلالها، وكفوفٌ مرتجفةٌ التحمت بالفؤوس حتّى تشقّقت. الناسُ لا يكادون يتبادلون التحايا وقد فرغت جُعَبُهم من الحكايات اليوميّة. انفضّت مجالس السمر، وطُويتْ ليالٍ يُمضَغ فيها التبغُ ويسبحُ فيها الأفيون في أفواه السهارى.

والشيخ أيّوب يضايقه أن يبقى حكيم -ابن الخوجة المقصوص اللسان- وحدَه في حالةٍ طبيعيّة. فقد ظَلّ ذلك الصبيّ وحدَه قادرًا على إبداء الدهشة، إلّا أنّه مع ذلك لم يكن يضحك! بقي كعهده نادرَ التبسّم، يواظب على الاستماع إلى أسطوانات عبد الحليم حافظ مستخدمًا جهاز جرامافون أحضره أبوه بعد نصر 67، ودأبَ على استخدامه في إذاعة أغنياتٍ تُمجّد الحرب والنصر والثورة.

الجميع ملجمون بصمت الرهبة، والبعضُ غائبٌ منذ تلك اللّيلة، كأنّ الانفجار نالَ منهم فتبخّروا كما روى خليل الخوجة عن تبخّر الناس في اليابان عقبَ قصفهم بالنووي. سرت أنباء عن نزوحٍ جماعيٍّ لبعض الناس ونجاحِ بعضهم في التسلّل وكسر الحصار المفروض على النجع. لكنّ الخوجة كذّب الأخبارَ بثقةِ العارفين، وراهنَ على أنّ الناس سيعتادون الغياب. وقد شملتْ قائمة الغائبين منذ الانفجار شواهي؛ سيّدة النجع الغنجة، وهي امرأةٌ يرغب في مرضاتها كلُّ الرّجال، ويطوفُون حولَ جلبابها الضيّق، لفتنتها، ودرايتها بتحضير العرق. واختفت كذلك الخالةُ وداد قابِلة النجع الوحيدة. وهاتان المرأتان -على وجه الخصوص- ظلّتَا عصيّتَين على النسيان.

-أفضل ما فعلَه الحجر الساقط من السماء أن سحق تلك الفاجرة السافرة الوجه والجسد...

تقول زوجتُه الأولى متشفّيةً، فيومئُ في خنوعٍ. وكذا تفعل

زوجتُه الثالثة، وهي أكثرهنّ شبابًا وأقلهنّ غيرة. فيحار الشيخ في تفسير كراهية النساء كلّهنّ لشواهي، وتنفلت منه بضع كلماتٍ أودعها أمانيه:

- لا أحد يعلم مصيرها، والله أدرى بأفئدة العباد...

- أفلا يعرف الشيخ الفارقَ بين مؤمنةٍ وفاجرةٍ كشواهي؟ أم هو مفتونٌ برقصها ككلّ رجال النجع؟

تحاصره الزوجة الأولى بعلامات استفهامٍ طالما جاهدَ لطردها من رأسه، وتتواصل إيماءاتُه بين النفي والإيجاب، وتتعالى همهمات زوجتَين تطوّقهما نظراتُ زوجةٍ وسطى تعتنق الصمتَ ميثاقًا منذ زيجته الثالثة. فيُؤْثِر الشيخُ الفرارَ من زوجاته الصلعاوات حتّى يبلغ عتبة الدار فيطلق كلَّ زفرات القلق المؤجّلة، ويهيم في التفكير...

تبخّرت شواهي. اختفتْ كأنّها لم تكن أكثر من قصّةٍ تتنقّل بين شفاه الجدّات الغارقات في نوبات الحنين إلى أيّام الترحال. أُغلقتْ حانتُها، وكان الشيخُ جعفر الوليُّ قد حدّد موضعَها، فأشار بأن تكون بعيدًا عن حدود النجع الرسميّة، خارجَ صفّ النخيل الذي يُحدّد آخره شرق الترعة، لكن على مقربة من أهل النجع. وبذلك أنهى صراعًا دارَ بين فريقَين من الناس شقَّ وحدتهم، بين مُحبٍّ للّهو، ورافضٍ للمحرّمات.

يُسِرّ الشيخ أيّوب لنفسه أنّ الحياة نقصتْ باختفاء شواهي، ولعلّ لغيابها أثرًا في انتشار الحزن على الوجوه. الحياة تتداعى، وهو

ينسحب رويدًا رويدًا، ليغوص في سردابٍ طويلٍ ينأى به عن نفسه التي يألفها.

وتمرُّ الأصباح والأماسي، فتتمدّد خيمةُ الغربة وتحطُّ على رأس الشيخ لتحاصر أنفاسَه وأفكارَه. حتّى عمامتُه المهيبة لا تُنسيه حقيقةَ أنّ ما تبقّى من شعر رأسه يكاد يُحصى بسهولةٍ أمام أصغر مرآةٍ في النجع. يحدّث نفسه، يلوم الأقدار إذ لم تمنحه صبيًّا يمتدّ بحضوره سلسال المنايسة ويتعضّد اليوم به، ويلعن زوجاته الثلاث اللّاتي دأبتْ أرحامهنّ على إنبات الإناث. ظلّـت غايتُه أن يهبه الله غلامًا يُسمّيه جعفرًا تيمُّنًا بأبيه الوليّ، لكنّ الله لم يمنحه الولد، بل منحه خمس صبايا، ثمّ منح الصبيّ المرجوّ لخليل الخوجة!

راح يتصوّر أسوأ المصائر للنجع، ويستدعي من حكايات الأسلاف حكايةَ النجع القديم إذ دهمَه السيلُ فأغرق أغلبَ ساكنيه. كان جدودُ ساكني النجع الحاليّ الناجين الوحيدين من مأساة النجع القديم خلف الجبّانة، وها هم يشهدون مصيرًا مشابهًا. آمنَ أنّ النجع باتَ بقعةَ ابتلاءٍ أزليٍّ اختصّها الله بالخوف والمرض. ولاحظ أنّه باتَ يُكثر من التلفُّت حوله في الطرق المظلمة، فيُفزعه أوهنُ صوتٍ لصرصورِ حقلٍ بعيد، ويوقظه من نوبات نومه المتقطّع مواءُ قطّةٍ جائعةٍ. وشبح القطّ الأسود يُطارده. يحكُّ الشيخ موضعَ حاجبَيه الزائلين حتّى يحمرّ منبتُهما، ويطوف بين الديار كالمجذوب يبحث عن قابلة النجع وداد، ويطرقُ بابَ دارها الموصد حتّى يكاد يخلعه؛ فامرأةُ النجّار توشك على وضع جنينٍ يدحر الحكايات

عن عقمها. أمّا نوح النحّال، فقد بلغَ به القلق أن هجر منحل أبيه بعدما انعزلَ فيه سنوات، وراحَ يتمتم لنفسه، وهو يجول بين الأزقّة مخمورًا، أنّه ترك المنحل للنحل، لأنّه لم ينتمِ يومًا إليه، ثمّ إنّه يثق بأنّ النحل سيثور عليه إن تجرّأ على العودة قبل أن يعود ولده الذي أخذوه إلى الحرب.

اعتادَ الناس مشاهدةَ نوح مترنّحًا في أغلب الأماسي، يسبُّ الحرب والخوجة، ويسبُّ كلَّ أهل النجع لتخاذلهم حيالَ استرجاع وحيده من الحرب، ويتّهم النحل بخيانته!

تؤرّق الشيخَ حقيقةُ أنّ العجوز وداد، وهي قابلةُ التقطت كلَّ مواليد النجع من أرحام أمّهاتهم، وتقطن غرب الترعة، قد اختفت. وشاعَ بين الناس أنّها آثرت أن تقبع في دارها وتعزفَ عن مجالس السمر، منفردةً بالجوزة وعلبة النشوق[1]، فقد خشيت مزاولةَ عملها الذي لم تعرف غيره، متذرّعةً بسيلٍ من كوابيس يهاجمها ويُبشّرُ بموت كلّ رضيعٍ يحطُّ بين كفّيها. بيد أنّ كلّ تلك الأخبار المربكة جعلَتْ تتواتر بلا قرينة.

والشيخ يغزوه الرعبُ كلَّ يوم، يراجع تعداد النجع، يعدُّ في رأسه سبعين دارًا يحفظ ساكنيها. الجميع مُبتلُون، واللعنة نالت منهم كلّهم إلّا ابن الخوجة. وعنايات زوجةُ محجوب النجّار قد تلد

(1) النشوق: تبغٌ ناعمٌ مطحون جافّ، كان قديماً يُعبّأ في علب من صفيح، ويتمّ تعاطيه عبر شمّهٍ بواسطة الأنف مباشرة، أمّا النشوق الرطب فهو ما يوضع خلف الشفة أو بين اللثة والخدّ.

قبل انقضاء الشهرين الأخيرين من حملها، ولا أحد يقدر على تولي أمرٍ كهذا سوى العجوز وداد، والسيّارة الوحيدة في النجع أعلن صاحبُها خليل الخوجة أنّها معطوبةٌ منذ سنوات. فأين المفرّ؟

ذات يومٍ انفلقت السماء عن صباحٍ ضبابيّ، وجدَ فيه الناسُ عبارات وعيدٍ وتهديداتٍ بالموت وإهاناتٍ وتنبّؤاتٍ سوداء كُتبتْ بطلاءٍ أسود على جدران البيوت. وكان بيت نوح النحّال أوّلَ ما لطّخت العباراتُ جدرانه. فثار، وأوشك على فقدان ما بقي من عقله، ويبدو أنّه أفرطَ في شرب الخمر، فراح يتّهم الناسَ بتلك الفعلة. ولم يخصّ متّهَمًا بعينه، بل أطلق وابلًا من اتّهامات عشوائيّةٍ للجميع، وفي مقدّمتهم خليل الخوجة.

تلا ذلك تداولُ أخبارٍ عن ظهور عباراتٍ أخرى مشابهةٍ على بيت شواهي الخاوي وبيت النجّار البعيد. ثمّ راحت الكلمات المغمّسة بالكراهية تتناسل على جدران كلّ البيوت. كلّ ساعةٍ يكتشف واحدٌ من الناس بعضَ العبارات؛ بعضها كُتب على صدر الدار، وبعضها خُطّ على حوائط جانبيّةٍ أو خلفيّة. وهكذا أصبحت كلّ الدور موصومةً بالطّلاء الأسود ذاته، مُعنوَنةً بكلمات اللّعنة والتشفّي، بما فيها بيت خليل الخوجة، ودكّانه، والتمثال المكسور حذوَ داره، بل على جدران المسجد أيضًا.

تعاظم ماردُ القلق على الرغم من جهل الغالبيّة بالقراءة، لكنّ العارفين منهم تطوّعوا لفكّ شفرة ما كُتِب على الجدران. أُقفل كلّ

بابٍ على ساكنيه، ومَنعَ الأهالي الصغارَ من مغادرة الدور، وراحت النساء يتبادلنَ نظرات العداوة، وحَدّدت كلٌّ منهنّ لنفسها مساحةً من ترعة النجع لا تشاركها فيها جارة، ولا يسبح فيها طيرٌ من غير طيورها. بينما راح الرجال يسعون بين حقولهم وورشهم، وقد تسلّح كلٌّ منهم بما يحميه من ذلك الآخر الذي لا يعرفه، لكنّه يثق بأنّه قريب.

والشيخ يُحدّث نفسه في الطرقات. ينتظر أن يسمع كلمةَ «خلاويص»، لكنّها تستمرّ في الغياب. فكان يطرق أبوابَ الجيران بحثًا عن وداد القابلة وقد اشتدّ صراخ عنايات قبل أوان ولادتها. قد يدفع الخوفُ الجنينَ قبل موعده، بل إنّ الهلع ذاته قد يجبر عنايات على اعتصاره في رحمها حتّى تنجّيه من الظرف الراهن. لا يفتح أحدٌ بابَه لزائر. والشيخ العجوز، الذي وهب عمره للوصل بين الله وعباده، يبكي، يشعر بعجزٍ يُثقل خطواته وقد فرغت جعبتُه من التفاسير، وغابت عن لسانه الفصيح سُبل الإقناع. بقيت لديه بضع نتفٍ مقتطعةٍ من شروحٍ لآياتٍ عن غضب الخالق على المخلوق، وقصص قوم عاد وثمود، وفرضيّات عن السحر، وعمل الجنّ المذكور في الكُتب المقدّسة. لكن لا حلول.

أجلّه أغلب أهل النجع، ربّما لم يُلبسوه ما خصّوا به الخوجة من رداء المهابة، لكنّهم كانوا يضعونه هو أيضًا في مرتبةٍ أسمى من عموم الناس. وذلك ما وَضَع على عاتقه مسؤوليّةَ إيجاد الحلول

والتفاسير. الجميع يتحرّون الحقيقةَ في عينَيه بعدما أسبغوا عليه قداسةً ورّثوه إيّاها عن أبيه، لكنّه كان يراوغ الأبصارَ بعينَين زائغتين ولا يدرك كيف تُصنَع المعجزات.

ومرَّ محجوب النجّار بدار الشيخ أيّوب. زاره وهو يدفع أمامَه عربةً صفيحيّةً فيها صندوقٌ مملوءٌ بعلب الغراء وورق النشارة والمسامير، وكمّاشةٌ قديمةٌ استعمرها الصدأ، علاوةً على ثلاثِ فؤوسٍ جديدةٍ وجاروفٍ ضخم. ظلّ محجوب صامتًا دقائقَ طالت، وكان يتلّفت مع كلّ التفاتةٍ لعنق الشيخ، يُداهم الظلامَ بعينَيه بحثًا عن السرّ المخبوء. فربّت الشيخُ على كتفه فانتفض، إذ كان توّاقًا إلى تلقّي الأسئلة والاستفسارات وإنْ جهل الإجابات. لكنّه لم يتلقَّ طوالَ الأيّام الأخيرة أسئلةً. لم يسأله أحدٌ عمّا يخصّ الدين وصحيح عقائده. انصبّت جلّ الهواجس قبل الوباء على حكايات التمثال الذي يدور بين الدور عقب المغيب يبحثُ عن رأسه المقطوع، وعن النسّاج المسكين قتيل الترعة. لكنّ الأفواه باتت اليوم مطبقة، والعيون مُشرعةً على السماء حيث أغشاها ضوؤها العظيم. سكونٌ ثقيلٌ خيّمَ على الشيخ، فباتَ يقوّض مكانةً عاش يتخيّلها، وهذا واجبه المقدَّس: أن يُسأل، وأن يجيب عن أسئلة الحيارى، وأن يئد القلقَ في صدور المتشكّكين، لا أن يظلّ نسيًا منسيًّا في مسجده.

أخيرًا تحدّث النجّار: «**هل من أخبارٍ عن وِداد؟**» فردّ الشيخ بعبارةٍ تغلّفها حيرة التائه: «**العلم عند علّام الغيوب**».

أشار محجوب إلى صندوقه وأحماله، وقالَ شاردًا إنّه اشترى بضاعتَه من دكّان خليل الخوجة. فأومأ الشيخ إيجابًا، فاستطرد النجّار يسأل:

- يا شيخي، ألا تعرف ما سبب الضوء الباهر الذي كسَا السماء وصاحَبَه دويٌّ مفزع؟

ثمّ همس بنبراتٍ مرتعشةٍ خفيضة، كأنّه لا ينتظر إجابةً شافية:

- كذلك... يا شيخي... اعذرني، ولكن... سقوطُ الشعر... الحاجبان... العباراتُ المكتوبة على الجدران... ألا يبدو الأمر عقابًا أنزله الربّ على قومٍ من العصاة؟ هل تمادينَا في ذنوبنا فنزلت علينا صاعقةُ السماء؟ هل صرنا كقوم عاد وثمود ولوط؟ أم إنّنا وُرّثنا مصيرَ أجدادنا الغرقى؟

طرب الشيخ أيّوب لسماع كلمات النجّار، وقد كاد يألف ألسنةَ الناس ملجمة. فتلفّت حولَه أكثر من مرّة، وحكّ موضع حاجبَيه، ولـمّا تأكّد من عدم وجود أحد، مالَ على النجّار هامسًا:

- كان شرٌّ خفيٌّ يقترب، وما الشهاب سوى سهمٍ أطلقه الله فأصابَ به عدوّه الذي لم يرَه سواه، لكنّ بعض أشلائه تطايرت يومذاك، ومنها ما استقرّ في قلب النجع فسبّب ما لاحظناه جميعًا. ولكن، لا تقلق، ولا تيأس من رحمة مَن فتّت الحجر ليحذّر البشر، فسهام الله لا تنفد، وقريبا تزول كلّ تلك العبارات وتنبت الشعور بزوال الشرور...

فهزّ النجّار رأسَه، وتبادلَ مع الشيخ نظرةَ اطمئنانٍ كاذبة. وتظاهرَ كلٌّ منهما بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام. استرجعَ محجوب كرامات الشيخ جعفر، فأضفت الذكرى قداسةً وخصوصيّةً على كلمات ولده أيّوب. تصنّع الرجلان الاقتناع بأنّ الأمور كلَّها تسير على عادتها، ثمّ انصرف محجوب يدفع أمامَه عربتَه، مُردّدًا ما فهمه من كلمات الشيخ:

– سهم الله في عدوّ الدين... سهم الله في عدوّ الدين...

ابنك يقولك يا بطل هاتلي نهار
ابنك يقولك يا بطل هاتلي انتصار
ابنك يقول أنا حواليا الميت مليون العربية
ولا في مكان للأمريكان بين الديار



عبد الحليم حافظ

كلمات: عبد الرحمن الأبنودي

لحن: كمال الطويل

الجلسة الأولى

نوح النحّال

استيقظتُ اليوم ورغبةُ الثأر تتأجج في صدري. رحتُ أسترجع فصولَ الحكاية، أستدعي سبعين سنةً مرّت، وأعيد ترتيبَها محاولًا استعادةَ الزمن المسروق ووَصْلَ الأحداث بعضها ببعض، وصولًا إلى حقيقةٍ لا يُراد لنا إدراكها.

ذات زمنٍ بعيد، استيقظتُ تحت سماءٍ قاهريّةٍ داكنةٍ وَخَطتْها غيومٌ من رماد، وقد فقدتُ كلَّ الدوافع اللّازمة للاستمرار. أفقتُ وقتذاك فوجدتُني كهلًا في الخامسة والأربعين، أدركَ للتوّ أنّه عاش غريبًا في مدنٍ ظاهرُها ألفةٌ وعمار، وواقعُها عِداء وخواءٌ بلا قرار.

قرّرتُ أن أترك كلَّ شيءٍ خلفي، أن أنطلق كسهمٍ يعبر الزمان في اتّجاهٍ مضادٍّ لعقارب الساعة، أن أعود إلى نجع المناسي، أرض الجدود، هناك حيث ألفتُ -طفلًا- معاشرةَ العقارب والنحلِ والأفاعي. هجرتُ عاصمةً لم تألف وجودي. ضجرتُ من خطابات الزعيم، وزهدتُ في التعلّق بوعوده وإن تفاديتُ سذاجةَ الإعلان عن ذلك أمام العامّة. قدّمتُ الأوراق اللّازمة لتسوية المعاش، وانتظرتُ الموافقات والأختامَ التي تقضي بمصائر أمثالي.

كان أغلب الناس كأنّما يراقب بعضُهم بعضًا، وأنا كمَن ضاعَ في وطنه أكمّمُ خواطري وأمضي متّشحًا بالصمت. كلمةٌ واحدةٌ ظلّت تفصل كلَّ امرئٍ عن السقوط في شرك معاداة الوطن. سئِمتُ المشيَ على الحبل المشدود بين السذاجة والخيانة، والتزمت الحيادَ حتّى وقعتِ المصيبة.

جاءني زوّار الفجر قُبيل السحَر، سألوني عن صديقٍ لا يجمعني به غير الودّ المتبادل في أروقة مكتب الشهر العقّاري[1] وبعض المسامرات في مقهًى قريب.

- كنتَ تجالسه رغم علمك بأنّه عضو في جماعة الإخوان المسلمين؟

- غير صحيح، أفكاره تعارض أفكارَ حسن البنّا تمامًا!

وتدوّي صفعةٌ لم تزل آثارُها على قفايَ حتّى اليوم، وتتزحزح العصابة عن عينيّ قليلًا فيسارع أحدهم ويُحكمها من جديد...

- تُشكّك في معلوماتنا يا ابن القحبة؟!

- لا أقصد التشكيك، لكن... أعني أنّه لم يتحدّث يومًا عن الإخوان، أقصد... أفكاره أقرب إلى الشيوعيّة... لا أشكّك.. لا أشكّك...

---

(1) الشهر العقّاري: يختصّ في مصر بتسجيل وثائق الأملاك وما يتبعها من حججٍ وسندات ورهونات، وكذلك تسجيل الوثائق مثل زواج المصريّين من الأجانب، وحتّى عام 1961 كانت مكاتب الشهر العقّاريّ تقوم كذلك بتوثيق شهادات الميلاد والوفاة والزواج والطلاق والقيد العائليّ وإصدارها، حتّى تمّ إنشاء مصلحة الأحوال المدنيّة فبات من اختصاصها توثيق هذه الشهادات وإصدارها.

فتهوي عصًا غليظةٌ على ركبتيّ، فيمتدّ سكّين الألم من ساقي إلى رأسي...

- آه.. يبدو إذَن أنّك خبيرٌ في الأفكار جميعها، تميّز الإخوان من الشيوعيّين، ومع ذلك تدّعي أنّك لا تميّز أعداء الوطن من المخلصين من أبنائه؟

- أقسم أنّي لم أسمع منه ما يعادي الوطن، ربّما يكون معاديًا للوطن... بل من المؤكّد أنّه كذلك ما دامت التحرّيات أثبتتْ ذلك، كلّ ما أقصده أنّه لم يتفوّه أمامي بما يفضح أمره، كذلك... لا شيء.. لا شيء..

وينغرس سيخٌ من نارٍ في معصمي.

- انطق وإلّا انتزعتُ خصيتَيك يا مخنّث يا ابن الأفاعي...

- سأنطق.. سأنطق... أردت أن أقول إنّ تمييز الإخوان من الشيوعيّين بسيط، أعني أنّ خطابهم مختلفٌ ولا يحتاج إلى خبيرٍ في الأفكار... أنا مجرّد موظّفٍ تافهٍ لا أقرأ سوى الجرائد... أرجوك، لديّ في بلدتي زوجةٌ وطفلٌ صغير، أنا ربّ أسرة... ربُّ أسرةٍ تافه... لم أقصد أيّ تشكيك، أردت فحسب توضيح أن....

لم أعرف مصدرَ الألم في البداية، لكنّه انتشرَ في جسدي، ثمّ استقرّ بين ساقيّ. قالوا إنّه ينتمي إلى الإخوان المسلمين، ولم أكرّر قناعتي بأنّه شيوعيّ. آلمني أنّي توقّفتُ عن الدفاع عنه بعد أوّل

صفعةٍ تلقَّيْتها. بعد أيّامٍ كرّروا الأسئلةَ ذاتَها في غرفةٍ زلقةٍ يكتنفها السواد، منقبضةٍ معبّأةٍ بأنفاس المعذّبين، ولا أذكر ما جرى لي على وجه التحديد، لأنّي كنت أتأرجحُ طوال الوقت على حافّة الوعي، وكذا لم أعرف شيئًا حتّى اليوم عن مصير صديقي الهارب وقتذاك؛ صديقي الذي رحّبتُ بخيانته حتّى أنجو بنفسي...

- اسمع يا قارئ الجرائد المتفلسف، يزعجني أن أطلق سراحَك، فأنت وأمثالُك خطرٌ مؤجّل، لكنّي سأمنحك فرصةً لترى الشارع مرّةً أخرى. ستوقّع على أقوالك التي حاولتَ مراوغتنا كثيرًا قبل أن تنطق بها، فعلى الأقلّ سيكون لدينا بهذا دليلُ إدانةٍ معتَبرٌ لصاحبك، وهو ما يهمّني الآن، أمّا أنت، فسيأتي دورُك لاحقًا ما لم تُراجِع أفكارَك الهدّامة، وتعود إلى صفوف المواطنين الشرفاء. اسمع: نعرف أنّك قدّمتَ طلبًا لإحالتك إلى المعاش المبكّر، ولقد قُبل الطلب منذ أسبوع، لذا سأسدي إليك نصيحة: عُد إلى امرأتك قبل أن نأتيك بها هنا...

وددتُ أن أسأله عمّا كتبُوه تحت مسمّى «أقوالي»، لكنّي لم أجرؤ، بل وقّعتُ على الأقوال ويدٌ تقودُ معصمي، والعصابةُ لم تزل على عينيّ.

لا أقدر على استرجاع ما حدث طوالَ الأيّام التي قضّيتها بعينين مُغلقتين على الهلع. فقد قرّر عقلي أن يُسقط الأحداثَ من ذاكرته

وارتأى أنّ الاحتفاظ بذكرياتٍ كتلك كفيلٌ بنبذ الحياة برُمّتها. أجهدتني كثيرًا محاولاتُ استعادة التفاصيل، بيد أنّي لم أسترجع سوى ألمٍ انتشر في شتّى مواضع جسدي، وشعورٍ خانق بالمهانة والخيانة. حاولتُ استدعاء التحقيق والمحاورات ففشلت. في إثر ذلك، قرّرت العودةَ إلى تراب أبي، آثرتُ معاشرة النحل في المنحل الصغير، عدتُ لأستوطن جسدَ هنادي التي تزوّجتها قبل سنواتٍ تنفيذًا لوصيّة أمّي، وشكّلتْ في فراشها حدود وطنٍ نبتَ منه مُرادي الوحيد.

يوم عدتُ، وجدتُ مراد ولدًا يفارق عتبةَ الطفولة بتؤدةٍ، لم أُخبِر أحدًا بعودتي، ولم أَسُق غير الشوق إلى مسقط رأسي مبرّرًا لرُجوعي. لقيت مراد في جلبابٍ نظيفٍ يطارد فراشةً ضلّت طريقَها. حمدتُ الله على أنّي قبلتُ اختيارَ أمّي لهنادي، وعلى قبول هنادي بالزواج منّي وهي صبيّةٌ مليحة، شابّةٌ ريّانةٌ في العشرين، بينما كنت رجلًا عبوسًا على عتبة الأربعين.

- كم صار عمره؟

وترمقني هنادي بنظرة عتابٍ يخالطها الشوق...

- تغيبُ شهورًا، ثمّ تسألني كلَّ مرّةٍ عن عمره كأنّك نسيت النجع ومَن فيه، أعرف أنّ حريم البندر الأكثر حلاوةً وميوعةً أسَرْن قلبك...

وأبادلها الشوقَ بالعناق...

- ربّما أنسى وهلةً أو أتناسى، لكنّي لا أنسى ليلةَ غرستُ في بستانك أجمل ثمارنا، لا بساتين في القاهرة يا هنادي، لا أرض ولا مستقرّ لي سواكِ، لن أسافر مرّةً أخرى...

تُغلق بابَ الدار، نترك مراد يطارد الفراشات في طريقه إلى الكُتّاب، وأتجوّل في بساتينها الظمآنة التي أرّقها جفافُ الغياب. فردتُ ذراعيَّ على الولد وأمّه، نصبتُ خيمتي فوق رؤوسنا، وعشتُ أجترُّ الزمنَ خلف جفنَين مُسبلَين.

لا أتذكّر كيف بقيتُ حيًّا طوالَ السنوات التي فَصلتْ بين عودتي إلى نجع المناسي واستدعاء مُراد للتجنيد في بداية عام 67. كلّ ما أذكره أنّي كنتُ أثور لأتفه الأسباب، أؤجّر بضعة قراريط، وأجاهدُ بين أسراب النحل محاولًا استدعاءَ طيف أبي وتَذكُّرَ طرائقه في العيش بين أعشاشه. أحاول التحقّق ممّا جرى في العاصمة، وأتجنّب الخوضَ في أمور السياسة والحرب، حتّى استُدعي مراد إلى الجنديّة.

وريقةٌ صغيرةٌ تحمل أمرًا بتسليم حياةِ شابٍّ إلى المجهول. لم أستوعب أنّ وحيدي أمسَى الآن مُدافعًا عن وطنٍ عذَّب أبَاه ونكَّل به تحت جناح الظلمة، قبل أن يقتاده هو إلى جبهة حربٍ من دون وجه حقّ...

آه.. الآن أستعيد من صفحات الزمن ما لا يمكن نسيانُه، وُلِد مراد قبل الثورة، وعدتُ أنا إلى القاهرة بعد بزوغ نجم الزعيم، أمّا

استدعاء مراد إلى الحرب، فقد حدث بعدما بلغتُ من العمر ستّين، أي أنّ هذا الاستدعاء كان مخالفًا للقانون ولم يزل!

انفرطَ عقد الزمن، فما عدتُ أميّزه. لفّتني غيبوبةٌ من شرود، وعرفتُ معاقرةَ الخمر، فاعتدت الحجَّ إلى حانة شواهي، ورحتُ أتأهّب لرحيلٍ وشيكٍ عن الدنيا، وأُكثِر من ريّ مدافن العائلة في طرف النجع. مَضَت الشهورُ كيوم واحدٍ طويلٍ حتّى اشتعلَ فتيلُ الحرب، وأفاد المارّون بالنجع أنّ الجيوش توشكُ على قهر العدوّ الإسرائيليّ، وتكاد تفتك بكامل قوّاته الجويّة والبريّة. وزفَّ إلينا الخوجة، فورَ نشوب الحرب، نبأَ شرائه جهازَ راديو يعمل بالبطّاريّات، ذاك الجهاز السحريّ الذي سيضعنا على خطّ الجبهة رفقةَ المقاتلين. فتزاحم الناسُ أسفل نافذته البحريّة، ومضت الأيّام والرجال متحلّقون حول الخوجة، حتّى جاء اليوم التاسع من يونيو سنة 67، ليتقلّب النجع بين الانكسار والافتخار.

في البدء جاءت مناورةُ عبد الناصر عشيّةَ ذلك اليوم بالتخلّي عن منصبٍ لا يتركه الزعماء، فلطمت النسوةُ الخدود وشققنَ الصدور وقطّعن الشعور.

وبكت هنادي مصيرَ مراد، أمّا أنا فوقعتُ في حيرةٍ عظيمةٍ ما بين لوعة الأب المكلوم، وشماتة رجلٍ مُهَان ثأرت الحرب لكرامته المهدورة. صدَّق العالمُ بأسره خطّة جمال، قبل أن يستفيق على انتفاضةٍ مصريّةٍ وعربيّةٍ دمّرت كلَّ حصون العدوّ محرّرةً كلّ الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة في اليوم التالي لخطاب التنحّي.

عندئذٍ غلبتْ سعادتي نشوة الثأر، وأعادتْ إليّ فُجائيّةُ الخبر الرغبةَ في الحياة. ثبّت النصرُ المباغتُ قدميَّ المهتزّتَين، وبدا الوطن أكثر جمالًا وأشدَّ تعلّقًا بشغاف القلب حين خَلعتُ عنه عباءةَ الزعيم. انسحبتْ أعراض المرض الذي عشتُ أتوهّمه، نسيتُ عدائي لعبد الناصر، ورقصتْ شواهي في الأزقّة. تورّدَ وجه هنادي، فبدت كأنّها تناست شكوكَها تجاهي، ثمّ لانَ جسدُها فجمَعَنا فراشٌ أفرغنَا فيه كلَّ شحنات القلق المختزنة وغرقنَا في غيبوبة غرامٍ وانتصارٍ طوت علينا اللّيلَ ونصفَ النهار التالي.

حينئذٍ لم نكُ نعرف أنّ عشر سنواتٍ أخرى سوف تنقضي من دون راحة، عشر سنواتٍ من المحاولات الشاقّة لإثبات أنّ مراد هو ولدي الوحيد، ووحدتُه تُعفيه من الحرب وفق القانون. انقطعت الاتّصالاتُ عن العالم خارجَ صفّ النخيل الفاصل بين النجع وحزام الألغام، وصار كلُّ شيءٍ يُدَار عبر خليل الخوجة.

راحت السنوات تمرُّ كسلحفاةٍ كسيحة، وهنادي تئد الشكَّ في عينَيها كلّمَا اجتمعنا وقد توسّطتنا الطبليّة، تراوغني نظراتُها وتحثّني على رواية المزيد عن حياتي في القاهرة، والزميلات والجارات اللّاتي أُعجِبتُ بإحداهنّ بلا شكّ.

- ماذا لديكِ؟ لماذا تُطلّ الاتّهامات مجدّدًا من عينيكِ؟

- يا نوح، العمر يجري كالقطار الغائب، وأنا أقسمتُ لك ألف مرّةٍ أنّي صفحتُ عنك قبل أن تتفوّه بكلمةٍ واحدة، فلا تطل

عذابي...

- أقسم أنّي لم أمسس امرأةً سواكِ! كم مرّةً ينبغي عليّ أن أعيد القسَمَ حتّى أنال ثقتك؟

- حكى لي الغجرُ والباعة الجوّالون عن حريم مصر، وتحاكوا عن غنجهنّ وجلاليبهنّ الضيّقة التي تكشف من الجسد ما واراه القماش، وسمعت كذلك عن المتعلّمات وزيّهنّ القصير وأفخاذهنّ العارية، وأنت عشت وحيدًا سنوات... أغفر لك ألف زلّةٍ تخبرني بها، ولا أغفر زلّةً واحدةً تكتمها... فقط لو...

وأطيحُ بالطبليّة والصحون فلا تجزع.

- أيكذب من بلغ عمري؟ ولمَ أكذبُ أصلًا؟ أتعتقدين أنّي أختلق البراءة لأغسل يديَّ من ذنب مراد؟ أفلا تصدّقين دموعي التي أحاول أن أذرفها بعيدًا عن فراشنا؟ أم تحسبينها دموعَ مذنبٍ لا نحيبَ أبٍ مكلومٍ مثلي؟

ولا تُظهر ملامحُها أثرًا يمكن تقصّيه...

- قالت الحكومة إنّه ليس وحيدًا، وإنّ له أخًا، وقال الخوجة...

لا أعرف أهي نبرتُها الخافتة التي أوحت لي بضعفٍ يستتر خلف جمود وجهها، أم تُراه ذِكر الخوجة ما ضاعف ثورتي؟ رحتُ ألعن الحكومة والخوجة، أصارعُ الهواء بساعدَين ناحلين، وأُقسم مُعيدًا كلَّ ما ذكرته منذ شهور.

صمتتْ هنادي، لكنّ شكوكها ظلّت تلاحقني بشأن حقيقة

وجود أخٍ لمراد ألقَى به في غيهب الجبهة، وبقيتُ أنا مُكبَّلًا لا حيلة لي أثبت بها خطأ كلِّ اتّهامٍ لم يُنطَق، ومرسومٍ لم يُنكَر.

عشرُ سنواتٍ من الترقّب، عمرٌ كاملٌ شاهدت فيه انطفاءَ قناديل الزيت ثلاثة آلافٍ وخمسمائة مرّةٍ مع كلّ بزوغٍ لفجرٍ لا يشهدُ عودةَ مراد، انفرطتْ ليالٍ تتّبعتُ فيها عرباتٍ مموّهةً تحجّ إلى دار الخوجة مئات المرّات، متعجبًّا من قدرتها على التسلّل بين الألغام.

أسأل الزائرين عن جديدٍ، فيُشيحون بوجوههم عنّي، حتّى أمسى لقاؤهم خلالَ اجتماعهم بالخوجة محرَّمًا بأمر البنادق. جفَّ اللّسان من كثرة ترديد السؤال على الخوجة: هل من جديدٍ بخصوص مراد؟ ألم تكتشف الدولة أنّه وحيدُ أبويه؟ هل لهم أن يأتوني بشهادة ميلاد أخيه المجهول؟ أو اسم زوجتي السرّيّة التي وضعتهُ؟ أو يرسلوا إليَّ ما يفيد خطأ إجراءاتهم، لعلّي يومئذٍ ألقي بخطابهم على وجه هنادي كقميص يوسف، فتستعيد نضارتَها، وتملأ صدرَها بشهيق ارتياحٍ يتزامن مع تصحيح الأوضاع بعودة الغائب.

ملَّ الرجلُ الخبيثُ السؤالَ حتّى اعتاد أن يشير إليَّ من بعيدٍ أن لا جديد. فكنتُ أقذف السيّارات المموّهة بالحجارة إبّانَ إدبارها مُغادِرةً نجع المناسي. حاولتُ تتبّع مساراتها لكنّ الترابَ الثائر طالما حجَبَها عن ناظريّ. كنت أصرخُ في عجلاتها الضخمة وأقذف الحجارةَ على ذيل الغبار وراءها: هذا من أجل مراد الذي اختطفتموه!

تدريجيًّا، استعدتُ الإحساسَ بالزمن، وعددتُ عشر سنواتٍ وأنا أتخيّله طفلًا يافعًا، يقفز فوقَ الطريق الممتدّ بين الحقول، يحمل حقيبتَه على ظهره، يرتدي أڤارول[1] النصر، ويلوّح بكلتا يدَيه.

العام الماضي، واريتُ هنادي الثرى، بعدمَا وعدتُها بألّا أجاورها قبل عودة مراد. شعرتُ بعظام ظهري تتفتّت وأنَا أهيل على مرقدها آخر حفنة تراب. أقسمتُ على كفنها أنْ لم أمسس غيرها، وطفقتُ أعتصر الذاكرة بحثًا عن تلك المرأة التي نبتَ من رحمها شقيق مراد، شككتُ في أنّ فترةَ ما بعد اعتقالي ظلّت ضبابيّةً، لا أذكر كيف بدأتْ ومتى انقضتْ. حاولتُ الوصولَ إلى هاتفٍ يصلني بعملي السابق، لعلّي إن راجعتُ آخرَ يوم عملٍ لي، وقارنته بتاريخ عودتي إلى النجع -الذي طالما تذكّرته هنادي- أرأبُ الصدعَ في ذاكرتي، لكنّي لم أجد سبيلًا إلى هاتفٍ ينقل إليَّ أخبار العاصمة.

اعتدتُ الجلوسَ حِذوَ مدفنها، وقد جعلته في باحة الدار. أُحدّثها وتُحدّثني، أبكي فيربّتُ طيفُها ظلَّ الطفل الخائف في صدري، يهمس الصمتُ أن سامحتُك، فيزيدني الغفرانُ قهرًا. أتصوّر معها كيف سيبدو مراد لو عادَ اليوم، ثمّ ألعن الأقدار، فتشدُّ هنادي من أزري، يلومني الناس لأنّي لم أصلِّ عليها في المسجد، ولم أخرج بجثمانها منه، ولم أُقِم لها جنازة، ولم أدفنها في الجبّانة. لم أكن في حاجةٍ إلى تصريحٍ بالدفن وشهادةِ وفاةٍ وقد ماتت هنادي بالفعل. إذ دأب

(1) أڤارول: مصطلحٌ يطلق على الزيّ الموحّد المصنوع من قطعةٍ واحدةٍ في العموم، ويستخدم لوصف الزيّ العسكريّ للسبب ذاته.

النجعُ برمّته على استصدار تلك الأوراق عبر خليل الخوجة، وقد اعتاد هو نفسُه أن يستغرقَ شهورًا لاستصدارها من وحدةٍ صحّيّةٍ مّا، بوساطةٍ من زوّاره الذين يَفِدُ بينهم رجالٌ في معاطف بيضاء.

ماتت أمّي منذ زمن، ولم أستصدر لها شهادةَ وفاةٍ لأنّها عاشت بلا شهادة ميلاد. مشت فوق الأرض شبحًا رحّالًا بلا قرينةٍ حكوميّةٍ تثبت وجودَه، بينما تركتني هنادي شبحًا تُقرّ الدولة بوجودٍ يُنكره، حفنةً من عدمٍ تشكّلت حين زفرتْ آخر أنفاسها بعدما اعتملَ في صدرها اليأس، رحلَتْ من دون علّةٍ ولا مرض، راحتْ في سُباتٍ طويل لا تستيقظ منه أبدًا. غَسّلتُها ودثّرتُها بكفنٍ احتفظتُ به لنفسي منذ سنوات، ثمّ دفنتها إلى جوار الريحان الذي عاشت تحبّه، فجعلته محيطًا بها، وبقيتُ أنا وحيدًا بلا كفن.

استطال الريحان حيث دفنتُ رفيقتي، وعلا حتّى طالته خيوطُ الشمس المتسرّبةُ من صفّ النخل. بدا النبت اليانع كأنّه منبثقٌ من جسدها، يستمدّ منها طاقته، ثم يبثُّ رائحتها فتطغى على أريج الريحان. تذكّرتُ حكايةً قَصّتْها عليَّ واحدةٌ من الجدّات، عن زرعٍ نَما حتّى شقّ السحب وسكن صدر السماء، وعن صبيٍّ تسلّق الساق حتّى بلغ الغيمات وافترشها، ثمّ تصوّرتُني أحملُ كفنَ هنادي وأصعد به إلى الغيمة فأصنع لها في السماء مرقدًا مخمليًّا.

- بلغ الصبيّ أعلى غيمةٍ يدركها البصر يا نوح، زرع في جوفها بذورَ الحِلبة، وجعل يحاول أن يحيط عرش الرحمن ببصره،

راح ينادي ويدعو تارة، ويناجي طيورًا غريبةَ الهيئة لا يعرفها أهلُ الأرض تارةً أخرى، آمنَ بأنّ الطيور ملائكةُ العرش، وبأنّ غيمتَه إلى صعودٍ مستمرّ، لكنّ الغيمة أنبتت زرعًا تنامى حتّى أثقلها، فغدت تنخفض صبيحة كلّ يومٍ مقتربةً من الأرض، حتّى أفاق الناس ذات يومٍ فوجدوا غيمةً خضراء وقد استقرّت في غيط البرسيم!

- وهل وجدوا الصبيّ يا جدّة؟

- لم يعثر عليه أحد، قالوا إنّ الطيور افترسته، وشاع بين العجائز أنّه بلغ عرش الرحمن فأسكنه خالقُه إلى جواره...

- أيعني هذا أنّه مات؟

- لا، لم يمت، فما ماتَ من بقي عملُه على الأرض، أمست زروعه فضائل أعماله، فهبطت من حيث ارتقى، وخلدت حكايته. لو لم يهتمّ الصبيّ بالغرس والزرع لنسيه الناس، وأوّلهم جدّتك...

- وهل يمكنني أن أصعد إلى السماء مثله؟

- من يملك قلبًا نقيًّا مثلك يمكنه أن يبصر مَا وراء الغيم، لا حاجة بك إلى ارتقاء الغيم، كما أنّ الغيم ما عاد يتهادى على مقربةٍ من أراضينا منذ أغرق السيل نجعنا القديم...

صرتُ أحلم كثيرًا بهذه الحكاية، ووددتُ أن أعيد حكاية الصبيّ الغائب، لكنّ الأيّام أبتْ أن تمنحني عطيّةً كتلك.

بمرور الأيّام وتشابُه المجالس، جفَّ الكلامُ وصمتتْ هنادي إلى الأبد. راح الأمل يتسرّب منّي، جسدي ينزّ خمرًا، والأرجل شقّقتها الطُّرق إثر طول التجوال، وعقلي لا يتوقّف عن حساب التواريخ بين زمان الاعتقال ويوم العودة، وتاريخ اختطاف مراد. فعلى الرغم من اكتمال عمليّة التحرير منذ الخامس عشر من يونيو 67، وفقًا لروايةٍ رسميّةٍ نقلتها الجريدة الحكوميّة الوحيدة التي يوزّعها الخوجة، ووفقًا لتقويم الروزنامة اليدويّة المعلّقة في مسجد النجع، فإنّ اليوم هو السبت، السابع من أبريل لسنة 1977، وما عاد مراد ولا زملاؤه حتّى اليوم، ثمّ إنّ الأوراق الثبوتيّة التي توثّق وجود أخٍ لمراد لم تصلني.

أتذكّر، ثمّ أحاول سدّ الثغرات في ذاكرتي، فلا أفلح إلّا قليلًا. جاء الدويّ العظيم، فأضحت الوجوهُ واجمةً والعيونُ شاردة. أصبح النجع -عن بكرة أبيه- منخرطًا في نوبةٍ مماثلةٍ لتذكّر الأحداث وإعادة ترتيبها، كأنّ الضوء الذي أغشى الأبصار قد أزال ساترًا خفيًّا عن عيون الناس، فأسقط الغشاوة عن بصائرهم.

وكنت قد اعتدتُ السُّكرَ رغم بلوغي أرذلَ العمر، فلم يُشعرني صمتُ الناس بمزيدٍ من الوحدة، إذ كيف يعزل الصمتُ مَن عاقر الخمر وحيدًا، بعدما أَلِفَ مجالسة المقابر؟ بيد أنّ ما استنفر حواسّي تدريجيًّا كان سقوط شعر رأسي وزوال حاجبيَّ!

يوم عادَ خليل الخوجة من مظاهرات رفض تنحّي الرئيس

في 67، بينما كانت زوجته البحراويّة تُعِدُّ عدّتَها للاحتفال بإتمام وحيدهما خمس سنوات، ألفيتُه مهزومًا يجرّ قدمَيه من خلفه فتتركان على الطريق أثرًا لخطَّين متعرّجَين يحدّدان وجهته، ويُعرِّفان بموقعه كدبّابةٍ مقصوفةٍ خربة.

قال الخوجة إنّ الجيش قد هُزِم، وإنّ مباغتة اليهود أفقدتْ قوّاتنا توازنَها. تحدّث عن قصف المطارات وتدمير الطائرات، ثمّ باع -في عُجالة- بضعةَ قراريط يملكها، وغابَ عن النجع أسبوعَين مرَّا عليَّ كدَهْر، أربعة عشر يومًا أمضيتُها أكفكف دمعي بطرف جلباب هنادي، حتّى عاد الخوجة في سيّارة فولكس زرقاء تمخُر عجلاتُها أرضَ النجع لأوّل مرّة، وتطاردُها العيون إذ تتبختر على أرضٍ غير مُعَبَّدَة.

التمعت السيّارةُ الزاهية بزُرقتها البهيّة، وتجمّع حولها الأطفال، وراح الأهالي يحملقون في مكوّناتها، فأغلبهم لم يغادر نجع المناسي، ولم يرَ سيّارةً حقيقيّةً منذ ولادته بخلاف سيّارات الإنجليز. نثر خليل فرحته وزهوَه بالسيّارة الفولكس على رؤوس الأشهاد، فنال تبجيلهم، قبل أن يعتلي سقفها، ليخطب في الجموع المنشغلة بأبّهة سيّارته اللّامعة تحت سياط شمس يونيو، ويبشّرهم بأنّ الأمر برمّته محض مناورةٍ سياسيّةٍ عظيمةٍ نفّذها الزعيم عبد الناصر، فأوهم العدوَّ بخسارتنا، بينما هو في واقع الأمر يشحذُ قوّاته للانقضاض، وهو ما تمّ في العاشر من يونيو، قبل أن يتحقّق النصر المبين بعد الضربة العربيّة المضادّة بأيّامٍ خمسة.

يومذاك، بكيتُ كما بكيتُ يومَ ولادة مراد، وشعرتُ بتحرّرٍ من الوزن، كأنّ الهزيمة المقترنة بغموض مصيره حجرٌ أصمُّ ثُبّتَ فوق صدري حتّى فتّتَتْه الحناجر الثملة بالنصر.

هنادي أيضًا أطلقت الزغاريدَ بمشاركة أهل النجع، واحتضن الرجال نسوتَهم حول سيّارة الخوجة. أقام الناس احتفالَهم المؤجّل بميلاد ابن الخوجة على إيقاع الربابة، وسهر النجع على وترها المشدود، ورقصِ شواهي، وصوتِ محروس الدبّاغ الشجيّ.

لكنّ خليل الخوجة عاد في صباحٍ أقلَّ بهجة، وأعلنَ أنّ النصر لا يعني أنّ مراد وأقرانه سوف يعودون على الفور، فللأمر استعداداتٌ وتحضيرات، ثمّ إنّ اليهود يشنّون هجماتٍ مضادّةً على حدود القدس حيث تستقرّ قوّاتُنا المسلّحة. أوضح جلّاب الأخبار المبهجة أنّ الهجمات بسيطةٌ ولا هدف لها إلّا استنزاف قوّتنا وتشتيت تركيز قادة الجيش، وإن اعترفنَا بأنّ هذه الغارات مزعجة فهي لا تُحقّق خسائر تُذكَر ولا تستوجب القلقَ على مقاتلينا البواسل.

وهكذا تسرّبت السنون على ضفاف حكايات الخوجة، والأخبار التي تنشرها جريدةُ «صوت الحرب». عقدٌ من الزمن تسلّل من كفوفنا كحفنة تراب، والنجع كلّه على قلب رجلٍ واحد، منتظر.

طوّق الجيشُ حدودَنا بحزامٍ من الألغام بعدَ تواتر أنباء عن محاولات العدوّ التسلّلَ إلى الصعيد عبر عمليّات إنزالٍ بحريّ، ومن ثمّ الالتفاف على قواعد قوّاتنا من الخلف. فكان الشيخ

أيّوب، كلّما همَّ منّا معترضٌ بالتذمّر وإبداء الضيق والكلل، يسارع إلى التذكير بثواب الجهاد في سبيل تحرير الأرض وحماية العرض، ومكافأة الخالق لمخلوقاته في جنّات عدن، حيث الخيرات لا تُعَدّ والممتعات لا يُحصَى لها عدد.

تساقطت أوراق الروزنامة في مسجد النجع، وتوقّف الخوجة عن توزيع ما تطبعه مطبعتُه العتيقة من نتائج. عقب ذلك، حلّ عطبٌ بالراديو الذي اشتراه كما هي الحال بسيّارته الفولكس، فاستبدّ بنا انعزالٌ تامّ.

توقّفت الكتاتيب، وانشغل المشايخ بدروس الدين، فشبَّ عن طوق الطفولة جيلٌ كاملٌ يحفظُ الآيات ولا يجيد قراءتها. كتبتُ بيديّ روزنامةً علّقتُها في المسجد، كنت حريصًا على توثيق الزمن ومنع تسرّبه من العقول قدرَ ما استطعت. حاولتُ عقدَ دروسٍ لتعليم القراءة، فكان الخوجة والشيخ أيّوب عقبةً سارعتْ بوأد رغبتي تلك، إذ أجمعَا على أنّ التعليم مهنةُ المشايخ والمعلّمين، لا النحّالين.

وهكذا طوّقت الحربُ الشبابَ بسياجَين؛ سياجِ خوفٍ يقبع في الصدور، وسياجِ ألغامٍ يُـــكبّل رغبتَهم في الرحيل، فكان أن هرب أغلبهم من رتابة الحواضر عبر التطوّع للمشاركة في الحرب فورَ بلوغ سنّ القتال المحدَّدة بستّة عشر عامًا، وتولّى الخوجة شؤونَ التطوّع بالتنسيق مع السيّارات المموّهة، وقد كُلّف أيضًا باستلام

الحوالات ممّن هم على الجبهة لكونه ممثلَ النجع أمام الدولة كما جعل يُباهي. اعتادت العربات المموّهة زيارتَه مرّتين كلّ شهر؛ تأتي محمَّلةً ببضائع ومؤنٍ غذائيّةٍ وطبّيّةٍ يبيعها للناس في دكّانه، وتمضي بعد أن تستلم منه ما اقتطعه من أهل النجع لحساب المجهود الحربيّ. لا أحد ينتبه إلى ارتفاع الأسعار، فالحرب تسوّغ كلَّ شيء، والاعتراض في آونة الأزمات خيانة.

تشابهت الأيّام، وتطابقت الكلماتُ التي يُدلي بها الخوجة في عبوره بين الأزقّة، أو في مجلسه مع زائريه. وعلى الرغم من الاتّفاق غير المُعلَن بين الناس على ابتلاع الكلمات المكرَّرَة وقتَما لُفظت، لاحظ الجميع أنّ الذاهبين إلى الحرب لا يعود منهم أحد. واظب بعضهم على إرسال حوالات وكلماتٍ مقتضبةٍ نادرةٍ لا تضيف إلى مدارك القوم جديدًا. وكنتُ أشفق على الأهالي التوّاقين إلى سماع خبرٍ جديد، مُرجِعًا قلّةَ الخطابات إلى قلّة مُجيدي الكتابة، لذلك ظلّ صدري ينفطر عقب كلّ زيارةٍ حكوميّةٍ يعقبها توزيعُ الخطابات، إذ أنّ مراد، الذي يتقن القراءة والكتابة، لم يرسل كلمةً واحدةً طوال عشر سنوات، ثمّ إنّه لم يُرسل حوالةً واحدة.

صار الخوجة ودكّانه قِبلةً للناس، يتوجّهون إليها بالدعاء لقضاء الحاجات. استطال ظلّ الخوجة وبات يتشبّه بالتمثال المنتصب في صدر داره، وتحوّل ولدُه الأخرس مرسالًا صامتًا يجول بين الدور مطالبًا بسدادٍ متأخّرٍ أو مستدعيًا الناس إلى مجلس أبيه. كنت كثيرًا ما أصادف الصبيّ حكيم جالسًا أسفل الشرفات والنوافذ، أو متّكئًا

على المصاطب وجدران الدور، كأنّه يتلصّص على الناس لينقل أخبارَهم، وهكذا تعاظم شكّي حتّى نمَا في داخلي الخوفُ من لُقياه.

باتت رؤيتُه كفيلةً بشقّ دثار الأمان الشخصيّ الذي اكتسبتُه لبعد المسافة بين النجع والجبهة، فماذا يفعل الصبيّ المعطوب اللسان؟ ولماذا يُرخي أبوه لجامَه ليجول بين الطرقات ويلتصق بالحوائط والشرفات؟ ما الذي يريده ذلك الصبيّ الغامض؟ رأف لحاله أغلبُ الناس بسبب عاهته المستحدثة، ولأثرٍ حزينٍ في عينيه خلّفته حكاية أمّه التي ظلّت موضع شكوكٍ حتى تبخّرت. لكنّي على الرغم من ذلك كمّمتُ تعاطفي، وبقيتُ حريصًا على إبقاء مسافةٍ تُباعِد بيني وبينه.

بعدما فاضَ النورُ من سماءٍ أثقلتْها أدعيةُ المنتظرين، انتابني شكٌّ عظيمٌ في أنّ الأمر برمّته -أي الضوء والدويّ- له علاقةٌ مباشرةٌ بالحرب. اعتقدتُ أوّلَ الأمر أنّ حزمةً من الألغام انفجرت دفعةً واحدة، لكنّ الشهود أقسمُوا أنّهم شاهدوا الضوء يسقط من السماء، فذهبتُ إلى ترجيح فرضيّةٍ مفادُها أنّ الجيش ربّما اختبر سلاحًا جديدًا، ثمّ توقّفتُ أمام شهادات الناس: لو كان مصدرُ الضوء جسمًا هائلًا سقط من السماء وتشظّى إلى مائة حجرٍ وحجر، فلماذا لم تنفجر الألغامُ بسقوط هذا الجسم؟ هل استخدمت إسرائيل وحلفاؤها سلاحًا نوويًّا ضدّ قوّاتنا؟

لكنّ أمورًا كرتابة الحياة، واستسلام الأهالي، وتحوّلهم السريع

من طور ترتيب الأحداث وتذكُّرها إلى طور عداوةٍ مجّانيّةٍ يكنّها بعضهم لبعض، راحت تثبّط تفنيدي للأمور، وتَئِدُ حماستي تجاهَ الجهر بأيّ كشفٍ جديد.

انكمشتْ خلايَا النحل في منحلي الصغير، ولسَعَتْني نحلتَان بخلاف ما جرت العادة. غادرتُ المنحل، بعد أن خزّنت العسلَ في الصفائح. ثمّ بعتُ أغلبَه لدكّان الخوجة، فاقتطعَ ربعَ قيمته لحساب المجهود الحربيّ كما جرت العادة، ونقدني باقي قيمته، علاوةً على إيجار القراريط التي يستأجرها منّي ولا يزرعها.

احتفظتُ بالقليل من مخزون العسَل في المنحل، أحكمتُ إغلاقَه ومضيتُ بين الدروب مُستدعيًا حكاياتٍ توارثتها الألسنة عن أجدادٍ رُحّلٍ أقامُوا لهم وطنًا في أرضٍ خفيضةٍ حين أنهكهم السفر والترحال، ورجوتُ الله أن يجعل منّي قدّيسًا كذلك الذي شقّ الترعة في رواية الأسلاف، قدّيسًا يُبشّر بالحرّيّة، ويقيم بين الناس فُلك الخلاص، قبل أن تدور دائرة التاريخ فيدْهَمَهم سيلٌ جديد.

وخلال أيّامٍ أعقبتْ مواظبتي على التجوال ومحاولة التبشير بضرورة انتهاء الحرب لاستعادة الحياة، قرأتُ على حائط الدار عباراتٍ تنزّ غلًّا وكراهية، كلماتٍ كُتِبَت بلون الحقد الأسود، تنال من مراد وتمنحه مصيرًا سوداويًّا.

شبَّ الجنون في عقلي، وهرعتُ شطرَ المسجد حيث الناس مجتمعون. وفي الطريق، وجدتُ عباراتٍ مشابهةً فوق جدران الدور

تنال من سائر أهل النجع، فجاءت شكواي مماثلةً لشكواهم. تحدّث الشيخ أيّوب عن غضب الله حين يحلّ بالعباد، وعن سقوط الحجر. كانت كلماتُه متوتّرةً كعادته، فتبادلتُ نظرات الشكّ مع الموجودين، وتذكّرت سيرةَ أبيه الذي دُفِن بعدمَا أعلن طبيب الوحدة الصحّيّة -القادم من قرية مجاورة- أنّه مات، ثمّ استفاق الميّت لينبش قبره، فهرع إليه الناس وعجّلوا بتنصيبه وليًّا مباركًا. استدعيتُ من ذاكرتي حكايات العوامّ عن معجزات رجلٍ عجوزٍ خرفٍ أذهبتْ ظلمةُ القبر عقلَه، فعاش أعوامَه الأخيرة بلا عقل.

اعتادَ الناس أن يردّدوا الحكايات عن كرامات الرجل المخبول، حتّى أحاطوه برداء الوليّ المقرّب إلى الخالق. كدتُ أتبسّم وأنا أسترجع الخرافات وأفنّد أقاويلَ لم يشهدها أغلبُ متداوليها، ثمّ عقدتُ مقارنةً سريعةً بين سيرة الوليّ المزعوم وعيون الناس السارحة في كلمات الشيخ أيّوب. القفطان ذاته والعمامة ذاتها، ووجوهٌ متشابهةٌ تبحث عن اللّسان ذاته ليتلوَ عليهم أخبارًا تُثبّط الهمم، وتُعطّل التفكّر. عيونُهم التي حُرّمت عليها الدهشة تبحث عن وليٍّ كالعبد إذ يبحث عن سطوة السيّد. فكم من فاجعةٍ حلّت بهذا النجع وهم كالسائرين نيامًا؟ اليوم جاؤوا إلى المسجد مسحورين، يمشون في قطعانٍ تدفعها عصَا القلق، خطواتهم بطيئةٌ وهمّتُهم مبتورة، لماذا يبحثون عن الخلاص في طيّات عباءة الشيخ، وينبشون الهواء بحثًا عن معجزةٍ تُفسّر تغيّر الأحوال؟ يُسلمون عقولَهم لخرافة الوليّ قاهر الموت، فينحنون أمام ولده المرتعد، ويتركون غدَهم رهينَ دكّان

الخوجة. يبتسمون لمرأى آثار عجلات السيّارات المموّهة أمام داره، ويتلقّفون منه القصصَ والأخبارَ بإيمانٍ ورضًا، وقد ربط كلٌّ منهم منديلًا على جبينه أو اعتمر طاقيّةً حسبَها تحجب صلعته.

جموعٌ تجلس القرفصاء أمام عمامةٍ وقفطان، أو تقف برؤوسٍ محنيّةٍ في طابورٍ طويلٍ أمامَ مَن يوزّع أنصبةَ الحياة والموت، وتغذُّ الخطوَ إذا مرّت أسفلَ ظلِّ تمثالٍ لا رأس له! لمَ لا يتوقّف أحدهم أمام عجز الشيخ ذاته عن استرجاع نوقٍ للكلّاف ضجرَت من الأسْر فعبرت فوقَ الألغام -آمنة- إلى براحٍ مُباح، لم تطأه قدم؟ أو أمام فشله في مداواة امرأة النجّار العاقر، وقد حبلتْ بعد رحيله؟

أتساءل: كم نيزكًا يستلزم الأمر حتّى تتكوّن لدينا ذاكرةٌ جديدة؟ كم قتيلًا ينبغي أن يسقط، وكم حربًا يتوجّب أن تأكل أبناءنا حتّى تروي العجائز تاريخًا مغايرًا لما يروينه اليوم؟ متى يكون لدينا تاريخٌ يقفز فوق سِيَر السيل والشهب والحرب والغرق، وحكايات تؤسّس لذاكرة تُسقِط من صفحاتها صورةَ الشيخ الوليّ، وخليل الخوجة، وتمثال زعيمه الجائل بين العقول المذعورة؟ متى يصبح لدينا جريدةٌ تعجُّ بصورٍ ملوّنة للأطفال في الغيطان، والصبايا في الأعراس، جريدة تنقل لنا صور فلسطين المحرّرة، وتغيب عنها صور الحرب والدبّابات، ومفردات القتال المقدّس؟

يقولُ الشيخ أيّوب إنّ انتظار الفرج عبادة، فيؤمّن الناسُ على عبارته ما بين مؤمن قانعٍ ودامعٍ مُتشكّك. أُقرِّر الانسحاب من

ساحة المسجد الممتلئة برؤوسٍ منكّسة، لم أعد أشعر بالتعاطف مع الجهلاء، كنتُ أعلم أنّ أحد الحضور قد لطّخ داري بعباراته، وكان الحاضرون من الصفاقة أن بادلوني نظرات الشكّ بالارتياب. تمحورت الشكوك حول من يجيد الكتابة وهم قلّةٌ من جيلي، بيد أنّ شيطان الشكّ سكن القلوب، فأمست الشكوك في فاعل الجرم متساويةً بين من يجيد الكتابة، ومَن لا يعرف إليها السبيل.

تركتُ المسجد كما أتيته، غاضبًا تحفُّ بخطواتي مشاعرُ قلقٍ تجاه كلّ شيء. أتبادل مع المارّة نظراتِ عداوةٍ تنقصها كلمةٌ واحدةٌ لتستحيل عراكًا، لم يعد بينهم من يبدي احترامًا لشيخٍ سبعينيّ مثلي، ربّما لا تشي هيئتي بسنّي، لكنّ انحناءةَ ظهري مُذ غابت هنادي ظلّت دليلًا يدمغ كهولةً لا تعوزها صعوبةُ الحركة ولا آفات النسيان. احتلّت العقلَ مساحةُ فراغٍ يشوبها الهمُّ وترتع في ردهاتها الوساوس، فقدتُ الشهيّة إلى حياةٍ أتوجّس قوادِمَها، وسكنتْني رغبةٌ متأجّجةٌ في عدم التواصل مع الجنس البشريّ برمّته. واصلتُ الترحال، ورحتُ أحنّ إلى طفولةٍ كنت أصادقُ فيها الطيورَ والقطط، وأتوق إلى أبوّةٍ انتُزع منها صغيري الذي لن أموتَ قبل عودته. كنت أشتاق إلى العيش إنسانًا عاديًّا، بدلًا من العيش كآلة جرٍّ ملتحمةٍ بقطارٍ قديم. افتقدتُ الكثيرَ من بشريّتي عقبَ رحيل هنادي، وكدتُ أستسلم لسبعة عقودٍ لم تفلح في ثَنْي ظهري، حتّى جاء الضوء فمسّني وباءُ القلق.

أجوب طرقات النجع ثمّ أقف على ضريح الشيخ جعفر الواقع

في المدخل القبليّ. أتأمّل قبّتَه الشبيهةَ بغيّة الحمام، أمرّ بأصابعي على طبقات التراب المتراكم على جداره، وآثار الشمعات التي توقد في مساءات الجمع. أسبُّ العجوزَ الخرف، وأتذكّر ولدَه أيّوب حين قضّى ثلاث ليالٍ إلى جوار قبر أبيه عقب مِيتته الثانية، وقد ظنّ أنّه حتمًا سيعود كالمرّة الأولى.

كنتُ أقطع النجعَ شمالًا متتبّعًا مسارَ الترعة، حتّى ألامسَ حوافَّ السماء ناحيةَ بيت شواهي، ثمّ أعود في الاتّجاه المعاكس صَوْبَ بيت النجّار. القوارب المرصوصة خلفَ بيت محجوب تنتظر السيل القادم، وحانة الغجريّة مغلقة؛ غيّبت شواهي الكثيرَ من بهجة النجع باختفائها منذ انشقّت السماء عن الضوء العظيم.

أحَبَّ مراد رقصَ شواهي، وربّما اشتهاها كأغلب رجال النجع. قالت هنادي إنّها لا تمانع أن تُزوّجه الغجريّة إن عاد، قالت: لا امرأة غير شواهي قادرةٌ على ريّ ظمإ الحرب الذي نالَ من جسده الشابّ. تعجّبتُ لكلماتها ولم أعارضها، رغم أنّها جاءت لتُعارض تحقيرَها الدائم من شأن امرأةٍ لفظتها قافلةُ غجرٍ منذ زمانٍ بعيد.

- أتزوِّجِينَه شواهي التي بقيت محلَّ سخْطك منذ وقعت عيناك عليها في أوّل حفل زفافٍ حضرناه سويًّا؟

أقول باسمًا، فتجيب وقد خضّبت وجهها حمرةُ الخجل...

- تبدو كامرأةٍ لعوب، لكنّ حكايتها مُفجعة، إن صحّت حكاية الخالة وداد. ثمّ إنّ الرجل، أيّ رجل... كما تعرف، لا يريد من المرأة سوى...

وأطوّق كتفَيها مقاطعًا:

-حتّى أنا؟ ألم أرَ فيكِ سوى جسدٍ يا هنادي؟

وتستكين إلى صدري، تشردُ كأنّها تستعيد زمانًا اختلطتْ فيه الكلماتُ بالجسد، فيغزو الدفء أوصالها...

-ربّما هي لعوب بالفعل، ولعلّ ميوعتَها فطريّة، لكنّها تظلّ مهرةً إن وجدت خيّالَها سكنتْ إليه، ولا فارس في نجعنا أحقّ بها من مراد، لا يقدر على ترويضها سواه...

ونتقاسم الضحكات، حتّى يكسو الضبابُ المشهدَ وتتبخّر الكلمات. ماتت هنادي، وتبخّرت شواهي مع الانفجار، وما زال مراد متحصّنًا خلف متاريس الغياب.

هكذَا عشتُ أتأرجح كجنينٍ مُعلَّقٍ في مشيمة واقعٍ خلّقه خليل الخوجة من نطفةِ خيالٍ ودوّامات شجن، مضيتُ بين الناس مُبشّرًا ونذيرًا، فكنتُ كعازفٍ جوّالٍ في نجعٍ أصمّ. تُتلى على الرؤوس أخبارٌ، فتجحظ العيون من دون أن تفيض بالدهشة في غياب الحاجبَين.

أطلقتُ سراحَ الجواد الهَرِم في صدري، قطعتُ لجامَه، وحرّرتُه ليستعيدَ برّيّة أجدادٍ روّضوا الصحراء في القدم، طفتُ حول النجع مرّاتٍ محاولًا الوقوفَ على لُغْمٍ منسيٍّ خارجَ خرائط الخوجة، أو بحثًا عن كعبةٍ غير مرئيّة، أو فلسطينيٍّ محرَّر يزفّ لنا حُرّيّتَه. تجاوزتُ لافتات التحذيرات الضخمة على مقربةٍ من طوق الألغام، تذكّرت المحقّقين وفريق انتزاع الأقوال، وارتدّتْ إلى عينيّ هزيمتي وأنا

أوقّعُ أوراقًا في نهاية التحقيق يُفترَض أنّها تحمل أقوالي واعترافاتي عن زميلي المُطارَد. تذكّرتُ الهاربينَ من النجع خلال العقد المنقضي والحكايات المتعارضة عن نهاياتهم المصبوغة بالدم. فكّرتُ في الهرب فورَ عودة مراد، ثمّ فكّرت في الهربِ من قلقي عليه إليه؛ لكنّ الحرب لا تقبل مشاركات العجائز.

اعتدتُ، كلّما تذكّرتُ مراد، أن أقتعد العشب النابتَ حذوَ ضفّة الترعة، أراقب قطعانَ أبي ذنيبة[1] التي ستتحوّل غدًا إلى ضفادع. تساءلتُ دومًا عن قدرتها على استشراف مستقبلها، وشعرتُ بالحسدِ إذ افترضتُ مقدرتها على الانسلاخ من حياةٍ كاملةٍ وتَرْكِها خلفها كجلبابٍ قديمٍ مهترئ، ألا يستحقّ مراد أن ينزع عنه رداء الحرب ليبتدئ حياةً جديدة؟

أُصيخُ السمعَ إلى الصمت شاحذًا جُلَّ الحواسّ، أتحرّى أيَّ صوتٍ يأتي من وراء الألغام، طائرة أو عربة تحمل أخبارًا، ضجيج قوافل الغجر؛ لا شيء سوى عواء الذئاب بعد إشراقة القمر.

قديمًا، اعتادَ الناسُ سماعَ صوت قطارٍ بعيدٍ يعبر ليزفّ نبأَ استمرار الحياة، فلا حياة من دون ترحال، لكنَّ القطار أصابَه الخرسُ منذ زمن، غاب صوت صافرته الذي أضحى كالنغم في أذنيَّ بعدما اندثر، فتوقّفتْ خطط الترحال في العقول، وأضحى النجعُ كحفنةٍ

(1) أبي ذنيبة: هو يرقة الضفدع في مرحلة حياته الثانية، يعيش في الماء ويمر بعملية تحوّل يصل بعدها إلى مرحلة الضفدع البالغ، إذ يختفي الذيل، وتنبت الأرجل، وتتحوّل الخياشيم إلى رئات.

من رمالٍ يحملها خليل الخوجة في مشنّة[1] فوق رأسه، يمضي بها ويوزّع على الناس أنصبتَهم من وباءٍ لا مصل له.

بِتُّ أُكثِر من مطالعة صفحة الماء في الترعة محاولًا تذكّرَ ملامحي قبل سقوط شعري وزوال حاجبيّ، أتساءل: هل سيعرفني مراد يوم يعود؟ هل نال الوباءُ من المقاتلين على الجبهة؟ هل تحوّل الجنود هم أيضًا إلى سلاحف؟ هل سقطتْ شعورهم وانمحت حواجبهم؟ كيف يبدو مراد برأسٍ أمرد؟ كيف يبدو شابًّا؟ هل يوزّعون على المقاتلين عددًا كافيًا من الخوذات تقيهم حرَّ شمس الصحراء؟ ولماذا لا يوزّعون على الناس في النجع خوذاتٍ مماثلة؟ ألم تسقط شعورُنَا بعدمَا أمطرت السماء صخرًا؟ الزوّار الذين يمرّون بدار الخوجة، يجيئونه وقد اعتمروا قبّعات قماشيّة، فلماذا لا توزّع على الناس الخوذات وقد صاروا في أمسّ الحاجة إلى الأمان؟

يرتجّ عقلي فأرتدي رقعةَ طرزان الجلديّة، وأقفز بين أغصانٍ ليّنةٍ تسرّبت إلى عقلي من شاشة سينما مترو ذات مساءٍ أكثر صفاءً في زمان ما قبل الاعتقال، أصرخُ محاولًا محاكاة صرخته الشهيرة، أنادي مراد، ثمّ أحاولُ أن أتذكّر مُرافقي في السينما يومذاك، أكان زميلي الشيوعيَّ الذي اقتصّت منّي الدولة عقابًا على مرافقته؟ أم رافقتني هنادي إبّان زيارةٍ نادرةٍ إلى القاهرة؟ أم تراها امرأةٌ أخرى بذرتُ في أحشائها لغمًا نسفَ أمان مراد بعد سنوات؟

(1) المشنّة: وعاءٌ من الخوص أو الأغصان اللدن، تُوضعُ فيه المخبوزات كالخبز والفطير، واعتاد جدودنا أن يضعوا قي قعره قطعة قماشٍ تمنع سقوطَ الخبز من ثغراته.

أسمعُ النحل يطنّ في أذنيّ بينما أخوض في أتون الذكريات، أستقبل الطنين بشغفٍ وحبور، ثمّ تستعيدني نوبةُ خوفٍ طالما استسلمتُ لها. يتحوّل الخوف أرقًا، يخاتلني سلطان النوم، يهجر مضجعي ويمزّق الوسادات. فهل صرتُ فعلًا بومةً عجوزًا، تطوف حول حدود النجع، تطوي اللّيل تحت جناحيها، تُراقب الصمت، ولا تنام؟

وجاء نهارٌ وقد سئمتُ مطالعةَ العبارات على جدران الدار. وقفتُ على رأس هنادي، قرأتُ الفاتحة على شاهدتها وأَقْرَأْتُها سلامًا دامعًا، ثمّ وقفتُ على المعدّيّة[1]، وشددتُ الحبلَ قاصدًا الضفّةَ الشرقيّة للنجع، وقد قرّرتُ ألّا أعود قبل أن يعترف لي خليل الخوجة، صاغرًا، بمصير مراد وسببِ قطع الإجازات عن الجنود كما يدّعي منذ عشر سنوات. قرّرتُ الشروعَ في مواجهةٍ تأخّرت أعوامًا، سأصرخ في وجهه معترفًا بأنّي ذلك المجهول الذي حطّم تمثال الزعيم، وبأنّي سأحطّم ما تبقّى منه أمام ناظرَيه، لا أخشى أن ألقى مصيرَ النسّاج المقتول، ولا أشكُّ في أنّ الخوجة هو قاتله.

مالت الشمسُ مُتكاسلةً شطرَ البحر، فمضيتُ والدار من خلفي على الضفّة الغربيّة تتضاءل، والحقولُ تتّسعُ لتبتلع كلَّ الآمال ببزوغ مراد. اصطبغت السماءُ بالأخضر، فالتحمتْ مع البساط

(1) المعدّية: وسيلة نقل نهري بدائيّة يستخدمها المصريّون منذ قرون، وهي عبارة عن طوفٍ خشبيٍّ بدائيٍّ لا يحتوي على أيّ محرّكات، يُثبّت به حبل يكون مربوطًا إلى ضفّتَي النيل أو الترعة، بحيث يشدّ الراكبون الحبل فيتحرّك الطّوف من ضفّة إلى أخرى.

المنسدل تحت قدميّ، الترعة أسفل قدميّ عكست رأسًا أملسَ تطوّقه أذنَا الجواد العجوز الذي أمسيته. تحسّستُ رأسي، ففطنتُ إلى أنّني نسيتُ طاقيّتي، لم أهتمّ إذ كانت الشمس إلى أُفول، ونظرتُ خلفي حيث الدار غائرة في خضارٍ باهت، والكلمات على جدارها تصرخ بما يصمّ أذنيّ:

«ولدك هالك أيّها النحّال، ذلك مصير من يؤوون بينهم قاتلًا».

منين أجيب ناس لمعناه الكلام يتلوه
كلام قالوه ناس وياما بكرا ناس يقولوه
القول على سبع لكن سبع شرقاوي
الاسم الأدهم ولكن نأبه شرقاوي
حكايته يادي العجب فيها العقول بتوه



عبد الحليم حافظ

كلمات: مرسي جميل عزيز

لحن: محمد الموجي

الجلسة الثانية

محروس الدبّاغ

استيقظتُ اليومَ بمزاجٍ معطوبٍ ولسانٍ ملجومٍ، وطعومُ الرماد وبقايا الأفيون تسبحُ في فمي. ألِفتُ العيشَ برأسي الجديد، اعتدتُ ما يبثُّه في جسدي من خمول، إلّا أنّ القلق بما يفرزه من هواجس كان يشتّت خاطري ويبذر المسامير فوق الحصيرة التي أفترشُها.

استلمتُ الحوالات الشهريّة من الخوجة، أرسلَ حمد وعيسى ما يرسلانه كلَّ شهرٍ بعد اقتطاع المستحقّ لحساب المجهود الحربيّ. ولوهلة، لفَّني شجنٌ واعتراني ندم، فلو أنّي أرسلتهما إلى أحد الكتاتيب لتمكَّنَا اليومَ من كتابة خطابٍ يُطفئ ضرام الشوق في صدر أمّهما، ويُنزل عليَّ السكينة. كنت أتمنّى أن يكون أيٌّ من ولديَّ مُتعلّمًا كحكيم ابن الخوجة، فهو يكتب كُشوفَ الوارد والمنصرف في دكّان أبيه، ويدوّن كلمات أغاني عبد الحليم حافظ التي يبثّها جهازه العجيب. يُقال إنّه صار يكتب الأغاني وينظم الشعر في حنينه إلى أمّه التي هجرته، أو في محبوبةٍ من نسج خياله.

رأيتُ الجهازَ السحريَّ مرّةً واحدة. لفّ حكيم الزنبرك بحماسٍ حتّى نطق الجهاز مستمدًّا طاقتَه من صاحبه، ذاك الصبيّ الصغير السنّ الفارع الطول، الذي اعتاد قراءة الكتب المتراكمة في مكتبة

أبيه. لو نشأ ولدَاي كحكيم القارئ والكاتب وسمّاع الأغنيات لبتُّ في حالٍ أفضل، ولما جرؤتُ على نهرهما كما نهرَ الخوجة ولدَه أمامي حين اكتشف أنّه كتب أغنيَة لعبد الحليم في الصفحة المخصّصة لكتابة مديونيّات أهالي النجع. الجميع مدينون للخوجة، والرجل في حقيقة الأمر مشكورٌ لأنّه يقبل بالبيع الآجل، حتّى إن اتّهمه رجلٌ كالنحّال بأنّه يُحكم سيطرتَه على الناس عَبْرَ لَيِّ أعناقهم بالدَّيْن... فالنحّال مخبولٌ على أيّ حال.

بالتأكيد سيتمكّن حكيم من كتابة الخطابات لأبيه عندما يبلغ سنَّ القتال، فينضمّ إلى الجنديّة، سيروي ظمأه بحكاياتٍ عن الجبهة وزيارات عبد الناصر. ولكن؛ هل الجيش بحاجةٍ إلى جنديٍّ أخرس مثل حكيم. آه... لو حرصتُ على تعليم حَمَد وعيسى، لطلبتُ اليومَ من الخوجة أن يقرأ عليَّ خطاباتهما، لأُطِلّ من خلالها على تفاصيل بطولاتهما، ودورهما المهمّ في قهر العدوّ الآثم.

بِعتُ الزرعَ للخوجة، فخصَم ما يخصمه، وقايضتُ بعضه بالأفيون، واشتريتُ حاجيات الدار من دكّانه. لاحظتُ غلاءَ الأسعار فلم أعترض، ثمّ دسستُ أظرف الحوالات في جيب السيّالة، ومضيتُ.

في صدر الدار ألفيتُ مُرّةَ على بسطة البيت، كانت تُحدِّث دميةً قطنيّةً ممدّدةً في حجرها، وتشمّرُ جلبابَها بما يكشفُ عن فخذَين ناصعي البياض، تسرحُ فيهما عروقٌ زرقاء وترتقي مصعّدةً حتّى تغور في تكوّر فخذَيها ومنبت ردفيها. ناديتُها أنبّهها، لتحمل عنّي

أكياسَ البقالة، فلم تردّ. وظلّت تُحدّث دميتَها بكلماتٍ تبدو غير مفهومة، لكنّي كنت قادرًا على فكّ لعثمتها لطول الاعتياد.

مرجان اتجوّز مرجانه
شعرك سلب الجمان
والقورة دي هلال شعبان
وحواجبك خطّ الرحمن
وعيونك دي عيون غزلان
وخشمك خاتم سليمان

كان الإوزّ يصيح ويثير الترابَ النائم، وأمّ حمد ترشّ الماءَ أمام الجهة الغربيّة للدار قُبالةَ الترعة. قابلتني بوجهٍ شارد، وضعتُ بين يديها أظرف الحوالات، فأخرجتْ ما فيها من أوراقٍ نقديّة، ودسّتْها في صدرها من دون أن تبدي ردَّ فعل.

اعتدتُ مبادلتَها الوجومَ بالصمت، ومشاطرتَها القلق في العموم، حتّى مَا لا يُبرَّر منه. تمحورَ قلقنا في الماضي حول مُرّةَ والعلّة التي نالت من عقلها طفلةً ففصلتْ بين جسدها ولسانها. كانت مُرّةُ في الرابعة عشرة من عمرها لا تجيد الكلام، تلهو كالأطفال دون السادسة، وتتحدّث فلا يفهم أحدٌ مرادَها سوانَا أنا وأمّها. أيقنّا أنّ قسمتَها في الزواج منعدمة، وأنّ حظَّها محصورٌ في صبيٍّ يولَد بالنجع على شاكلتها. فرتّبنَا حالَنا على أن تبقى معنا، وعقدنَا اتّفاقًا غيرَ منطوقٍ على أنْ نُهيّئ لها سُبَلَ العيش من بعدنا، برعايةِ أخوَيها، بما يُجنّبها العوَز.

هكذا خاطت أمّ حمد جِوالًا من القماش الأبيض، وجعلت تخزّن فيه المال والمصوغ من الفضّة والذهب حصّةً ثابتةً خصّصناها لمُرّة، تُقتَطع ممّا أتحصّل عليه من بيع الزرع، وممّا يرسله أخواها في أظرفٍ تخلُو من الكلمات، فبات لدينَا حصّتان مقتطعتان، حصّةٌ للطفلة المعوقة، ومثلها للدولة.

مؤخّرًا، ومنذ أضاء اللّيل كأنّه النهار، تعاظمتْ مظاهر القلق، وصار الجميع مُرتابين، حتّى إنّي بتُّ أشكُّ أحيانًا في أنّ أمّ حمد لم تعد توليني تمام ثقتها! انكفأ كلٌّ في عزلته. ثمّ ظهرت الكلمات على كافّة الدور في النجع. بدأت على دار النحّال، ثمّ انتشرت فوق كلّ جدارٍ كأنّ حروفَها مُعْدية، حتّى إنّ بعض الكلمات الغامضة كُتِبت على دار النسّاج وورشته المغلقة منذ وفاة امرأته، ثمّ مقتله هو منذ قرابة العام. وقد طالبت العبارات بنقل رفاته إلى فلسطين!

لم أستطع قراءةَ المكتوب على داري، لكنّي شعرتُ بإهانةٍ مماثلةٍ لما رأيتُه في أعين بعض الناس من نظرات مواساةٍ لا تخلو من الغضب. تكوّنت عزلةٌ إضافيّةٌ داخل كلّ عزلة، فوجدتُ راحةً في الانعزال عن فراش أمّ حَمَد، وافترشتُ الحُصُر الملاصقة لباب الدار. لقد منحتني صنيعة زكريا النسّاج راحةً أكثرَ من المرتبة التي أعادَ تنجيدها قبل سنوات.

البارحة، شهد النجعُ توتّرًا عظيمًا، إذ هجم نوح النحّال على خليل الخوجة في المسجد عقبَ المغيب، واتّهمه بكتابة العبارات على داره، وبفرض سطوته على الناس، وحمَّله مسؤوليّاتٍ لا يُعقَل

أن يتحمّلها شخصٌ خَيّرٌ مثل خليل. فما من عاقل يتّهم الخوجة بالتسبّب في إطالة أمد الحرب وإعاقة عودة المقاتلين، وهو الوحيد الذي يروي ظمأ الناس بأخباره وبصحيفته التي تُوزَّع مجّانًا على الجميع. ألا يكفي الناس أنّ الله أنزل البلاء بولد الخوجة، فجعله صامتًا كالقبر؟ ألا تشفع للخوجة محنتُه في وحيده الذي هجرته أمّه القاسية طفلًا؟ ألا تعتصر قلوبهم شفقةٌ تجاه صبيٍّ مليحٍ يبدّد وحدتَه بالركض بين الدروب؟ ولماذا يسبّ النحّال الزعيم؟ ألأنّه يدافع عن أرضنا وأرض أشقّائنا العرب؟ ألا يشفع تحرير فلسطين لأيّ تأخّر في إنهاء الحرب؟ ألا يعرف نوح، ربيب المدارس والجامعات القاهريّة، قوّةَ حلفاء الصهاينة، ورغبتهم في الثأر بعدما قهرناهم مجتمعين؟ ولماذا هو الوحيد الذي لا يعطف على حكيم؟! بل لماذا يُشَيْطِنه ويُصوّره جاسوسًا لأبيه؟

كان حكيم كثير التجوال بين الأزقّة، حتّى إنّ المرء يشعر أحيانًا أنّ له ثلاثة توائم أو أربعة، فما أكاد ألقاه جالسًا قربَ دكّة النعال حذوَ باب المسجد، حتّى أضبطه على مقربةٍ من دار شواهي، أو جالسًا عند ضفّة الترعة حيثُ عُثِر على جثّة النسّاج، أو قرب الجبّانة، أو قاعدًا على مصطبة الخالة وداد يداعب قططها، عقب ظهوره الأوّل بدقائق.. تساءلتُ كثيرًا عن سرعةِ عَدْو الصغير التي تؤهّله للتنقّل الشبحيّ بين الأمكنة، حتّى إنّ بعض النسوة قد أشعن -قبل زمان الوباء- أنّ للصبيّ توائمَ من القطط، تتجسّد في هيئته وقتَما يتراءى لهم.

لماذا يعادي بعضُ الناس -إذَن- خليل الخوجة؟ هو جلّاب

الحوالات، هو مَن يبيعه الناسُ محاصيلَهم ومنتجاتهم، وهو مَن يبيعهم ما أرادوه من السلع. فماذا فعلَ الخوجة للنحّال؟ وماذا فعل النحّال للنجع سوى الترنّح مخمورًا في الأزقّة وعلى مشارف النجع منذ وفاة زوجته؟ ألا يبيع الخوجة الخمر للنحّال خِفية؟ كلّنا نعرف أن لا مصدر للبيع والشراء غير الخوجة، والجميع على درايةٍ بالقيراطين اللذَين يؤجّرهما نوح للخوجة، من دون أن يزرع منهما شبرًا. علاقتهما وطيدة إذَنْ بشهادة الجميع. فلمَ جاءت غضبة النحّال عارمةً إن لم يكن قد فقَد عقله؟

يعرف النجع حكايةَ ابن النحّال، وكيف أُرسل إلى الجبهة على الرغم من كونه الابنَ الوحيد لأبويه. تعاطف معه كثيرون وكنتُ منهم، وإن ساورتنا حيالَ الرجل شكوكٌ، إذ أسرَّ الخوجة لأكثر من شخصٍ بأنّ النحّال ربّما زوّر شهادةَ ميلاده ليُجنِّب ابنه الجنديّة، وأنّه لم يكن قد جاوزَ الستّين حين استدعت الحربُ وحيدَه بخلاف ما يدّعي. لكنّ الحرب تفرض الرضا كما يقول الشيخ أيّوب، لذا يظلّ غضبُ نوح مستهجنًا، فأغلب بيوت النجع أرسلت أبناءها إلى الحرب، وكلّ القلوب يسكنها الخوف، وجلُّ النيام يراودهم الحلم ذاته بعودة المحاربين الشُبّان، لكنْ لا أحد يفعل ما يفعله النحّال. زكريا النسّاج -رحمه الله- ذهب أبناؤه الثلاثة إلى الحرب، ولم يصدر عنه سلوكٌ معيبٌ حتّى غرق، اللهمّ إلّا ثورته المشهودة يوم غادروا النجع.

مررتُ بالمسجد عشيّةَ البارحة بعدما عرفتُ ما صدَر عن النحّال، فألفيتُ الشيخ مكلومًا، يحكُّ موضعَ حاجبَيه ويتلفّتُ حولَه أكثر ممّا يتكلّم، يُعيد آياتٍ وتفاسيرَ يكاد الحاضرون يكفرون بها، ويزيد من شكوكهم تلعثمُ تلاوته وكثرةُ التفاته شطرَ باب المسجد. فيصوّبون له الآيات من مصاحف المسجد كلّما حادَ عن ترتيبها. لم أحبّ تَشكُّك الناس في كلمات الله وسُنّةِ نبيّه الكريم، وتطاولهم أمامَ الرجل الصالح التقيّ الورع، تمامًا كما لم أستحسن تراخي الشيخ -الطيّب- في مواجهة أعينٍ تفيض بالاستنكار.

لم أستسغ معاملتَه الجميع بالتساوي، رغم يقيني ويقينه، ويقين الجميع، من أنّ بينهم شخصًا موتورًا يسُبُّ الناس على جدران بيوتهم، ويخوضُ في سيرهم، ويلوّث سمعتهم. استنكرتُ أن يصمت الناس حيال الإهانات التي سقطت على رأس الشيخ أيّوب، وهم يُدركون أنّه العارف بكتاب الله، وإن نال منه وباءُ القلق، فهو يظلّ ابنَ الشيخ جعفر، الوليّ الصالح الذي اختصّه الله بالبعث من القبر.

طالما تساءلت: كيف يداوم الناس على زيارة ضريح الوليّ في طرف النجع، ويوقدون الشموعَ في حضرة سيرته العطرة، ثمّ يقبَلُون إهانة ولده؟ هل تناسوا معجزات الشيخ؟ ألا يتذكّرون حكاية المرأة العاقر التي انقطع طمثها ليلةَ دارَ الوليّ بسبّابته فوق رأسها متمتمًا بأوراده الخاصّة؟ هل أسقطت ذاكرتُهم أنّ المرأة حبلت بلمسةٍ من الشيخ جعفر بعد إعلانها العُقر؟ حتّى إنّ امرأة النجّار عنايات بقيت

مخاصمةً للشيوخ بعدما أشاعت أنّ الشيخ فشلَ في بثّ الخضار في أرضها البور، والحقّ أنّ الشيخ لم يفشل، بل خشي أن يساعدها وقد استشعر في خِلفتها شرًّا يحيق بالنجع.

والناس يقولون إنّ عنايات حبلت بعد انقطاع طمثها إثرَ عملٍ سفليّ صنعته وداد، ويهمسون أنّ هذا السحر حتمًا سيؤدّي إلى عقر صبيّةٍ أخرى دون السادسة عشرة. وها هي نبوءة الشيخ تتحقّق، فما إن استقرّ في أحشائها جنين حتّى استعمر الكربُ النجع.

أمّا الشيخ، فكنتُ ألتمس له عذرًا يبرّر شرودَه وانكساره، إذ نالَه من كلمات النحّال ما لا يسرُّ، فازداد توتّرًا والتفاتًا. لقد قذفَه المخبول باتّهاماتٍ تتعلّق بصحيح الدين، وذكّر الناس في ذروة ثورته بأنّ المصاحفَ الموجودة في مسجد النجع طُبعت في مطبعة خليل الخوجة، وهو يقصد بذلك أنّ الخوجة حرّف الآيات الدالّة على قداسة الحرب التي يخوضها الوطن منذ سنوات. ولئن برهن الأمر على ذهاب عقل المسكين نوح، فقد وجدتُ في صمت الناس على خَرَفِه تواطؤًا وخيانة. ولو كنت موجودًا آنذاك لأخرستُه، وربّما قطعت لسانَه ليغدوَ كابن خليل، فما من عاقلٍ يهزأ بقول الله «وإِنِّي بَاعِثٌ بَيْنَكُم نَاصِرًا يَوْمَ يَظُنُّ النَّاس أَنْ لَا خَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِ الرُّسُل»[1]، ربّما قصد النحّال أنّ المقصود بـ«ناصر» في كتاب الله ليس ذاته الزعيم جمال عبد الناصر، لكنّ الخمر أذهبتْ عقلَه فادّعَى

(1) الآية الواردة غير صحيحة، تمّ دسّها بين الآيات السماويّة من قبل المنتفعين لتمجيد الزعيم وفق سياق الرواية.

أنّ الآية مدسوسةٌ على كتاب الله، ناسيًا أو مُتناسيًا أنّ الله حافظٌ للذكر أبدَ الدهر. لقد كفر النحّال إذَن بكتاب الله كلّه حين ادّعى ما ادّعاه...

دعا الشيخ له بالهداية، وحطّ الصمتُ على رؤوس الناس في باحة المسجد، لم يبادله الرجلُ الفطن الشكَّ بالحُجّة، ولا السباب باللّوم، إذ أدرك بفطنةٍ ورثها عن أبيه أنّ الرجل ممسوسٌ أو مخبولٌ لا ريب، فتركه يمضي لحاله، وخطب في الناس عن صلاةٍ واجبةٍ تُذهب الشرّ وتدرأ وباءَ القلق.

إبّان عودتي إلى الدار، واللّيلُ شديدُ الحلكة، استوقفَني محجوب النجّار، ألفيتُه يحمل فأسًا ضخمةً ويجرُّ من ورائه عربةً صفيحيّةً قيل إنّه يجمع فيها شظايا النجم الساقط. كانت عيناه حمراوَين كجمرتَين من لهب، وجلبابه ملطّخًا بالتراب ونشارة الخشب، كأنّه زرع الأرض والطرقات للتوّ زحفًا. بدَا متوجّسًا، قلقًا كحال الجميع، متأهّبًا لشيءٍ يؤرّقه، وبدت هيئتُه مخيفةً وقد نسِيَ على ما يبدو أن يعتمر طاقيّته. شعرت بأنّه يُضمر لي السوء، فوقفتُ على مسافة ذراعَين منه.

- ألم تسمع شيئًا عن وداد يا محروس؟

كنت أُدرك أنّ عنايات قد تَلِدُ له رضيعًا ابن سبعة شهورٍ في أيّ لحظة. وسمعت، من حديث أمّ حمد مع جارةٍ عبرتْ سائلةً عن وداد، أنّ الداية[1] العجوز قد اختفتْ أو آثرت اعتزالَ البشر

(1) الداية: القابلة.

منذ سقوط النجم. وبعض الناس يسوّقون أخبارًا عن مصرعها في الانفجار بينما هي موشكةٌ على التسلّل من النجع.

- علمي علمك يا محجوب، لا أعرف عنها شيئًا...

وكنتُ أشكُّ في ولادة عنايات، فقد يكون الحملُ الذي زرعَه السحر في أحشائها هو مَنْ جلَب الوبال للنجع بأسره. ولمَ لا؟ فها هي شرورها تتمخّض بعد أن اختفت الداية، لكنّي -وعلى كراهيتي لمولودها قبل مجيئه- لم أُبدِ شماتةً تستحقّها جلّابة السحر، ربّما تيمّنًا بما سنَّه الشيخ أيّوب من إظهارٍ لدلائل التراحم، فقد اعتاد الناس مشاهدته يدقّ أبوابَ الدور بحثًا عن الخالة وداد كلّما دقّ بابَها فلم تجبهُ، كما جزمَ الشهود بأنّ الشيخ خلط مرّاتٍ عديدةً بين اسميْ وداد وشواهي إبّان مناداة ضالّته.

وكان النجّارُ أكثرَنا ذعرًا وجلبًا للريبة، فلديه من المؤرّقات ما يزيد عن أيّ واحدٍ منّا. هو أيضًا كُتبتْ على داره العبارات المسيئة، لكنّه لم يقرأها بطبيعة الحال، وأغلب الظنّ أنّه لو قرأها لما توقّف عن بحثه عن ظلّ وداد. كرّر الرجل السؤال، فهززتُ رأسي نافيًا علمي بأيّ جديد...

- قلت لك يا محجوب إنّي لم أسمع عنها شيئًا منذ سقوط الحجر وراءَ النجع، لكنّي سمعت أنّ الشيخ أيّوب يبذل ما بوسعه للعثور عليها، الرجل يدقّ بابَها وأبوابَ كلّ دارٍ مغلقةٍ مرّاتٍ عديدةً كلَّ يوم، فما خطبك؟ هل داهمت زوجتَك آلامُ الوضع؟

توجّستُ لمرأى الفأس في يده وقد راح ينقلها بين كفّيه. فازددتُ ابتعادًا، لكنّ كلماته أمسكتْ بتلابيبي:

- أنتم أخفيتُم وداد، بل... ربّما قتلتموها، أعرف ما يقال عن ولدي القادم... أعرف أنّه صبيّ... لكنّكم تحمّلون زوجتي مسؤوليّة اللّعنة، ما أنتم إلّا قوم ظالمون... هل كانت عنايات قد وُلدت عندما أغرقَ السّيلُ ديارَ الجدود؟ لعنكم الله كما تلعنون صبيًّا لم يزل في بطن أمّه وكما ألعنُ أنا حظَّه العاثر الذي سيُلقي به بين أناسٍ مثلكم...

حاولتُ تهدئتَه، لكنّه دارَ حول نفسه كمَن يفتّش الفراغ، ثمّ لطم رأسَه الأصلع مرّاتٍ في غضب، واستدارَ يجرُّ عربتَه إلى طريقٍ تحفّها ظلمةُ الحقول. تحسّستُ صلعتي المخبّأة تحت طاقيّتي. ثمّ وضعتُ مضغةً من الأفيون تحت لساني، وقصدتُ البيت.

وعندما وصلتُ، وجدتُ مُرّة تجلس في حِجر أمّها. كبر جسدها، لكنّها لم تكبر على التأرجح في حجر أمّها التي تكاد تسقط بها أرضًا. اقتربتُ، فانفجرَتْ في نوبة نواحٍ طويلٍ صامت، قبل أن تهرول إلى الخارج حاملةً دميتَها القطنيّة وقد قصّت قماشَ شعرها فأمست صلعاءَ مثلنَا. اقتربتُ منها صامتًا، استشعرَتْ خطرًا في اقترابي، صاحت في صغيرتها ألّا تبعد عن باب الدار، وأتبعتْ نداءها بتحذيرها ألّا تحادث قريبًا ولا غريبًا. هممتُ أن أربّت على رأس أمّ حمد، فصرختْ قبل أن ألمسها:

- لا تمسسني أيّها الدبّاغ!

كنتُ قد نسيتُ المهنةَ واحتفظتُ باسمها، حتّى صارت جزءًا من اسمي استعاضَ به الناس عن اسم أبي. بيد أنّ أمّ حمد طالما أجبرتْني على استعادة زمان الدباغة عبر مناداتي بالدبّاغ. جرى ذلك قبل الحرب، منذ سنواتٍ لم أعد أذكر عددَها، استقرّتْ منها في ذاكرتي رائحةُ الجلود وثقلُ جيب الجلباب بالرزق الموفور، والطريق الضيّقة إلى المدبغة الواقعة في قريةٍ على مقربة من النجع، لكنّ كلّ شيءٍ توقّف مع أوّل صاروخٍ أطلقه العدوّ نحو الوطن.

قرّرتُ في البداية ألّا أغلق المدبغة الصغيرة التي ورثتها عن أبي، لكنّ حزامَ ألغامٍ أحاط بالنجع سريعًا فأنهى كلَّ آمال الاستمرار. حمدتُ الله أنّ تلك المدبغة مكّنت أبي من شراء فدّانَين من الأرض في نجع المناسي، وتحوّلتُ إلى الزراعة.

أتيتُ بفلّاحين شبّانٍ ممّن لهم درايةٌ بالزرع والأرض، ووقفتُ كالظلّ من ورائهم، أستعيد كلمات أبي، وأتعلّم. اشتريت نصف دستة من المواشي أمَّن لي الخوجة دخولَها إلى النجع المحاصر، وفي غضون أشهرٍ قليلة، استغنيتُ عن نصف الفلّاحين، أو استغنى أغلبهم عنّي حين لبّوا نداءَ الوطن فتطوّعوا للقتال. كبر حمد وعيسى فقلّ عدد الفلّاحين، ظلّ منهما اثنان مع ثلاثتنا، ودارت الأرض دورتَها، فاسمرّت الوجوه، وتشقّقت الكفوف، وفاضت الأرض بشتّى ألوان الثمر.

كان ريع البيع يكفي لتلبية احتياجاتنا ويزيد، فالمعروض يفيض على المطلوب بعد حصار النجع، حتّى إنّي لم أزد عدد الفلّاحين بعد

التحاق حمد وعيسى بالحرب، إذ ظلّ الرزق ميسورًا، خصوصًا وقد دأب الخوجة على شراء ما يتبقّى من الزرع بنصف ثمنه المتّفق عليه، ليبيعه عقبَ ذلك للسيّارات المموّهة. لكنّ أمّ حمد التي لا تعرف الرضا كانت كعموم النسوة طمّاعة، لا تملّ الشكوى، ولا ترفع يديها حمدًا لله إلّا في ما ندر، أو كلّما توجّهت إليه بشكوى صامتةٍ منّي، فتفور مقلتاها بشتّى الشتائم والملامات.

-ما بكِ يا امرأة؟ عجيب حالك في الأيّام الأخيرة، كنت سأقول إنّ الوباء بدّل طبعكِ لو لم تكن الفظاظةُ شيمتك منذ الأزل!

-لعنك الله في كلّ زمانٍ ومكانٍ يا دبّاغ، صرت أنتظر الأذان لا لأصلّي، بل لأدعو الله أن ينجيني منك، لكنّ الله عليم بذنوبي، ولو استجاب لنصف أدعيتي لسقط ذاك الحجر فوق رأسك...

لعنتُها كما هي عادتي، وودت لو ألكمها، ثمّ آثرت السلامة فتجاوزتها كما يتفادى المرءُ روثَ البهائم في الطريق.

استعدتُ تفاصيلَ اليوم السابق، حين عبث الأفيون بعقلي، فتداخلتْ بعض التفاصيل وأزمنة حدوثها، قصدتُ ساعتَها باب الدار مغادرًا أمّ حَمد وغضبتها التي اعتدتها قبل اليوم مكتومة. ودّعتُ مُرّة بابتسامةٍ لم تبادلني إيّاها، إذ ظلّت منشغلةً بإعادة لصق شعر دميتها الذي قصّته ولصقَتْه أكثر من مرّة. شعرتُ بغصّةٍ في حلقي

فولّيتُ الدارَ ظهري. تجاهلتُ مطالعة العبارات على الجدران، ونفرتُ من سواد حروفها. غسلت أمّ حمد الجدار، وبذلت جهدًا عظيمًا لمحو الكلمات، بيد أنّ العبارات بهتت ولم تختفِ.

قال خليل الخوجة إنّ مخزون الصابون في متجره يوشك على النفاد، بعدما انخرط الجميع في سَعيٍ محموم لمحو مهانتهم، وقال النحّال إنّ المهانة لن يزيلها غير الدم، وحمدتُ أنا الله إذ لم ينعم عليَّ بمعرفة القراءة، على الرغم من أنّ نظرات البعض سيّجتني بشكوكٍ وغضبٍ مكتوم.

غصتُ في خضار الحقل حتّى ابتلعني، وافترشتُ الأرض في غيط النعناع، حين لاحظتُ لأوّل مَرّة أنّ خيال المآتة -القريب من مجلسي- يحرّك رأسَه تجاهي.

قبل سقوط الحجر من السماء، تحَاكَى الصِّبْيَة عن تمثال الزعيم المبتور الرأس والكتف، شاع بينهم أنّه يدور في القرية عقبَ العشاء، يطارد الأطفال السهارى، ويضاجع الفلّاحات اللّاتي تأخّرن في حقولهنّ.

راحت النسوة يَتَهَامَسْن بحكاياتٍ عن فحولة التمثال وثقلِ استلقائه على أجساد الفلّاحات البضّة وصلابةِ عضوه. كذّب الشيخ أيّوب الحكايات بعدما بلغت ذروتَها، وثار الرجال على زوجاتهم، وضرب أكثرُ من رجلٍ امرأتَه بعدمَا حدّثته عن تمثال الزعيم وعضوه الحجريّ، وكيف أنّه لا ينكمش ولا يرتخي كأعضاء

البشر، فلا يتوقّف قبل أن تبلغ كلّ امرأةٍ ذروةَ نشوتها. وقيل إنّ بعض النسوة رُحنَ يتعمّدن الانتظار في الحقول إلى ما بعد المغيب، لعلّ إحداهنّ تحظى بمواقعة الفحل الحجريّ.

هكذا نَمَت للتمثال المشطور أسطورة جعلت له سطوةً على العقول، إلّا أنّي كفرت بتلك الروايات. لم أؤمن يومًا بخرافاته، فلو كان المارد حقيقيًّا لباتَ حريًّا به أن ينضمّ إلى بواسلنا على الجبهة، بيد أنّ كلّ تلك الحكايات ارتدّت إلى عقلي وقتما تحرّك خيال المآتة فأولاني وجهَه وقد طَمست معالمَه طاقيةٌ قديمةٌ ثبّتَها فوق رأسه منذ زمن. تحرّيتُ الريحَ فألفيت الفضاء ساكنًا لا يحرّك سعف النخل، ودهمني ذعر.

كان أوّل ما قفز إلى ذهني أنّ التمثال حقيقيّ، وأنّه يوشك على مهاجمتي، وإن لم أكُ صبيًّا تأخّر عن العودة إلى داره، ولا فلّاحة شبقةً تخلّفت عن ضوء النهار منتظرةً طعنة عضوه الصلب. انتفضتُ كمَن لسعتْه الحيّة، تلفتُّ حولي، فأيقنتُ أنّ الظلام أرسَى خيمته على النجع، والقمر لا يبعث إلّا بصيص نورٍ يُخيف ولا يُطمْئِن. ندمتُ على أنّي لم أحمل معي سراجًا، إذ غادرتُ البيت والشمس على شفا المغيب. حملقتُ حيث يستقرُّ خيالُ المآتة، فظلّ ثابتًا وهلة، قبل أن يتحرّك ظلّه برويّةٍ كأنّه ينوي مباغتتي!

تذكّرتُ حكايةَ زكريا النسّاج، قتيل الترعة الذي فُجع النجعُ بحكايته منذ عام. لقد عُرف النسّاج بكونه رجلًا طيبًا، أرملَ تطوّع

أبناؤه الثلاثةُ في الحرب منذ بلوغ أصغرهم السادسة عشرة، سنّ الجنديّة. يتذكّر الجميع نواح النسّاج حين كاد يفتك بخليل الخوجة يومَ رحلَ أبناؤه. كثيرون لاموا الخوجة على الرغم من أنّ أبناء النسّاج كانوا المبادرين بالتطوّع، لكنّ خليل قَبِل بالظلم كعادته، واقتاد الشباب إلى حيث قرّروا مصائرهم. ابتلع المهانة وأغلق دكّانه طوال يومَين، حتّى زاره الشيخ أيّوب وكبارات النجع ليقدّموا له اعتذارَهم واعتذار النسّاج.

طوال الأعوام التي تلت تلك الواقعة، عاشَ النسّاج بين الناس مسالمًا مبادرًا بإلقاء التحايا. ظلّت دارُه المشتهرة بالغزل وصناعة الحصر مفتوحة، وقد تعدّدت نشاطاتُه وتنامت. ما زلت أذكر صورتَه وهو يربط خيوطَه بين شجرتَين على مقربة من شطّ الترعة، قبل أن يشرع في النسج على هذه الخيوط، من خلالها وفي ثناياها، حتّى ينتهي خلال يوم أو يومَين من منسوجةٍ تستوقف الناس بين جيئةٍ وذهاب، ليتغزّلوا بالمغزول، ويستعلموا عن كُلفة الشراء.

ذاعت بين القرى درايةُ زكريا الواسعة بالنسج والخياطة وإلمامُه بكلّ ما تصنعه الإبر. جعل الناس يرتادونه، فيشترون ويمتدحون حُسْنَ ضيافته وقناعته في البيع. صنع، علاوة على الحصر، منتجاتٍ ومنسوجاتٍ عديدةً لها ألوانٌ مبهجةٌ تنثر الفرح، مشنّاتٍ وتعاريشَ وكراسيَّ مجدولة. اشترتْ أمّ حمد منسوجاتٍ عديدةً من مغزله بين الشجرتَين، فضلًا عن المفارش والبياضات وجلابيب الرجال

والنساء، علاوةً على أعمال التنجيد الموسميّة، وتلكَ تُحوّل دارَه إلى مزارٍ يتوافد إليه الناس من شتّى الدور في زمان الحصار، ومن غالبيّة القرى قبل الحرب.

لم أفهم رفضَه لطلب الخوجة المستمرّ بعرض بضائعه في دكّانه، أرجعَ البعض الأمر إلى صغر حجم الدكّان. وقال بعضهم إنّ الرجل يعادي الدولة. في نهاية الأمر، بقي النسّاج الشخص الوحيد الذي لا يحتاج إلى الخوجة. وكما انتشر بين الأهالي، كان مخزنه عامرًا بشتّى الأقمشة والمستلزمات حين اندلعت الحرب، ثمّ إنّه اعتاد المقايضة، فيستبدل بالحُصر القديمة أخرى جديدة، ثمّ يعيد القديمة جديدةً ويبيعها مرّةً أخرى. لطالما أحببتُ ذلك الرجل، وجذبني عطفُه على مُرَّة، وعلى حكيم ابن الخوجة، ولكنته غير القرويّة، أعجبتْني بشاشتُه التي لم تنل منها الحرب، بالرغم ممّا قيل عن ضعف بصره بسبب طول البكاء على سفر أولاده إلى الجبهة. عاش محبوبًا من سائر الناس، وقُبِر وحيدًا في كفنٍ حملته أيادي الغرباء.

قبل الحرب، منح حبُّ الحياة النسّاجَ سحرًا حوّلَ أصابعه عصَا حاوٍ تسحر الأعين وتبتكرُ ألوانًا وزخرفاتٍ لم يسبق للناس رؤيتها. عاش معجونًا بماء الحياة، ينثر رذاذَها أينما حلّ، لذلك دوّت في إثر مقتله صرخةٌ شقّت الجُدران في كلّ دار، فطفق الناس يتبادلون العزاء كأنّ الفقيدَ مُصابهم جميعًا. حتّى خليل الخوجة، بدا حزينًا، وُشِمَت على وجهه طبقاتٌ من الكرب والكدر.

تحرّك خيالُ المآتة مجدّدًا فتبخّر وجهُ النسّاج من رأسي، وطافت الهواجس في عقلي، تجسّدت في عينيّ خيالاتُ التمثال المتجوّل، وجثّة زكريا حين استخرجها الناس بصعوبةٍ من الترعة بعدما اكتشفها الكلّاف. شكّك بعضهم في كونها جثّته، غير أنّ آخرين أكّدوا أنّ الجلباب جلبابه، وقال الأطفال إنّ السمك الصغير فقأ عينيه، وتحدّث النحّال عن قطعان أبي ذنيبة التي نهشت الجثّة! وبكتْ مُرّة كثيرًا، وكذا حكيم الأخرس.

يومذاك، شيّع النسّاجَ كلُّ أطفال النجع في مشهدٍ غير مألوف. راحت أصداء العويل والهمهمات المتداخلة ما بين ترحّمٍ وحوقلةٍ ترتدّ إلى أذنيّ بالتزامن مع حركة خيال المآتة. أطلقتُ ساقيّ للريح، وركضت في اتّجاهٍ تبيّنت لاحقًا أنّه معاكسٌ لاتّجاه الدار. هربتُ ومن خلفي أرتالٌ من المخاوف. بلغتُ آخر الترعة المجاور للجبّانة جنوب النجع، ثمّة معدّية على الجانب الآخر من الشاطئ والحبل الذي يسحبها إلى ضفّتي مقطوع، أطلال النجع القديم خلف الجبّانة تتماوج، ولا شيء يلوح على الشطّ المقابل سوى ظلالٍ تركض بعيدًا. عبرتُ الترعة عَومًا، وهو أمرٌ لم أفعله منذ ما يزيد على ثلاثين سنة. كنتُ أسمع لهاثًا يقترب من ورائي، وظلالَ جنودٍ في خوذاتٍ عسكريّةٍ تتقافز أمام ناظريّ كأنّي أطاردها. مرّت دقائق وأنا أركض بسرعاتٍ متفاوتة. كان الجلباب المبتلّ يثبّط سرعتي، فأقف تارةً وأنظر خلفي فلا أبصر شيئًا، ثمّ أطالع الأفق الكابي أمامي لأجدَ ظلال الجنود الهاربة من خطّ النار وقد تلاشت. أتّكئ بكفيَّ على

ركبتيّ لاهثًا، راكعًا أقف أمام هواجسي، ألتقط أنفاسي وهلةً، وأشمّر جلبابي قبل أن أعاود الركض.

لم أتصوّر أنّي ما زلت قادرًا على الركض وقد قاربتُ الستّين. راح الخضار أسفلَ قدميّ ينحسر تدريجيًّا، كموجةٍ تمضي إلى جزرها.

تحدّث الشيخ أيّوب يومًا عن المدّ والجزر، وقرأ خليل الخوجة جريدة «صوت الحرب» ذات مرّة، فقال إنّ قوّات العدوّ استهدفت عبورَ البحر بالتزامن مع المدّ، لكنّ حمد وعيسى وباقي الأبطال كانوا لهم بالمرصاد، يعني ذلك أنّ حمد وعيسى متمركزان في معسكرٍ على مقربةٍ من البحر، وليسا في القاهرة، أو حتّى في معسكراتنا بفلسطين. أهناك بحرٌ في فلسطين؟

كان صوتُ الركض واللّهاث من خلفي يراوغني بين اقترابٍ واختفاء، أركض بمفاصلَ مرتعشة، حتّى أسقط والأضواء تنسحب من عينيَّ تاركةً أسرابًا من النقاط السوداء، والنجمات في السماء تنطفئ الواحدة تلو الأخرى كالمصابيح العتيقة.

راودتني رؤيا عن النجع القديم، فرأيتُ الناس غارقين أسفل دُورِهم يومَ اكتمل القمر. لم يتسنَّ للناجين إخراجهم، فأمستْ بيوتُهم قبورَهم. النباتات والأعشاب الشيطانيّة بزغت من جوف النجع القديم في السهل الخفيض، سمادها جثامين وصرخاتٌ مكتومةٌ وأنفاسٌ خائرةٌ وخوفٌ عظيم. قليلون هم من يجسرون على المرور فوق أنقاض النجع، شواهي والخالة وداد والنحّال المخبول

مرّوا من هناك، والحكاياتُ كثيرةٌ عن أصوات أنينٍ تصدر من مسام الأرض كلّما توسّط القمرُ السماء.

انتقل بي فضاء الحلم إلى وجه الشيخ جعفر الوضّاء. فرأيتُ النساء يهرولنَ إلى داره، يتجمّعن في الصحن وقد حملنَ أطفالهنّ، بقلوبٍ استوطنتْها الهواجس وعيونٍ تجوس فيها نظرات الرجاء. يظهر الشيخ العجوز المبارك. يحتشد الرجال خارج الدار ويعلو الهتاف بالتكبير. يجلس ولدُه تحت قدمَيه بعدما اقتادَه من خلوته إلى الناس. يتمتم بعباراتٍ منقوصةٍ هي خليطٌ من الآيات والذكر والأوراد وبعض أبيات البوصيريّ في مديح النبيّ. يجلس الوليّ فوق كرسيٍّ خشبيٍّ ضخمٍ له ظهرٌ مزخرفٌ طُلِيَ حديثًا بعد عودة الشيخ من الموت، يستوي فوق عرشه أمامَ مريدين لم يخترهم، وتجوس عيناه المضبّبتَان في وجوهٍ تُسبّح بحمده، ثمّ يُنظّم ولدُه النسوةَ ليصطففن في طابورٍ طويل.

يتلقّف الشيخ المأخوذ بالضجيج الطفلَ تلو الآخر، يفتح فمَ الصغير ويبصق فيه، فتزغرد النسوة ويكرّر الرجال التكبيرات. لقد نالَ صغيرهم بركةَ العائد من القبر، فغدَا عصيًّا على منجل الموت. يشير إليَّ الشيخ مناديًا، فأتبرّك بالجلوس أسفلَ قدمه اليمنى، بينما الشيخ أيّوب يفترش الأرض حذو يسراه.

يهمس لي الشيخ أيّوب، يقول إنّ العالم الذي رآه أبوه مغايرٌ لما جاء منه، وغريبٌ عمّا عاد إليه. يتبادل النظرات مع أبيه المتلعثم في محاولته لوصف ذلك العالم السحريّ في البرزخ، يحاول ترميمَ

المبتور من كلماته، وقد بات كثيرَ الشرود، مزمومَ الفم، ينثر لعابَه كلّما نطق، ولا تصدر عنه سوى تعابير غير مكتملة، وكلماتٍ ضعيفةٍ سرعان ما تتهاوى فلا تَشفي صدورَ الهائمين في ملكوته. أسأله عن السيل الذي فاضَ من حكايات الأسلاف ليُغرق النجع القديم، وصور الغرقى التي لم تزل تراود عينيّ، فيهمس أيّوب مستعيرًا نظرةَ غضبٍ تنضح من وجه أبيه لـمّا ذُكرت حكايةُ السيل، ويردّد:

-ألا لعنة الله على الرحّالة النصرانيّ الذي شقّ الترعة فجلب الهلاك إلى أراضينا، أكرمْنا نُزله وأطعمناه وعلفنا دابّته، لكنّه أبى أن يرحل إلّا وقد بذر في أرضنا لعنةً لا تزول...

أفقتُ والشمس تشقّ السماءَ برويّةٍ لترسل أوّل خيوطها. كنت أفترشُ رملَ الصحراء الدافئ، والنجع من خلفي على مرمى البصر، الرمال تسلّلت إلى أكمام الجلباب ونفذت إلى رقبتي. اختفت ظلالُ العساكر وخيالُ المآتة، وكذا تمثال الزعيم المنزوع الرأس. لم أفهم لماذا شُبّه لي خيالُ المآتة كأنّه تمثال الزعيم؟ لكنّي دعوتُ للشيخ جعفر بالرحمة وقد هبَّ لنجدتي من الغرق في حلمي، ثمّ اتّكأتُ على عمودٍ حديديٍّ صدئٍ ينتصب في الخلاء.

وقفتُ وكلّ مفاصلي تئنّ. حمل العمودُ لافتةً زرقاء باهتة، مكتوبٌ عليها باللّون الأبيض. لم أفهم المكتوب، لكنّ توتّرًا عظيمًا اعتراني حالما توهّمتُ أنّي تجاوزتُ حزام الألغام، فربّما أكون الآن في قلبه المزروع بالخطر. ازدادت حيرتي حين درتُ مرّتَين حول اللّافتة، فوجدتُ المكتوب على جانبيها مختلفًا!

لم أكُن ممّن يفكّون طلاسمَ الكَلِم، لكنّي أعرف رسمات الأحرف. بدا المكتوب في وجه الخارج من النجع مغايرًا لما يقابلُ الداخلَ إليه. راودتني الشكوك وهلةً، ودهمني طيفٌ من الأسئلة، سرعان ما تناسيتُه حالما استدرتُ عائدًا إلى طريق الجبّانة. فما لجاهلٍ مثلي أن ينشغل بالكتابة، ربّما خُطّ التحذيرُ بصيغٍ مغايرة، وربّما تآكلت بعض الحروف في الجهة المقابلة لشمس الظهيرة، وربّما ضربت الشمسُ دماغي فتخيّلتُ ذلك كلّه، خصوصًا وقد قضيتُ ليلةً مرعبةً طاردتني فيها أطيافُ خيالات المآتة ووجوه الغرقى، وجثّة زكريا، وتمثال الزعيم الباحث عن رأسه. فكيف لي أن أتأكّد مِنْ أنّ لوثةً لم تستوطن عقلي؟

حرّكتُ رأسي ذات اليمين وذات الشمال، لم تكن هناك أيّ آثارٍ لحيواناتٍ أو لأقدام التماثيل، وكلّ ما في الأمر آثارُ أقدامٍ لطفلٍ صغيرٍ أغلب الظنّ أنّها تعود إلى ابن الخوجة. شعرتُ بسعادةٍ تليق بمَن استفاق لتوّه من كابوس. تذكّرت مُرّة، ورأيتني أتلصّص على أمّ حمد وهي تحصي مدّخرات صغيرتها قبل أن تُودِعَها إحدى صوامع الغلال، مرّ أمامي طيفَا حمد وعيسى، كانا يرميان العدوّ بوابلٍ من القنابل، فجعلتُ أغنّي...

لطالما أغدَق الناس عليَّ الإطراء كلّما غنّيت لهم موّالًا شنّفتُ به آذانهم. أذكر أنّهم طلبوا منّي أن أغنّي موّالَ ياسين وبهيّة يومَ تصوّرنا الهزيمةَ الكاملة. كانت السماء صفراء بلون الحرب، والحقول مجرّدةً من محاصيلها، لا أذكر ما غنّيتُه في تلك اللّيلة تحديدًا، لكنّي أعرف

أنّي اختتمتُ الغناء بموّالٍ عن أدهم الشرقاوي حفظته من معازف الجوّالين في الزمان السابق للحرب.

ما زلتُ أذكر بعضَ تفاصيل ذلك اليوم. أسترجعُ مشهد لمبات الكيروسين المعلّقة في زقاقٍ ضيّقٍ بين جدَارَين من طينٍ قربَ النافذة البحريّة لدار الخوجة، كان الرجال جالسين في وضع القرفصاء، وصوت مذيع الراديو الوحيد يتبدّل، تنتفض الطائرات التي أسقطها في بيانه السابق وتحلّق من جديد، فينكسر وتنحسر النشوةُ في نبراته بمرور الساعات، المآقي مغرورقةٌ بالدمع، والهواجس دوّاماتٌ تطوف في الرؤوس حاملةً وجوهًا وأسماءً لشبابٍ ربّما طُويت صفحةُ شبابهم، والخوجة يُطلّ من النافذة ليُحَيِّي عابرًا لا يراه سواه، أو زائرًا لا يردّ تحيّتَه، ثمّ ينكص على عقبيه ليبتلعه ظلام الحجرة الدامس.

كان بكاءُ ولده المرعوب يتداخل مع صوت المذيع المتلعثم، فيضفي عليه كآبةً ومرارة. يومَها عرفتُ للخوف لونًا رماديًّا، أو ربّما هو لونٌ أسود مشوبٌ بحمرة النار الخافتة، إلّا أنّي -على الرغم من ذلك- شرعتُ أغنّي ما إن أغلق الخوجة الراديو. والغريبُ أنّ المحزونين أبدوا يومذاك تجاوبًا مع الموّال، فاستعادوا لمعةَ أعينهم، ومالت رؤوسهم، فَعَلَتْ همهماتهم. أغلقَ الخوجة نافذتَه، وتوقّف الصبيّ عن البكاء، ومضى الجمعُ في طابورٍ طويلٍ أغنّي في أوّله، فيطرب آخره.

كان ذلك قبل أن يتوقّف الراديو عن استقبال الإذاعة بسبب

تشويش قوّاتنا على الإرسال لمنع الاتّصال بين فلول قوّات العدوّ المرابطة قرب البحر. أعلمنا الخوجة بذلك فتضاعفت أحزاننا. وفي يوم التنحّي، اهتزّ النجعُ تحت أقدامنا. بكيتُ وأنا أنشد أغنيةً وطنيّةً لعبد الحليم، رأيتُ خليل يهرول خارجًا من داره، قدماهُ تكاد تلتفّ إحداهما على الأخرى فتسقطانه، وصياح زوجته يمتزج ببكاء ولده الذي يناديه ألّا يبتعد. يومئذٍ هجّت من النجع بعض العائلات، فكانوا آخرَ من غادر النجع قبل إغلاق الطرق المؤدّية إليه، باستثناء المتطوّعين في الجيش.

ثمّة دورٌ أغلقت إلى الأبد، ذكرياتٌ وحكاياتٌ وسيَرٌ تسلّلت من مسام الجدران وتسرّبت من الحقائب والحِوالات واستقرّت في ذاكرة العجائز عن أولئك الذين رحلوا. كنت أراقبهم وأنشجُ حزنًا على تنحّي الزعيم عبد الناصر، والخوف يصوّر لي عساكرَ اليهود يقتحمون النجعَ فيحرقون المحاصيل، ويهدمون الدورَ بدبّاباتهم، فيسبُون النساء، ويأسرون الرجال، لكنّي واصلتُ الغناءَ بصوتٍ مبحوحٍ تقاطعه عباراتُ البكاء. هكذا اعتدتُ أن أغنّي في ذروة أوقات الغمّ، يمزّقني الشتات كما هي حالي صبيحةَ اليوم، فأستجمع قواي بالغناء. يومًا مّا سأحكي لحمد وعيسى عن عادتي هذه، فقط حين يعودان ولو في إجازة، وقتها سأرسلهما إلى كُتّاب الشيخ أيّوب ليتعلّما فكّ رسوم الحرف وكيفيّة كتابته، كي لا أترك لديهما حجّةً تبيح لهما عدمَ إرسال الخطابات.

دُرتُ بين الدور النائمة، أبواب دكّان الخوجة الخشبيّة مغلقةٌ

على بضائعها، وآثار أقدام حكيم -وربّما توائمه- في كلّ المطارح، أبوابُ البيوت كابية، والأرق شريكٌ خفيٌّ يحظى بوسادةٍ فوق كلّ فراش، ومبيعاتُ الخوجة من الأقراص المنوّمة فاقت في إيراداتها البقالة والخضروات والصابون. الناس يحلمون بليلةٍ واحدةٍ من دون قلقٍ أو أرق، يتوسّلون إلى النوم فلا يحطّ في سُررهم إلّا في ما ندر، الأطباق الخزفيّة التي اعتادوا تعليقَها على أبواب دُورِهم ذابت ألوانُها فلم يستبدلوها منذ زمن، رسومات الكعبة والجمال وتبريكات الحجّ والعمرة توشك أن تبلى، بهتَ سوادُها وانصهرت ألوانُها فأمست كظلٍّ عابرٍ شوّهته العبارات السوداء.

درتُ حول دار الخوجة مختصرًا مسافةً لو قطعتُها لقرّبتْني إلى المسجد. سمعتُ صوت الزنبرك يدور في الدور العلويّ، فعرفتُ أنّ حكيم سيُشغّل أحدَ أقراصه السوداء، قبل أن يطلّ من نافذته ويطلق زوجًا من الفراشات من كرتونة ديدان القزّ، ثمّ يبكي عقب ذلك لوداع الفراشات. لم أعد أبحث عن تفاسير لأفعال هذا الصبيّ الغامض، فلا هو سيتغيّر، ولا قوّة تقدر على إخماد طبول الحرب التي تُقرع في عقولنا منذ سنوات.

توقّفت وتفكّرتُ وهلة: لماذا تفاديتُ للتوّ المرورَ بالجامع وبمنزل الشيخ أيّوب؟

سرت الأخبارُ منذ أيّامٍ عن دعوة الشيخ إلى صلاةٍ كفيلةٍ بدحر القلق. قال الناس إنّ تبدّل الحال وتقلّبَ النفوس مرجعه غضب

الله. آمن بعضهم بدعوة الشيخ، بينما تساءل آخرون عن صحّة إقامة الصلوات لدرْءِ القلق، وقد خلت من ذكرها كتبُ التفاسير ومراجعُ أهل السنّة، فكيف للشيخ أن يُعمّم مناسكَها؟ وكم ركعةً تكون؟ وأيّ آياتٍ تُتلى؟ وأيّ أدعية تُقال؟

ربّما تحاشيتُ المرورَ بالمسجد تفاديًا لمرأى الشيخ الجليل منكسرًا، وإن سارع آخرون إلى زيارته بغية الاستعلام عمّا يدعو إليه من صلاةٍ لفكّ الكرب وإزاحة الغُمّة. ولعلّي شعرتُ بعدم الرغبة في المشاركة في تلك الصلاة. تساءلتُ: أتُراه يعرف وسائرُ الناس لا يعلمون؟ ردّني اليقين عن الشكوك؛ إذ أنّ أمرًا من أمور الصلاة والعبادة -حتمًا- لن يستغلق على الشيخ ابن الوليّ.

واصلتُ التجوالَ وضوءُ الشمس البكر يمسّد الأبواب الموصدة. اختلطت الأزمنة في رأسي كما اختلطت روائح العلف بالقمح والزرع والجلّة وثرى الترعة.

كم أكره الحرب، وكم أتوقُ إلى حياة الترحال بين النجع ومدبغتي في القرية القريبة. أتمنّى أن أستعيد طقوسَ الأجداد الرُّحَّل في السفر وترويض الصحاري. أحاول التحايلَ على الظرف الراهن، والالتفاف على الواقع المقبّض، فأتجوّل بين الأزمنة إذ أستسلم لنوبات الشرود بين الحقول وفي الأزقّة. أمرّ أمام البيت فأربّت على ظلَّيْ حَمَد وعيسى طفلَين يلهوان على المصطبة، وأحمل طيفَ مُرّة في حجري، أناولها لأمّها فتلقمها ثديَها الشمعيّ وقد

وخطته العروقُ الخضراء ودكنت حلمته. أحتوي كفّها راضيةً في راحتي، أهديها وأمَّها سلاسلَ الذهب، ثمّ أغازل أمّ حمد في زمان الشوق القديم. أُشعل مع المريدين الشموعَ في محيط مقام الشيخ جعفر ليلةَ الجمعة. كلّ جمعة، أزوره وأتبرّك بمجاورته، وأتصوّره يتأبّط ذراعي فأرافقه من حيث يرقد إلى داره التي صارت دارَ ولده الشيخ أيّوب، ونعرج في طريقنا بمسجد النجع، نقرأ القرآن همسًا، ونرتّب المصاحف.

هذيان الشيوخ ينطوي على رسائل إلهيّة، وفي صمتهم حِكَمٌ ربّانيّةٌ تَستغلِق على عقول العوامّ ممّن هم على شاكلتي، فالرجل حبيب الله، وليٌّ مِنْ أَصْلَحِ أوليائه، يحكي حكاياتٍ عن ضمّة القبر وحساب الملكَين، فيزيح عن العقول والقلوب غمامةَ الخوف ورهبةَ الموت. تتنوّع روايتُه عن مَلَكَي القبر، يروي عنهما فيصف لنا ولده أيّوب كيف يبدوان، منه عرفنَا أنّ مُنكِرًا يبدو أكبر حجمًا من نكير. منكِر هو ملاك اليمين على ما أذكر، لكنّهما بدوَا ضخمَي الجثّة كتماثيل الفراعين، أكبر حجمًا من تمثال الزعيم قبل أن يسقط رأسه، لهما لونٌ داكن الزرقة، وصوتٌ هادئٌ وقورٌ بعكس ما اعتاد الشيخ أن يصف في خطب الجمعة قبل أن يعود من الموت.

فوق منبره، وصف صوتهما كأنّه رعدٌ قادمٌ من السماء، لكنّه حين شرّفَه الله بلقياهما، وجدَ لهما صوتًا رصينًا تتبعه أصداء تريح السريرة. قال الشيخ أيّوب إنّهما أشارَا بسبّابتَيهما صوبَه فورَ أن عرفاه، فنمت الزروع في قبره، وصارت روضةً من تحته يَسمع فيها

خريرَ عينٍ آنيةٍ توشك على التماسّ مع أطراف قدميه.

بدت ملامحُ وجهَيهما مختلفةً عمّا وصفه الأئمّة ونقلَه لنا أهل السنّة. وكلام الشيخ هو الراجح لا ريب. فهو من التقَاهُما ولم يسمع بهما مثلنا، هو الذي اختصّه الله بلقاءٍ يدحض زيفَ الرواية عنهما، فهما من ذوي الوجوه الوديعة، والعيون المطمئنة، لا أظافرَ لهما تنبش أجساد الموتى، ثمّ إنّهما شديدا الرحمة، إذ يروي أيّوب عن الشيخ جعفر أنّهما حينَ سألاه عن اسمه ودينه ونبيّه أوّل مرّة أُخِذ الشيخ وبُهت، فألجم الخوفُ لسانه. مسّدَ نكير مقدّمةَ رأس الشيخ بيمينه حتّى زال خوفه، ثمّ أعادَ السؤال، فأجابه الشيخ براحةٍ وطمأنينة، وقرأ بصحبتهما القرآن كاملًا، ثمّ صحباه للقيا رضوان بباب الجنّة، فتفقّد منزلَه وصَحْبه ممّن سبقوه، قبل أن يختصّاه بلقاء الأنبياء أسفل عرش الرحمن، ليتذوّق من رغد جنّات النعيم ما يشاء، حتّى شاء الخالق أن يردّه من حيث جاء، فبُعث من رقاده ليجد نفسَه محاطًا بظلمة الدنيا بعد أن لامس بعينَيه نور الجنان. دقّ اللحدَ بيدَيه، ودفع الصخرة من فوقه بكلتا يدَيه فلانَ الصخر، وذابَ الكفن، ونثر الملكان الترابَ من فوقه، فحرّراه من الموت، وهكذا عاد إلى الناس عبرةً ربّانيّة، ليبشّرهم ويقيَ قلوبَهم الشكّ والجدل. نقل الشيخُ حكاياته لنا في نوبات صفاء عقله، وعلى لسان ولده أيّوب مرارًا. لكنّ أيًّا منهما لم يذكر يومًا كيف يبدو البرزخ الذي مكثَ فيه الوليّ بين الحياة والآخرة.

بلغتُ الدارَ والنحّالُ يمرّ كالمجاذيب على مقربةٍ منها. نفرتُ من رؤيته، فأدرتُ وجهي شطرَ الدار كأنّي لا أراه. راح يتجوّل

قرب النجع القديم كعادته مؤخَّرًا، يتجاوز الجبّانة ويجلس على أطلال البيوت التي سكَنها الغارقون، ثمّ يعود في كلّ مرّةٍ أكثر خبلًا ممّا سبق.

بَرَقتْ في عقلي خاطرةٌ حين اقتربت منّي تلك الكلمات على حائط الدار، تجاهلتُ كراهيتي للنحّال، وتناسيت إثمَه مع الشيخ أيّوب وكُفرَه بكتاب الله. تغاضيت عن إنكاره فضلَ الخوجة على سائر أهل النجع، فبادرته بتحيّةٍ ردّها في صوتٍ أشبه بالغمغمة.

رفعت يدي أناديه، فاقتربَ منّي بحذرٍ صارَ معتادًا في تعاملاتنا جميعًا. دنا محافظًا على مسافة ذراعين، فشعرتُ بأريحيّة. أطرقتُ رأسي، وسألتُه بصوتٍ خفيض، فلم يسمع. حسمتُ أمري وقلبي بين أضلعي يرتجف كعصفورٍ تحت صبيب المطر، فأشرتُ نحو الكلمات المنقوشة على جدار الطين:

- هل تقرأ لي ما كتبه أولادُ الأبالسة على داري؟!

دون عمدٍ جاءت نبراتي -على هدوئها- محمَّلةً بالشكوك والظنون. تلفّتَ كلٌّ منّا حوله مرّات، ثمّ دار النحّال حولي ليقترب من الجدار محافظًا على مسافة الأمان ذاتها...

- وكيف تقرأ القرآن إذَن؟

- أستمع إليه بصوت الشيخ أيّوب فينفذ إلى قلبي.

- وماذا لو حرّف شيخك كلام الله، فاستبدل كلمةً بأخرى؟

- أنا أحفظ الآيات جميعها يا نوح، فلا تنصحني بشيءٍ عن

كتاب الله والخمر من كلماتك تفوح...

ضحك العجوز المخمور، ثمّ آثر السكوت. بدا كأنّه لم يقرأ الكلمات على داري من قبل. انهمك في القراءة، فمرّت دقيقةُ صمت، ثمّ توجّه نحوي بعينَين مخضّبتين بالنار والغلّ. اقترب منّي أكثر ممّا ينبغي، فعدتُ على عقبيّ مبتعدًا. زاد من اقترابه، فدفعتُه مذعورًا، فسقط كما يليق برجلٍ سبعينيّ، بيد أنّه سرعان ما كذّب سنوات عمره التي يدّعيها، فقفز واقفًا ودارَ على عقبَيه، ثمّ مضى يهرول بين الطرقات وهو يردّد خطابًا صادمًا غريبًا. بدا لي وقتها أنّ الجنون أحكمَ سيطرته على دماغ الرجل، إذ قال المخبول كلامًا يخصّ مُرّة، قرّة عين أبيها ووجعه المكتوم. توقّفتُ عن مطاردته فور أن دقّت المطارق رأسي، فانشقّ صدري ألمًا، وجمّدتْني كلماته وهو يصيح بصوتٍ جهوريّ، بينما المارّة يتحصنّون بالصمت ممّا يقلقهم:

«يا أيّها النيام، يا مَن رهنتم عقولكم ومصائركم لخليل الخوجة، ذاك الدبّاغ المريض يضاجع ابنتَه المعوقة كلّما ذهب الأفيون بعقله، ثمّ يتّهم متعلِّمًا مثلي بالجنون».

لفّي البلاد يا صبيّة... لفّي البلاد
لفّي البلاد يا صبيّة... بلد، بلد
باركي الولاد يا صبيّة... باركي الولاد
باركي الولاد يا صبيّة... ولد، ولد
ده النصر مهرك... والعريس ابن البلد



عبد الحليم حافظ

كلمات: محسن الخياط

لحن: محمد الموجي

الجلسة الثالثة

وداد

صباح اليوم مغاير، أصبحتُ كائنًا قبيحًا مأسورًا ينشدُ من قضبانه الطينيّة خلاصًا. ذبلَ الجسدُ ومضى إلى خريفٍ لا نهائيّ. أشعر بثقل أنفاسي. انقضى النهارُ في نوبات قلقٍ وشرود. الأنوار الصفراء المنبعثة من لمبة الجاز زائغة، الأفق يضيق، السماء تنكمش، والأسَى يتربّص في الأركان كعنكبوتٍ ينتظر اصطيادَ ضحيّته.

أسقطُ في بئرٍ عميقةٍ من الوحشة، كأنّ صخرةً هائلةً صُلبت فوق صدري. أهمسُ سابحةً بنظراتي في السقف الطينيّ: «زاد الحمل يا ربّي، أثقلتَ كاهلي بثمانين عامًا ويزيد، ونسيتني بين الأحياء وأنا ميّتةٌ مذ أضأتَ السماء بغير ميعاد... وربّما قبل ذلك، فأنا ميّتةٌ منذ بَدَأ الحصار فانْحسَرت حاجةُ الناس إليّ».

عشتُ حياةً عامرةً بالحكايات، بيد أنّي لم أتصوّر يومًا نهايةً كتلك. أُغلقُ على نفسي الباب مكتفيةً بما في الدار من مؤنٍ شحيحة. أقتصد في المأكل والمشرب قدرَ استطاعتي محاولةً تأجيل نهايةٍ حتميّة؛ الموت جوعًا، أو الهلاك خوفًا. ربّما يدهمني سيلٌ كذلك الذي أفنى الجدود، أو يدهسني القطار الأخرس إن عاود المرورَ بديارنا...

وأتساءل: أين ذهب القطار؟ أيمكن لآلةٍ تسير على قضبانٍ محدّدةٍ أن تضلّ الطريق المرسوم؟

كلّ النهايات تُفضي إلى صورةٍ واحدة، عجوز وحيدة تفسّخت جثّتها حتّى فاحت رائحتها النتنة. لا فارق بين رائحةٍ تبثّها جثث البشر المتحلّلة وما يفوح من كلبٍ ميّت أو بهيمةٍ نافقة، رائحة الموت واحدة، نافذةٌ لا تفرّق بين سائر الكائنات!

فأين شواهي الآن؟

طالما حلمتُ أن تكون لي صورةٌ فوتوغرافيّةٌ يعلّقها أحدٌ في صدر داره. أردتُ أن أقف أمام تلك العدسة السحريّة، يغشيني الضوء ليثبّت الزمن على ورقةٍ رقيقة. لم تكن تلك الآلة موجودةً في النجع، لكنْ كانت للخوجة صورةُ زفافٍ يعلّقها في داره قبل أن تهرب امرأته. طالعتُ الصورة بشغفٍ حين كنتُ أولّد امرأتَه، لم يُولد الصبيّ أخرس، بل ملأ الدنيا صخبًا قبل أن يفقد لسانَه في حادثٍ غامض. قال أبوه إنّه أُصِيب بتشنّجٍ عضَّ في إثره لسانَه فقطعه، وتزامن وقوع ذلك مع هروب أمّه في واقعةٍ مخزية لا تقلّ غموضًا، ثم أسقط الناس الواقعتَين من ذاكرتهم، ولم تسقط من ذاكرتي صورة الزفاف.

لم يعد أحدٌ يذكر الحكاية، ولم يبقَ بينهم من يصل السؤالَ بالجواب. لماذا هربتْ أمّ حكيم؟ ومع من فرّت؟ كيف فقَد الصبيّ لسانَه؟ تراكمت الأيّام فوق الواقعة، فطمست تفاصيلَها بمرويّات جديدة.

وصورة الزفاف أزيلت هي أيضًا من موضعها.

مررتُ ذاتَ يومٍ بدار الخوجة حيث ينتصب التمثالُ المشطور أمام الباب، جلستُ في مَضْيَفته أنتظر قدومَه لأراجع مديونيّتي وقد وجدتُ دكّانه مُغلَقًا عقب الغروب. وحين جاء ومعه ولدُه يحمل دفاترَه، ألفاني واجمةً شاردةً لأنّي لاحظتُ اختفاءَ صورة الزفاف. فلم يُعلّق، وربّما لم ينتبه.

ولكن، ما شأن الخوجة بالأمر؟ ليذهب إلى الجحيم! لعن الله العمر المديد جلّابَ الخرف، ولعن الأزواجَ الذين لا يصرّون على التقاط صور الزفاف، وأولئك الذين لا يحافظون عليها.

لم أحصل يومًا على صورة زفاف، ولا على أيّ صورة، الضوء الساطع لم يعرف لعينيّ طريقًا. رأيت الكاميرا أوّل مرّةٍ في أسيوط، في دكّان يسمّيه الناس «استوديو»، يصطفّون أمامه لتجميد الزمن في ثانية. أذكر صورةً للوليّ جعفر مرتديًا زيّ الإحرام، ظلّت معلّقةً في باحة داره، لم أعرف أين التُقِطت ولا كيف؟ ربّما جرى ذلك في طريقه إلى الحجّ منذ عقود، لكنّها صورةٌ ضخمةٌ تُظهر كاملَ جسده وقدمَيه الحافيتَين، ويبدو فيها سعيدًا بقرب زيارته إلى بيت الله آنذاك. رحل الشيخ، لكنّه بقيَ سعيدًا يُطلُّ من البرواز الخشبيّ كأنّه يُحيّي زوّارَه بُعيد وفاته الثانية.

كم أحببتُ لو تُلتَقط لي صورةٌ كتلك، صورةٌ واحدةٌ أُطلُّ فيها باسمةً قريرةَ العين، لكنّ العمرَ ركض بي في مضامير لا تعرف

للصور عنوانًا. وها أنا أُوشك على الموت، وسأرحل من دون أن أترك أثرًا، لن يتبقّى منّي شيءٌ سوى سيرةٍ ستطويها الأيّام وحكاياتٍ مآلها النسيان. النجع مُحاصرٌ منذ سنوات، وهمومُ الناس أثقلُ من أن تشغلها عجوزٌ خرِفةٌ تحلم بالتقاط صورةٍ قبل أن تموت.

يوم أضاءت سماءُ النجع بغتة، تصوّرتُ أنّ الله يلتقط للناس صورةً من علٍ، هكذا اعتدتُ الظنّ كلّما أبرقت السماء، والويلُ كلّ الويل لمن حصَّلتْه الصورةُ وهو يرتكب معصيةً أو خطيئة.

قد تبدو كلّ النساء في الصورة بجلابيبهنّ السوداء أشبه ببقعٍ من السواد تنتشر في الطرقات الضيّقة كسربٍ من النمل. ربّما كان الكون برمّته صورةً متحرّكة التقطها الله للناس منذ ملايين السنين، لكنّ الضوء العظيم نبّهني إلى أنّ الله يشرع في التقاط صورٍ جديدة، والشهاب الذي سقط بعد ثوانٍ من الضوء الباهر أخمدَ النشوةَ في صدري، واستبدل بها قلقًا عظيمًا.

الكون يتغيّر، البشر من حولي يتحوّلون ضواريَ برّيّة، هم أشبه بقطعان الذئاب، عيونهم محمرّةٌ وهيئتهم كالسلاحف، وكذا تفكيرهم. انعزل الناس عن القرى المتاخمة للنجع القديم خلفَ الجبّانة، فلم يعد في الطرقات جوّالةٌ كخَفَر الدرك، ولا عمدةٌ يمرّ ليثبت للناس أنّه راعٍ وأنّهم رعيّته. لا جريمة تحدث في نجعنا النائم، لا أقسام شرطةٍ ولا أماكن احتجازٍ ولا شيء يستتبّ به الأمان، حتّى إنّ الموت ذاته أمسى شحيحًا نادرَ الوقوع. بيد أنّ

الحال تبدّلت كسماءٍ تعصف من بعد نهارٍ مشمس. لن ينجينا أحدٌ من تلك الضواري اليوم، فلا بنادق ولا خَفَر ولا بارود، بل بندقيّة واحدة شاهدها الناس معلّقةً في دار الخوجة، ولم يُسمع دويُّها يومًا.

فإلامَ استقرّ المقام بشواهي؟

استشرى القلق في الأيّام الأخيرة، واعتادَ الأهالي تبادلَ العداء المجّانيّ. بات كلّ واحدٍ يحافظ على مسافة أمانٍ إن أجبرته الضرورةُ على محادثة الآخر. آمَن الجميع بأنّ النجمَ الساقط هو ما بذرَ الخوفَ وعاث في العقول فزعًا، لكنّ البداية الحقيقيّة حسب ظنّي تزامنت مع مقتل زكريا النسّاج، أوّل قتيلٍ أشهدُه خلال ثمانين عامًا عشتُ معظمها في النجع، ألتقطُ الأطفال من الأرحام، وأغسّلُ النساء المتوفّيات، وأطبّب المحسودين، من دون أن أعي أيّ علاقةٍ تجمع بين تلك الأمور تفرض على الناس أن يوكلوا إليَّ مهمّتَين متناقضتَين، لأكون أوّلَ من يستقبل النساء في النجع، وآخرَ من يلمسهنّ.

كان القتل في النجع مُسيَّجًا داخل أُطر الحكايات ومسامرات الجدّات على المصاطب، لا يغادرُ قصصًا تُروى لإخافة الصغار من التوغّل في الحقول المظلمة أو الاستجابة لنداء النداهة. ولم يعرف النجع يومًا أيًّا من حكايات الثأر، ولا حادثةً حقيقيّةً تسوّغ القلق. لكنّ شبح حكاية قتيل الترعة بُعِث مُجدّدًا من جثّة النسّاج، ليسبّب ذعرًا يُضاف إلى حكايات التمثال عاشقِ لحمِ الفتيات البضّ، وحكايات النداهة ذات الصوت الحريريّ الماكر.

عندما عُثر على النسّاج، حارَ الناس بين أكثر من تفسير، وصاغوا تأويلاتٍ عديدةً لحكايته. فالرجل مُسالمٌ لا يعادي أحدًا، وبَنُوه في الحرب، وامرأتُه غسّلتُها بيديّ قبل الحادث بشهور، فكيف وُجد غريقًا في الترعة على مقربةٍ من الجبّانة، بعيدًا عن داره ومنسجه المغلق، بلا دلالةٍ على حدوث شجارٍ أفضى إلى قتل؟ سَرَت الهمهمات بأنّ الخوجة يقف خلف مقتله، فقد كان يمتنع عن تسليمه بضائعَه كي تُباع في دكّانه، وبذلك يكون هو الوحيد الذي لا يَقتطع قرشًا من ريع تجارته لصالح المجهود الحربيّ. وقد أذاع النسّاج بين الناس أنّه يدّخر حصّة المجهود الحربيّ المستحقّة بانتظام، وأنّه ينوي تسليمَها للخوجة، أي للحكومة، لكن حين يعود بنُوه من الحرب فحسب، وهو أمرٌ وضع الرجل الطيّب أمام شبهات معاداة الدولة. والغريب أنّ أحدًا لم يترك مجالًا لفرضيّة سقوط النسّاج في الترعة وغرَقِه عرَضًا. فراح الجميع ينسجون حكايةً عن قاتل النسّاج الغامض، حتّى إنّ بعض النسوة تساررنَ بأنّ التمثال الباحث عن رأسه قد يكون الفاعلَ الحقيقيّ.

استنكرَ آخرون تلك الروايات ولفظوها من عقولهم سريعًا، وذهبُوا إلى أنّ حكايات التمثال برمّتها أشبه بمرويّات النداهة. بيد أنّي لم أستطع تجاهلَ ذلك الاحتمال، أو التغاضي عن فرضيّة حدوثه، ولا سيّما أنّي رأيتُ بعينيّ ظلَّ التمثال يتحرّك في تؤدةٍ بين الدور ذاتَ غروب؛ أو هكذا شُبّه لي!

كان النسّاج لا يعرفُ العوم، هكذا قالوا، ثمّ إنّه شُوهِد آخر مرّةٍ

وافدًا من منسجه إلى داره. والدارُ والمنسج في واقع الأمر بناءٌ واحدٌ له بابان. أُغلق المنسج منذ رحلت الزوجة، ولم يعد الرجل المكلوم يفتحه إلّا في ما ندر. هكذا تواترت التفاسير واستشرت الاحتمالات، فقيل إنّ النسّاج لو أراد زيارة قبر زوجته، لزارها في الصباح كما هي عادات الناس. فلماذا يزورها في جنح اللّيل؟ أيزور الناس موتاهم وقتما يلفّ الضبابُ الأزرقُ الترعة؟ وهل ساقته قدماه عمدًا إلى طرف الجبّانة، حيث أعمق نقطةٍ في قاع ترعتنا المباركة؟

أراقب صفَّ النخل عبر النافذة نصف المغلقة، نحلتْ جذوع النخل وزالَ عنها تاجُ السعف العميم، وولّى زمانٌ تمايلت فيه العراجين وناءت بحمولها.

طواكَ الوباء يا زمن الحكايا. عاشَ جدودنا سبعةَ قرونٍ بلا أرض، فكان كلّ شبرٍ في الصحراء وطنًا، وحين استقرّوا في الوادي الخفيض، غدرت بهم الأرض وابتلعتْهم، واستقرّ من نجوا منهم في محيط الجبّانة، يعتاشون على الحكايات، يقيمون الدورَ ويتناسلون، لكنّهم ظلّوا مشدودين إلى ثرى الجدود كوتَر القوس، لا يقدرون على مفارقته، ولا يحلمون برحيلٍ فيه تحريرٌ للغد ممّا راكمَه الأمس.

روت لي جدّتي أنّ أجدادنا الرُحّل، حين قرّروا الاستقرار في الأرض وتشييد الدور بعدما اعتادوا سكنى الخيام عقودًا، وجدوا النجعَ يسبح في رمالٍ لا تحوطها سوى صحراء قاحلةٍ، فاستقروا وتعايشوا وتزاوجوا، حتّى مرّ قدّيسٌ عجوزٌ ضلّت حمارته الطريق، وأعيا كلاهما السفر فنزلا بنجعنا. أكرمَ الناس نُزل القدّيس من دون

أن يعرفوا عنه شيئًا. أنزلوه بدار واحدٍ من كبارات النجع قيل إنّه من جدود الشيخ جعفر المنسيّ. علفوا حمارتَه وأغدقوا عليه الطعام، ثمّ منحوه مؤنَ سفرٍ تكفيه حتّى يبلغ أسيوط، وأرسلوا معه دليلًا يجيد قراءة الصحراء، فما كان من القدّيس الطيّب سوى أن ضرب الأرض بعصاه، فكان ما روته الجدّة:

- تفجّرت تحت عصاه ترعة ماءٍ سرت نحو الجنوب، ثمّ مضى القدّيس يجرُّ من خلفه عصاه شطرَ الشمال، فكانت المياه تشقّ الأرضَ لتلحق بعصاه، حتّى غاب بين كثبانٍ عاليةٍ تحجب القرى القريبة، وقد منحنَا ترعةً امتدّت في الشمال حتّى التقت ببحر يوسف، وغاصت في جنوب الأرض حتّى قيل إنّها امتزجت بترعةٍ في الأقصر.

- ألَمْ يعد إلى نجعنا مرّةً أخرى؟

أتساءل، فتزفر الجدّة همومها:

- ليته يعود يا بنيّتي، فلو رأى ما أحدثه السيل لكرّر معجزته وبعث الآباء من قبورهم الطينيّة... أؤمن أنّه عائدٌ رغم فوات السنين...

أمّا العابرون بالنجع، وثُلّةٌ من المتعلّمين في مدارس أسيوط والقاهرة قبل الحرب، فقالوا إنّ هذه الترعة التي أروي حكايتَها لا تظهر في خرائط الدولة، ولا يُسمَع بها خارجَ النجع. وكنت أضحك لما يردّدونه، فكيف يُنكر هؤلاء وجود الترعة وهم قرب ضفافها جالسون، يغسلون فيها أوانيهم، ويستحمّون ويتسابقون؟

وسرعان ما استحالت الترعةُ سيرةً مؤلمةً في عيون البعض بعدما جاء السيل ليغرق النجعَ على رؤوس ناسِه بعد ذلك بعقود. قال الناس إنّ القدّيس لو لم يشقّ الترعة لما جاء الفيضانُ وأهلك النيام. وأصرّ بعضهم على عدم جواز نزع رداء القداسة عن العابر الطيّب الذكر، وقد خضّرت الترعةُ الصحراءَ ونمت على ضفافها الغيطان. ومهما يكن من أمر، فقد منح أحفادُهم من بعدهم صكوكَ المعجزة للزعيم عقبَ بناء السدّ في أسوان، فأضحى مَن شيّد الحجر أكثر قداسةً ممّن شقّ الأرض وفجّر الينابيع.

لطالما آمنتْ شواهي بحكاية القدّيس، وبكلّ الحكايات التي رويْتُها على مسامعها طفلةً. قالتْ ذات مرّةً أثناءَ مجادلةٍ مع إحدى المُنكِرات لحكاية القدّيس الذي زار النجع:

- النجع بأكمله غائبٌ عن خرائط الدولة الرسميّة، بينما قوافل التجّار والغجر تمرُّ بالنجع من دون أن تلتزم بالخرائط التي تُنكِر وجودنا!

فتردّ مَن قادها حظٌّ عاثر إلى مجادلتها:

- ماذا تقصدين؟

فتجيب شواهي حانقة:

- لو أنّ النجعَ دُفن برمّته في الخرائط الرسميّة، فلماذا نستنكر حدوثَ معجزةٍ كمعجزة القدّيس الذي مرّ في أرضٍ طُوي موضعها في سجلّات الدولة، فأحال قحولها اخضرارًا؟

ويرتدّ صدى كلماتها في عقلي: صحيح! لماذا نؤمن بالمكتوب ونكذّب الواقعَ والمشهود؟ فمن إحدى قوافل الغجر جاءت شواهي، طفلة ذات ستّ سنواتٍ هربت من عائلةٍ كبيرةٍ ليس بين أفرادها أبٌ ولا أمّ، هكذا تلقَّفَتْها ابنةً نضبَ الرحم قبل أن يمنحني إيّاها.

إذن: لو أنّ الناس التزموا بالخرائط لما وُجدتْ شواهي!

فأين هي الآن، وماذا تفعل؟

أأصابها مكروه؟ أتراها تبحث عنّي وتعرف أنّي أنتظرها؟

أضحت الذاكرة مهترئةً ملآنةً بالثقوب. عقلي جرابُ حاوٍ فقيرٍ سقطتْ منه أغلب الحيل فانفضّ من حوله الأطفال. ومع ذلك فبعض المشاهد القديمة احتلّت مساحةً ضخمةً من الذاكرة المُثقَلة ذاتها. شواهي، طفلةً وصبيّةً وامرأة، تحتلّ المساحة الأكبر. فرحتُها بالأقراط والسلاسل ورسوم الحنّاء، سعادتها بجلبابٍ جديدٍ أو قطعة قماشٍ ملوّنةٍ مُهداةٍ من عروسٍ تطلبها للرقص في عرسها، ورقصها إذ يشرئبّ عنقها حتّى يناطح الأفق ويخترق الغيمات العابرات، علاوةً على بعض المشاهد من جنازتَي الشيخ جعفر، وجنازة النسّاج، وصور لأطفال لفظوا أنفاسَهم بأعينٍ مغمضةٍ قبل أن يبصروا الدنيا، وقبل أن يصرخوا صرختهم الأولى. كنتُ أسحبهم من أجساد أمّهاتهم كقطعة لحم نيئة، نطفةً مهزومةً لا روح فيها ولا صوت. تَكرّر ذلك مع الشيخ أيّوب أربع مرّات في رحلات بحثه عن صبيٍّ لم يشأ الله أن يهبه إيّاه.

في جنازة زكريا النسّاج، بكت النسوة جميعًا، بعضهنّ كُنّ يبكين حزنًا على الرجل البشوش الصابر، وأغلبهنّ بكين خوفًا وجزعًا ممّا هو قادم. جَهم الرجال وعبست وجوههم، وظلّت أعناقهم ملتويةً نحو السماء، كأنّهم يسألون الله عن الفاعل. بكى بعضهم، واكفهرّت وجوه الأطفال جميعًا. لم يبكِ الخوجة، وإن اكتفى بإرسال خطابٍ إلى أبناء زكريا يعلمهم بموت أبيهم. لعلّهم الآن لا يتضوّرون شوقًا إلى العودة. بيد أنّ الصبيّ الأخرس حكيم، ابن الخوجة، شُوهد منكفئًا حذو قبر النسّاج ينشج بحرارةٍ بعدما رحلَ المشيّعون. يبدو أنّه أحبَّ الرجل، هكذا رجّحت الظنون من دون قرينة، إلّا أنّ قلبي ما انفكّ يحدّثني أنّ حكيم الأخرس يعرف ما لا نعرفه عن تفاصيل موت زكريا. شعرتُ أنّه يبكي عجزًا لا حزنًا، كأنّه يودّ لو يصرخ كاشفًا عن أصل الحكاية، لكنّ لسانَه المقصوص يُكمّمه، فلا يمنحه سوى بعض ثغاء وغمغمةٍ لا تُفهم لها مقاصد.

لماذا لا يكتب الفتى ما يودّ قوله؟ ألأنّه يعرف أنّ أغلب الناس لا يقرؤون؟

كثيرًا ما تنتابني حالةٌ من الصفاء فأرى أنّ حكيمًا يختزن أغلب الأسرار، وأهمُّها -قبل موت النسّاج- فضيحةُ هروبِ أمّه من دار أبيه رغم أنف الحصار. تلك الواقعة غير المسبوقة في النجع، التي شحذت مخيّلة النّاس فجعلوا يذكّرون بأنّ حكيمًا لا يشبه أباه، ولا أمّه، وبالتالي فهو -والعياذ بالله- ابن حرام! حاولتُ مرارًا أن أستدرج لسانه المقصوص لعلّه يصف لي مشهدَ خروجها الحزين،

أو يبوح بنصف الحكاية، لكنّه على الرغم من الصمت الذي فُرض عليه، كان صبيًّا ساحرًا حقًّا!

جرّبت أن أدفعه نحو البوح مرّاتٍ، ففشلت. كنتُ أُجلسه في حجري بعدما أُلقمه الأمان حتّى يتوسّد كتفيّ، فأمسّد شعرَه وأهذّب أطرافه بالمقصّ، ثمّ أروي له الكثير عن طفولتي وشبابي، لعلّ عدوى البوح تنتقل إلى ما تبقّى من لسانه فيفضي إليَّ ولو بأنصاف كلمات. لكنّه اعتادَ أن يظلّ مُنصتًا وفي عينَيه جوع.

اصفرَّ وجه الخوجة طوالَ أيّامٍ تَلَتْ تسريبَ الشيخ أيّوب حكايةَ هروب امرأته في خطبة الجمعة. أراد الشيخ يومذاك أن يضرب مثلًا عن فضائل طاعة الزوجة لزوجها، وكيف أنّ امرأةً بمقدورها أن تخلق جنّةَ الله في الأرض، تمامًا كما بوسعها أن تُخلّف من ورائها جحيمًا متّقدًا. فروى من دون ذكر أسماء ما أتت به امرأةٌ من أهل النجع مؤخّرًا، ولم يكن في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الإفصاح.

سألَ بعض الناس، على استحياءٍ، عن أصل الحكاية. فقال الخوجة إنّها جمعت أمتعتَها وتسلّلتْ فجرًا إثر مُشادّةٍ عاديّةٍ تجمع أيّ زوجين. ولأنّ الخوجة وامرأته حلًّا بالنجع من دون أن يُعرف لهما أصلٌ ولا نسب، وعاشَا بلا صلة قرابةٍ تجمعهما بأيٍّ من أهل النجع، فقد اطمئنّ الناس إلى أنّها رحلت، وصدَّقوا أنّها وجدت طريقًا تسرّبت عبرَه بين الألغام، ورجّحوا أنّها بلغت قرية أهلها على مقربةٍ من سوهاج كما أذاع الخوجة، مُلمّحًا إلى أنّ السيّارات المموّهة

التي تزوره مرّت في طريق المرأة خلال ارتحالها المحفوف بالألغام، وتتبّعتْ مسيرتها حتّى استقر بها المقام على مشارف سوهاج.

أعقبت ذلك حادثةُ قطع لسان الصبيّ، وقد فسّرها الناس بأنّها من توابع فقدانه لأمّه. وأكّد بعضهم أنّ تشنّجاته وقعتْ لفرط حزنه على غيابها وليس لمرضٍ ألمّ به. ارتاح الناس لاستقرار الأمر على هذه الحال. فالخوجة محلّ ثقات الدولة، ولن يكذب بشأن وحيده، أو يلحق به ضررًا. أمّا حزن الصبيّ فمآله النسيان لا ريب.

بيد أنّ الحزن المتراكم على صفحة وجه حكيم ظلّ يتعاظم، كانت اللوعة محفورةً في قسماته، والحزن جليًّا في انحناءة ظلّه. بدا غريبَ الأطوار بشهادة كثيرين، خصوصًا لكثرة تجواله بين الدور عقب المغيب.

أرجعَ الناس استدامة حزنه إلى عجزه المستحدث عن الكلام، علاوةً على افتقاده لأمّه جلّابة العار، ونَهْر أبيه الدائم له أمام روّاد الدكّان. بيد أنّ قلبي العجوز لم يزل مُصرًّا على أنّ هناك ما يذبح هذا الولد كلّما اختلى بنفسه، أو لجأ إلى الطرقات، أو إلى أغانيه وكتبه وديدانه، ودكّانة أبيه، هربًا منه!

أحبّ حكيم شواهي كسائر رجال النجع، فمَن ذا الذي لا يحبّ شواهي؟

كان الفتى يُطيل التحديقَ في كفَّيها حيث رُسمت بالحنّاء شموسٌ وطيورٌ ونجومٌ. كأنّه يحاول فكَّ طلاسم الألوان والخطوط.

يُشرق وجهه العبوس لمرآها، فلا تتراقص أشباح البسمات فوق ثغره إلّا بمرورها، ولا يتورّد وجهه بالحمرة إلّا بلمسةٍ عابرةٍ منها، أو بسلامٍ جريء من يديها المزدانتين بالنقوش، ولا يعلو الجرامافون بأغنيات «صافيني مرّة» و«على قد الشوق» إلّا حين تجمعهما صدفة، أو يقرّبهما مرورٌ لها بدكّان الخوجة.

تدنو شواهي من عامها الأربعين، وحكيم طفلٌ لا يكاد يخطو فوق عتبته الخامسة عشرة. طفلٌ وإن بدا طوله مقاربًا لطول أبيه، لكنّ عجوزًا مثلي لن يفوتَها أنّ الطفل في واقع الأمر عاشقٌ صغير؛ يحبّ تلك المرأة، ويذوبُ في تفاصيلها، تمامًا كرضيعٍ يتأمّل ثدي أمّه إذ يقطّر الحياة في فمه.

هل بلغ حكيم الحلم؟ نعم على الأرجح، وربّما ليس بعد، لكنّي قادرةٌ على استشراف ما سيكون منه حين يبلغه. حدّثتُ شواهي في أمره ذات ضحًى، فضحكت ساخرة، ومالت بجذعها تتأمّل سقف الدار، قالتْ:

-لو تزوّجت واحدًا ممّن يصطفّون في طابور الخُطّاب منذ سنواتٍ لصار لي اليوم ابنٌ يشبهه، وربّما في مثل عمره. لهذا أحبّه وأعطفُ عليه يا خالة، فقد حُرم دفءَ الأمّ مبكّرًا.

-تعرفين أنّه يأنس بعبورك، ويطربُ بمحادثتك، وإن ظلّ مُطرقًا، لكنّك تزيّفين الظاهر وتدّعين اطّلاعك على المستور. في العشق، لا مجال للافتراض يا ابنة الغجر، أصدقُ الحبّ ما كُتِم، وأوضحُه ما تُشرق أماراتُه على وجهٍ صموت...

وتطلق سراح ضحكتها الغنجة التي تصهر القلوب:

- يا خالة، الأمر برمّته محض افتقادٍ للأمّ، ولا علاقة له بالعشق.

لكَم أفتقدك اليوم يا شواهي، فما عاد أحدٌ يذكُر العشق، وما ظلّ في السُّرُر أثرٌ لعناق...

انتقل القلق من الناس إلى البهائم والطيور سريعًا، وإن ظلّت حالها أفضل، فما سقطتْ شعورها ولا نَحلت أوبارُها، وما نتف الوباء ريشها.

مواشي الكلّاف جعلت تتعارك في حظيرتها، حمارٌ يرفس عِجلًا بقسوةٍ على باب الزريبة، وخروفٌ ينطح نعجةً تودّدَ إليها منذ ليالٍ. الكلّ يبحث عن مساحة أمانٍ لا يشاركه فيها أحد، الأقارب لا يتزاورون، والجيران لا يتسامرون، التحايا في الطرقات مقتضبةٌ مبتورة، الشكّ متمترسٌ خلف المقل، الأطفال حزانى لسقوط شعور رؤوسهم وزوال حواجبهم، والنسوة صرنَ أشبه بالرجال.

بُني داخل كلّ بيتٍ جدارٌ من الشقاق، الزوج أضحى لا يأنس لاقتراب زوجته، والزوجات بِتْن يُخفين أسفلَ وسائدهنّ سكاكين يشهرنها في وجوه أزواجهنّ متى طلبوهنّ للجماع. لكنّ الرجال لا يطلبون، والنسوة لا يستخدمنَ السكاكين.

يااه يا شواهي، لماذا تتركين خالتَك وداد في مثل هذا الرعب، أحدهم سوف ينقضُّ عليَّ ويصرعني في أيّ لحظة، لم أؤذِ أحدًا، لكنّ الكلّ مُؤهَّلٌ للعدوان، وأنا وحيدةٌ ضعيفة، خائفةٌ وجائعة، يَطرقون

الباب كالمجانين كلّ ليلة، أسمع صوت النجّار يُقسم أنّ امرأته موشكةٌ على المخاض، وصوت الشيخ أيّوب يناديني وينادِيكِ يا شواهي. ولكنّي لم أعد مؤهّلةً لالتقاط الأطفال من الأرحام. أحلم منذ سقط النجم أنّي أَجذِب من بين كلّ ساقَين منفرجتين كتلةً من فحمٍ أسود مُخَضّبٍ بالدم. أخبرت بعض النسوة بذلك قبل احتجابي، فكلّ المواليد منذ الساعة سيجيئون كالجيفة، والأهالي لن يرحموا جلّابة الشؤم. ستضع زوجة النجّار بقعةَ سواد، وسيطاردني محجوب بكلّ أدواته. ربّما يدفنني في أحد قواربه المهملة، أو يحبسني داخل صندوقٍ مغلقٍ كما فعل به أبوه صغيرًا. سيستقرّ إزميله في قلبي بعدما يشقّ به رأسي. فكيف تحمل وتلد من انقطعت دورتُها؟ الأمر من فِعْل السحر لا ريب، والسحر مآله جنينٌ ميّتٌ كما جرى لصبْية الشيخ أيّوب. ولطالما تحاكى الناس في شأن عنايات التي عاشت تعاشر زوجَها كلَّ ليلةٍ بحثًا عن بذور المولود المرجوّ، حتّى نحل محجوب وجفّ ماؤه. وها هي اليوم حُبلى. فهل يُعقل أن أجازف بالتقاط طفلٍ هو حتمًا شبيهٌ بذاك الذي يؤرّق مضجعي ويحيل ساعات السبات الشحيحة جحيمًا مستعرًا؟

كلُّ شيءٍ موجودٌ في دار خليل الخوجة، القطن والمقصّات والشاش والمؤَن الطبّيّة، والكانون في كلّ بيتٍ كفيلٌ بتسخين المياه، فلِمَ يصرّون على مطاردتي؟

ثمّ لماذا لا يستغرب الناس عدمَ إصابة حكيم ابن الخوجة بالوباء عوضًا عن مطاردتي؟ فكيف لموبوءٍ أن يجد في عقله مساحةً

لتشغيل أسطوانات عبد الحليم، أو الانخراط في نوبات مشيٍ وعدوٍ وقراءة؟ كيف يحظى -على الرغم من حزنه- ببالٍ خالٍ من القلق وسريرةٍ هادئةٍ لا يحتلّها الخوف؟ لا يمكن أن يكون الصبيّ الأخرس مصابًا بالداء نفسه الذي استعمر كلّ دور النجع، وإن ادّعى أبوه العكس فحلق له حاجبيه. الجميع يلحظون شعرَ الصبيّ كلّما انزلقت طاقيّته من فوق رأسه. لمحته من نافذتي مرارًا، وهكذا سمعتُ الناس يتساءلون، والخوجة يبدو كأنّه يحاول إثباتَ أنّ الوباء لم يترك أحدًا، مبرّئًا بذلك وحيدَه من تهمة الصحّة!

يقول النحّال إنّ الجيش ربّما يُجرّب سلاحًا يفرز الغاز، وإنّ الجنود حين أطلقوا الرذاذ تجاهَ العدوّ، باغتتهم ريحٌ مخاتلةٌ أتت به إلى النجع بدلًا من حمْله تجاه الشاطئ البعيد ليعبر البحر ويسقط على رؤوس الأعداء وهُم نيام!

ثمّ يدحضُ الشيخ أيّوب الخبر، وينكره بيقين الأولياء، مؤكّدًا أنّ الله يختبر الناس في عزلتهم، وأنّ صلاةً يدعو إليها منذ أيّامٍ كفيلةٌ بردّ البلاء!

وها أنا أقف أمام المرآة، عارية الوجه أرى ثمانين سنةً تركض وراء ظهري، بكتفَين متهدّلتَين، ونهدين ذابلين. الشروخ في المرآة أقلّ من التجاعيد في وجهي، والوشم الأزرق على ذقني يكاد يختفي.

اشتريتُ الذهب من أسيوط ومن سوهاج مرّات، وبقيت أدّخر من المال ما يزيد عن حاجتي، خصوصًا مع ما تسلّمه إليّ شواهي كلّ شهر. طالبتها مرارًا بالتوقّف عن إرسال المال، لكنّها كلّما أبديتُ

غضبي تقول إنّها تحفظ مدّخراتها عندي، لذلك لا أنفق من مالها قرشًا، حتّى عندما ضاقت الحال وذابت الصلات بين النجع وسائر القرى.

اعتدتُ الشراءَ الآجل من دكّان الخوجة والمقايضةَ سرًّا مع بعض الجارات، حتّى بتُّ أستعذب مطاردات الخوجة لي، ومطالباته التي لا تتوقّف بسداد حسابٍ يدوّنه حكيم بدقّة. جعل الرجل الماكر يرفع الأسعارَ تدريجيًّا، ثمّ يرسل إليَّ ولده تارة، ويشكو إلى الجيران طورًا، لعلّه بذلك يجبرني على السداد.

يطاردني شعورٌ دائم بأنّي طريدة، بعوضةٌ سقطَتْ في فخّ عنكبوتٍ يُحكم نسج شباكه في أركان الغرفة منذ أيّام. هو الآن منشغلٌ بالتهام ولائم أخرى، ولا يفصله عن التهامها سوى وقتٍ قصير.

الباقي من العمر إذَن هو الزمن الفاصل بين الامتلاء والجوع.

النجع هو العشّ، والألغام شبكةٌ لا فكاك لأحدٍ من شراكها، ولا عنكبوت سوى القلق. صرنا مستعدّين للتنازل عن كلّ شيء، كلّ ما نملك، الدار والأرض والذهب والعيال، كلّ شيءٍ حتّى العرض، مقابل ساعةٍ واحدةٍ من السكينة والأمان.

أتحسّس عنقي الذي ترك فيه الكردان أثرًا ظاهرًا حتّى اللّيلة التالية لسقوط النجم من السماء، إذ أخفيتُ الذهب ساعتئذٍ في صندوقٍ خشبيٍّ بدار شواهي، وقد شعرتُ أنّ الذهب كفيلٌ بجذب أطماع السارقين. أتذكّر لمعتَه وملمسَه وتأرجحه على رأس

زوجي الثاني بينما هو يغمرُ جسدي العاري بوابلٍ من القُبل، ثمّ لا تلبث الأسئلة أن تستردّني إلى دوّامتها السرمديّة؛ شواهي والحانة، والشيخ وصلاته، أيكون الناس بحاجةٍ إلى عَرق البلح الذي يبتاعونه من حانة شواهي المغلقة؟ أم صلاة الشيخ الجديدة؟ أليس العَرقُ كفيلًا بأن ينسيهم حواضرَهم المُترعة بالقلق، بعدما لم تؤتِ العقاقير المنوّمة أُكلها؟ أم تراها الصلاة ما يهدّئ من روعهم؟

لا فائدة يا وداد، هرمت عراجين النخل، الخرف يتمدّد في عقلك، يحتلّ الشرود حصونَه، ويروّع الواقع بكلّ أشكال الغياب. ما بي أتقافز بين العنكبوت، والذهب، والكردان، والقُبل؟ وما شأن العرق والصلاة بالضوء ووبال القلق؟

لو سمعني الشيخ أيّوب لأمرَ بنَبْذي خارج النجع، وربّما أفتى بإلقائي فوق أحد الألغام، جاعلًا من كومة عظامي وجبةً لثعبانٍ ضخم يتحرّى رائحة ضحاياه. حسبي أنّني لن أُشبع الثعبان ولن ألوم الشيخ! فالرجل يدعو إلى صلاةٍ تُزيل الجهامة عن الوجوه وتهدّئ الموتورين، وأنا أفكّر في فتح الحانة وتوزيع العرق على أسراب السلاحف المذعورة! أستغفر الله ثلاثًا، أبصق على يساري، وأُنحّي الفكرةَ بعيدًا، ثمّ لا ألبث أن أسأل الله عن مصير شواهي.

سَقطتْ شظايا عديدةٌ من الحجر داخل النجع، أكان نجمًا، أم حجرًا؟ لا يهمّ! حَطمّت بعض الشظايا دورًا مغلقة، ووميض بعضُها وانطفأ من دون أن يترك أثرًا. رأيتُ النجّار يُلملم الحُطام ولم أعرف السبب. فهل راحت شواهي ضحيّةً أسفل إحدى الشظايا؟

لم تُسمَع انفجاراتٌ منذ ليلة الضوء العظيم، وهكذا فهي لم تتعثّر في لغمٍ خارجَ حدود النجع، هي لم تزل في النجع إذَن، ربّما هي تُغلق دارَها على نفسها مثلي، وهذا كلّ ما في الأمر...

منذ ليالٍ يطاردني في نومي شبحُ رضيعٍ له ثلاث عيون، يُحوّل السباتَ كابوسًا مرعبًا. الرضيع يمسك بجدائل شعري البيضاء التي زالت، يبصق في وجهي دمًا، ويرتدي عمامة المشايخ. أهرب منه فأتعثّر، يرميني بأقذع العبارات وأقبح الألفاظ، يرشقني بوابلٍ من مترادفات الشؤم وخيانة الأمانة والعمل بالسحر وجلب الشرور وتسخير الجنّ. أفترش الأرض رفقة النسوة المتّشحات بسواد الحداد، أكمش التراب من الأرض وأهيله على رأسي، والنسوة والرضيعُ ذو الثلاث عيون يشاركونني الطقوس ذاتها.

أستيقظُ وقد بلّل العرقُ ملبسي وفراشي، أحاول تذكّرَ وجه الصغير، يبدو مألوفًا وإن سقط من الذاكرة اسمُه وكسا الضباب دارَه. لم أستخدم السحرَ يومًا لأؤذي بشرًا، بل كثيرًا ما خاطبتُ الأسياد لرفع الأذى عن طفلٍ محسود أو امرأةٍ نالت منها عينٌ شرّيرة.

قبل أن تألف يداي الارتعاش، كنتُ أقصّ الورقَ والقماش على هيئة رجلٍ أو امرأة، ثمّ أحرقه على مرأى المحسود الذي يتوجّب عليه مواصلة التحديق بالنار حتّى تستحيل رمادًا، عقب ذلك كنت أُدلّك الجباه بالشبّة، قبل أن أحرق الشبّة ذاتَها في النار، ليمرّ المحسود من

فوقها سبع مرّات، حتّى يتسرّب دخانها إلى أقدس مكامن جسده، فتزول علّته ويتحرّر من شكواه.

فهل في ذلك إلحاقُ ضرر، أم درء له؟ كيف ذلك وكلّ داءٍ اعتلّ به جسدُ المحسود يشرع في الزوال عقبَ ساعاتٍ من مداواتي، خصوصًا مع النسوة اللّاتي حسدتهنّ جاراتٌ أو قريباتٌ عقب التقاطي لطفلٍ وديع، أو طفلٍ ثقيل الوزن، أو طفلةٍ طويلة الشعر من أرحامهنّ؟ لماذا يُصرّ الرضيع في حلمي على أنّي أؤذي الأهالي بينما أطرد الشرورَ من الأجساد المرصودة بعيون الحاسدين؟ فهل يكون ما أصاب النجعَ من ضررٍ سببه الحسد؟ لا تمرّ بنا القوافل منذ اندلعت الحرب، وحدها العربات المموّهة تفد إلى النجع، فمَن يكون الحاسد؟ ومن هو المقصود بالحسد؟

غاصَ النجع في قوقعة صمتٍ فور سَحْبِ الشمس خيوطها. عاد الناس والبهائم إلى البيوت والحظائر. أسراب الحمام اندفعت إلى غيّاتها في حالة ذعرٍ مشابه. انحسرَ الضياء فجعلتُ أسمعُ أصواتَ المتاريس واحدًا تلو آخر، إيقاع المتاريس عامرٌ بالترقّب، يُقرُّ بانعزال كلّ امرئٍ كالحلزون، مسلّمًا مصيرَه لمزاج البحر. داهمتني خاطرةٌ جريئةٌ تنطوي على مخاطرةٍ عظيمة، فقرّرتُ مغادرة الدار لأوّل مرّةٍ منذ أودعت دارَ شواهي خبيئتي الذهبيّة. عقدتُ العزمَ على أن أعود إلى الدار ذاتها، لعلّ شواهي عادت، وربّما تكون مختبئةً مثلي.

فهل أغادر الآن، أم أنتظر اللّيل ليؤمّن رحلتي؟

يَثِب عقلي بين الرفض والقبول، فأقرّرُ حسمَ الأمر عقبَ منتصف اللّيل، حين يتوسّط القمرُ الفضّيُّ سماءَ النجع. جهّزتُ جِوالًا من الخيش، ووضعتُ فيه مؤنًا قليلةً وبعضَ الملابس، ربطتُ ما تبقّى لديَّ من نقودٍ في حزامٍ لفَفْتُه بإحكامٍ حَول خصري. استشعرتُ أنّي حالَ عثوري على شواهي في دارها، ربّما أقنعها -أو تقنعني- بمغادرة النجع إلى الأبد.

أستعيد كلمات النحّال، وأرسم صورةً لتخيّلاته الشديدة الجُموح لواقع ما يجري. أتصوّر حالَ صحّتها فينقبض صدري، ولا أجد غير الرحيل مفرًّا من الشرك الذي وقع فيه النجع.

يعوي ذئبٌ على مبعدة منّي، فيصلني صوتُه المحزون من قلب حزام الألغام، أتعجّب إذ ينال الذئب من الحرّيّة وحسن الطالع ما لا يحظى به آل النجع. لا يجرؤ بشرٌ على عبور اللّافتات الزرقاء التي تَصْلب النجع في منأًى عن الخرائط الرسميّة. وها هو الذئب يجتاز اللّافتات بحرّيّةٍ يتوق إليها البشر، وتعرج الملائكة بأقدامه من بين الألغام فلا تصيبه، كأنّه نجا من عمليّة صَلبٍ جماعيٍّ تعرّض له النجع منذ اندلعت الحرب.

يقولُ النحّال إنّ الحكومة ملزَمةٌ بأن تزيل الألغامَ بترسانتها من الكاسحات والخبراء، خصوصًا وقد سحقَ العرب رأسَ العدوّ منذ قرابة عشر سنوات. حتّى إنْ ظلّ العدوّ يناوش هنا وهناك بغيةَ تعطيل الركب واستنزاف القوى، فنحن المنتصرون، والمنتصر لا يليق به الحصار، فهل تتعرّض شراذم اليهود التي تعيش الآن على

أطراف فلسطين، وفي معسكرات النازحين في الجولان والأردن، لحصارٍ مشابه؟ ألم تنتكس قوّاتُهم العسكريّة وقد دمّرْنا معظمها؟ لماذا يواصلون التأثيرَ في مصائرنا إذَن؟ ثمّ، ما هي الكاسحات؟

ويداهمُني صوتُ شواهي المغزول من ضحكةٍ مكتومةٍ وطيف عطف:

- أصبحتِ خبيرةً عسكريّةً يا خالة؟

فأجيبها همسًا وأنا الجاهلة بموقعها بين الأرض والسماء:

- ماذا تريدين من عجوزٍ وحيدةٍ لا يُقرَأ عليها من الصحف إلّا ورقات «صوت الحرب»؟

وتحاول كتمَ ضحكاتها إذ تعيد وصاياها:

- نصحتكِ ألفَ مرّةٍ أن تسدّي أذنيكِ فور شروع الخوجة أو أحد أعوانه في تلاوة الصحيفة، فكلّ أخبارها مُعادةٌ ولا تأتي بجديدٍ يا خالة!

فأُتَمْتِم كأنّها لم تزل إلى جواري، تجاهدُ كي تغزلَ ضفيرةً واحدةً ممّا بقيَ من خصلات شعري:

- يقول خليل الخوجة إنّ الألغام لحماية النجع من المتسلّلين، فهل يُعقل أن يظلّ المشمولُ بالحماية أسيرَ خيمته، لا يجرؤ على خَطْو أمتارٍ خارج عُمدها؟ أمَا آن الأوان لنستعيد سيرة الأجداد، فنمضي بين الدروب جوّالين، نحمل أوطاننا فوق سنام جمالنا؟

وتتحرّر بضحكاتها من قلقها:

- آاااه، والآن صرتِ تتحدّثين بلسان النحّال العجوز، أتراكِ تخطّطين للثورة على الألغام؟

أحرّك يديّ في الهواء كأنّي أودّ فَرْكَ شحمة أذنها كما اعتدتُ في طور طفولتها، لكنّ طيفَها لا يتجسّد كما أوحى الرجاء، فأواصل مخاطبة غيابها الـمُقبّض كأنّي بذلك أنفي حدوثه:

- يقول الشيخ أيّوب إنّ عيسى لم يُصلَب وإنّما شُبّه للناس، ويستدلّ على ذلك بآياتٍ من كتاب الله، وأنا مصلوبةٌ بين المصلوبين، لا يهمّني أن أستوثق من حقيقة صلب المسيح، ولا أبتغي نهايةً كنهايته، لكنّي أشاطرُه الألمَ من دون مسامير!

ويقترب صوتُها من حيّز الوجود:

- فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا...

تنغرس الآية في صدري فأستكين. ويجيء عواء الذئب مرّةً أخرى حزينًا فُرّغتْ منه الحياة فضلَّ العواءُ السبيلَ إلى أسبابها. بلغني الصوت غريبًا، حمّالَ شجونٍ وخدر، ليس كأنين عنايات زوجة النجّار في فراشها عندما تجتذب زوجَها إلى أعمق نقطةٍ في جسدها، وليس كصوت الدبّاغ الشجيّ وهو يشدو بموّال ياسين وبهيّة أو موّال أدهم، ولا هو باعث على النشوة كلهاث شواهي الغَنِج حين ترقص، بل هو صوتٌ تقشعرّ الأبدان لسماعه، واستحضارٌ لأطياف الراحلين في لحظات الوداع، ونواحٌ شجيٌّ ممطوط.

ذاك الذئب قلقٌ هو أيضًا، فما لذئبٍ أن يحيا مطمئنًّا في نجعنا اليوم.

النشوق في علبتي يوشك على النفاد، أرجُّ العلبة الصفيحيّة كي أستجمع ما علق بأركانها، وأكوّم ما استجمعتُه ثمّ أدسّه في أنفي، شهيقٌ آخر عميق، يعقبه خدرٌ تُسبَل في إثره الأجفان. قاطعتُ الجوزة منذ أيّام، ففي كركرتها افتضاحٌ لمخبئي ودليلٌ على وجودي، حتّى إنْ خيّم اللّيل على النجع وأرخى سُتر الصمت، أعرف أنّ الغالبيّة سهارى، يبارزون الأرق في معارك لا يخرج فيها من بينهم فائز. العيونُ مُعلّقةٌ في الأسقف، لكنّ الأسماع حادّةٌ تتوسّل أدقّ الأصوات، وصوتٌ واحدٌ ظلّ كفيلًا بكشف السرّ.

أحسمُ قراري، فأدسّ ما خفّ حمله من الملبس في جِوال الخيش، وأرصّ فوقَه المُؤَن. كان لديّ عسلُ نحل، ومش، وقطع من البتّاو[1]، وجبن، وعلبة النشوق شبه الفارغة. أصبّ الحليبَ في قدرٍ كبير، أغمسُ فيه مضغًا من الخبز وأتركه للقطط، أغلق الباب وأترك نافذةً في صدر الدار نصفَ موصدة، لتسهّل للقطط الخروجَ والتجوالَ وقتما شاءت.

(1) البتّاو: نوع من الخبز المخمّر يصنع من عدّة أنواع من الحبوب مثل الذرة أو خليط الشعير والقمح، أو خليط الذرة والحلبة، مع الماء والخميرة، وأحيانًا اللبن، وهو خبز صحّيّ منتشر في صعيد مصر وتختلف مكوّناته من منطقةٍ إلى أخرى، والبتّاو موجود على المائدة المصريّة منذ عهد قدماء المصريّين، إذ يرى بعض العلماء أنّ اسمه مشتقّ من الكلمة الفرعونيّة «باتي» ومعناها الخبز، كما سُجلت طريقة عمله على جدران المعابد المصريّة في الأقصر وأسوان.

قُدِّر للوباء إذَن أن يصيب البشرَ دونَ باقي المخلوقات، فهُم الأجدرُ باللّعنة من بين سائر الكائنات، والقططُ أضحت أكثرَ وفاءً لي من الآدميّين، إذ أبتْ أن تفارقَ مُستقرّي، أمّا الناسُ فهُم يقصدونني لحاجةٍ يبتغون منّي قضاءها.

آه... لا شيء يراود العينَ قدر الاستشفاء بإطالة النظر إلى وجهك يا شواهي!

أتّكئ على الجدران الطينيّة الباردة وقد اعتراني شعورٌ عامّ بالضعف، الجسد فاترٌ، خائرٌ ملآن بثغراتٍ تتسرّب منها الحياةُ تدريجيًّا، دوارٌ يتسلّق خطواتي فيكاد يسقطني، يلقاني الذعر أمامَ باب الدار مشهرًا كلَّ هواجسه.

تقتربُ أصداءٌ لأصوات جمعٍ من الناس، فأرتجفُ فزعًا. تتسمّر قدمايَ في موضعهما. ثمّة تجمّعٌ من الظلال يدنو من مكمني، أتحرّى حقيقتَها وقد اعتدتُ أن تشاغلني ظلالُ الجنود العائدة من دون أجسادها. تدمغُ الأصوات حقيقتَها فأجفل. ترنو الظلال إلى موضعي، وتتمايل مع اهتزاز لمبة الجاز التي يحملها أحدهم، فأكتم أنفاسي.

بعد تفكيرٍ بطيءٍ أنسحبُ إلى الدار، أُوارِب البابَ ولا أغلقه، تصمتُ القططُ الملتفّة حولَ قدميّ، أغلقُ بابَ الدار بظهري. أسترقُ السمعَ، فتبلغني بعض العبارات واضحةً، صادرةً عن حناجرِ صِبْيَةٍ لا يكادون يبلغون العتبةَ الوسطى من عقدهم الثاني:

– هذه دار وداد السحّارة، أليس كذلك؟

– نعم، ولكنّها اختفتْ منذ سقوط القمر الصناعيّ...

– لعلّه سقط على رأسها فهشّمه!

يتبادل المتحدّثون الضحك، ثمّ يستطردون بأصواتٍ نصف واعيةٍ أميّزُ بينها أربعة صبية:

– يبحث عنها النجّار، والشيخ المخبول!

– النجّار يبدو مخبولًا هو أيضًا، فمَن يصنع القواربَ في نجعٍ منسيٍّ لا شطآن له غير المجنون.

– يقول والدي إنّ الشيخَ يبتكر صلاةً جديدةً للتخلّص من الوباء الذي أسقط شعورَنَا ومحَا حواجبَنا!

– هو محض عجوزٍ خرف، تقول أمّي إنّ الأمر متعلّقٌ بسحرٍ عظيمٍ صنعته روحٌ شرّيرةٌ لإلحاق الأذى بالنجع!

– إن كان سحرًا، فلمَ لا تكون تلك السحّارة هي من صنعته؟!

– ألا تسكن هنا شواهي الغازية؟

– يقول أبي لأصدقائه إنّها تسكن في حانتها عند طرف النجع، كانوا بالأمس يشكون من الخواجة، فقد باعهم بضاعةً مغشوشة، ولا تقارن بما تبيعه شواهي!

– اختفت شواهي أيضًا!

– نعم، يا للأسف!

– ولكن ما احتسيناه الآن يكفي لمحو القلق! ألا ترى أننا عدنا نتسامر في ألفة كعادتنا قبل الانفجار؟

– كثيرًا ما أرى شواهي هنا قرب دار وداد!

– حدث ذلك قبل أن تضيء السماءُ يومَ الانفجار العظيم!

– لماذا وصفت وداد بالسحّارة؟ أليست هي القابلة التي تولّد النساء؟

– تقول أمّي إنّ شواهي هي ابنتها من سِفاح، لا أحد يعرف من أين جاءت شواهي!

– وها هي قد تبخّرت الآن قبل أن نعرف من أين جاءت، أو ندرك إلى أين مضت!

– لكنّ النجع أمسى حزينًا بغيابها!

– أستغفر الله العظيم، لا أعرف كيف وافق المشايخ وكبارات الناس على أن تقيم بينهم امرأةٌ خليعة كشواهي، ترقص في الأعراس وتبيع الخمر، أبي يغضُّ عنها البصرَ أينما حلّت، هكذا يقسم لأمّي!

– شربتَ معنا العرق الآن، وتستغفر الله وقد منحنا فاكهة الحياة في جسد الغازية؟!

– رأيتُ عينيك تطوفان حول خصرها الميّاس ونهديها العامرين في آخر عرسٍ عُقد قبل سقوط الحجَر، هل تُنكر؟

– نيزك، أم حجَر، أم قمر صناعيّ؟ لا أفهم ماهيّة الشيء الذي

كسا السماء بالنور!

– فقط نعرف أنّ رؤوسنا أمست شبيهةً بالحصى!

– جدّتي لا تتوقّف عن البكاء، طلبَتْ من أختي رسمَها بضفائر طويلة كتلك التي امتلكتها قبل الوباء، رسمتها أختي بقلم كوبيه، فكان أن احتفظَتْ جدّتي بالرسم تحت وسادتها...

– أمّي وأخواتي كذلك، حالهنّ كرْب...

– قريبًا نلتحق بالحرب، فلا تشغلنا أمور النجع...

– ربّما نموت في الحرب!

– وربّما لا نموت فننال الحرّيّة!

– أفلا تقدر السحّارة على ردّ العدوّ ووقف الحرب؟

– لماذا تصفون وداد بالسحّارة؟ هي من ولّدت أمّي ستّ مرّات، وهذا حالكم جميعًا، فهل تشتغل بالسحر كذلك؟

– هي امرأة ملعونة، تقول أمّي إنّها تئد الأجنّة المعوقين...

– هذا كفرٌ وليس سحرًا!

– تفكُّ المربوط، وترفع وبالَ الحسد عن الجسد، ومن فكّ السحر يعرف الطلاسم، ومن يدرك الطلاسم قادر على عقد السحر من جديد... يُقَال إنّها عقدت سحرًا جلب جنينًا إلى بطن عنايات زوجة النجّار...

– سحّارة إذَن!

- لا يجتمع الناس على أمرٍ في النجع، ولكلّ قصّةٍ أكثر من حكاية...

- أنت تعرف القراءة، أليس كذلك؟ اقرأ لنا المكتوبَ على جدار بيتها لعلّ فيه ما تنجلي به الأمور؟

- توقّفتُ عن ارتياد الكُتّاب، ولكنّي أعرفُ كيف أقرأ القرآن، أمّا باقي الكلمات التي لم ترد في كتاب الله فلست مُلمًّا بمعظمها...

- حاول فحسب! لعلّ للأمر علاقةً بشواهي! أو بالسحر...

يسودُ الصمت، لم أفكّر يومًا في قراءة المكتوب على داري، لم ألتفت إلى الأمر الذي جرى منذ ليالٍ وقد شاع بين الناس أنّ أغلبه سبابٌ وخوضٌ في الأعراض. هذا ما سرّبته إليّ نافذتي من محاورات شحيحة، ولم يكن لديّ ما يمسّ عرضي، طُلِّقت مرّةً لأنّي لا أنجب، واجتثّت الأقدار من فوق صدري زوجًا ثانيًا عهدته مُحبًّا ومسالمًا، هذا كلّ ما في الأمر. العقر سترٌ أحيانا وراحةُ بال، إلّا أنّ امرأةً مثلي أراح الله بالَها من مشاكل البنين والبنات والأحفاد والحفيدات، تبحث عن بؤرة قلقٍ أخرى تتمحور حول شواهي، الابنة البارّة التي جفّ ماءُ الرحم قبل أن يمنحني إيّاها، كأنّ كلّ امرأةٍ لا تقدر على العيش من دون مُسبّباتٍ للهمّ والقلق...

قبل ستّين سنةً تمّت زيجتي الأولى، رجلٌ في الأربعين، متزوّجٌ وله أبناء وبنات، قال إنّه أصبح ذات نهارٍ مفتونًا بي، فلم يقدر على نسياني منذ لقيني مصادفةً في دار قريبٍ له. كان لي في ذلك الزمن أمٌّ وأب، وكنت أسكنُ في بيوت الحجر المتاخمة للنجع القديم خلفَ

الجبّانة، صَبيّةً تحجُّ إليها أنظار الراغبين وتصاحب خطواتها لوعتهم. وافقتُ على إتمام الزيجة بغير ارتياحٍ تامٍّ من أمّي التي مانعت على مضضٍ، فلا هي أعلنت معارضتها، ولا هي استطاعت أن تواري المطبوعَ فوق قسماتها من سخط. أرادت لي بيتًا بلا ضَرّة، بينما وقَرَ في قلب أبي الرضا والسرور، إذ جاء عرض العريسُ سخيًّا، فضلًا عن حيازته أرضًا يمتلكها ويزرعها مشاركةً مع إخوته. أمّا أنا، فقد وجدتُ في صدره العريض وبنيانه الممشوق توافقًا مع ما خيّلته الأحلام في عقلي، وصوّره المنام فارسَ الحلم الأخضر.

راقبتُه يوم العرس يهزج بمواويل الأجداد، يمتطي حصانَه ويرقص به على أنغام المعازف ودويّ الرصاصات، وتصوّرتُ نفسي فرسَه التي يعتليها خلفَ جدارٍ آمن. انفضّ العرس، ففضَّ غشاء الدم من دون إهدارٍ للوقت، أتمّ ذلك بأصابع خبيرةٍ تدرك غايتها، تجوس في العتمة بغير حاجةٍ إلى إرشادٍ من نورٍ أو توجيهٍ من عينين، ثمّ جمعنا فراش قلّما غادره.

بمرور الأسابيع، جعلَ يراقبُ نزولَ الدم، ويحسب ساعاته وأيّامه، فإن جَاء موعدُه وضربت حمرته عينَيه، سنّ عادةً في اعتزالي إلى أن يتوقّف. وبتبدّل الشمس بين المشرق والمغرب، اعتدتُ أن يرميني بنظرات اللّوم. لم أعد العروس المدلّلة، إذ أُسنِدت إليَّ مهامّ أتشارك فيها بقسمة العدل مع الزوجة الأولى التي لم تتوقّف يومًا عن إعلان شماتتها، فله منها خمسة أبناء وبنات زهد فيهم يومَ أراد ذرّيّةً تنبت من جسدي أنا، لكنّ تدابير القدر شاءت أن تتعارض نضارةُ

الجسد مع خصوبة الرحم، وقبل مضيّ عامٍ من العرس، طُلِّقتُ، وعدت إلى داري أجرجر أذيالَ الخيبة، موصومةً بعارٍ مستدام.

هل يُعقَل أنّ فتاةً متفجّرةَ الأنوثة كشواهي يفوتُها قطار الزواج؟!

الصِّبْية الذين قضوا ليلتَهم في الجبّانة يحتسون ما تبقّى في زجاجات عرقٍ، هي في واقع الأمر مخلّفات مجالس الآباء، ما زالوا يحاولون استنطاقَ الجدار وفكّ طلاسم أحرفه.

جاؤوا لتوّهم من محاولاتٍ للهرب من واقعهم، لذا أتفهّم دوافع سكرهم وضياعهم، فقد شارفوا سنّ الحرب، ومصيرهم يلوح في مخيّلاتهم قدرًا محتومًا ومكانًا محفوظًا على الجبهة بين القذائف والرصاصات، ذلك ما لم تحدث المعجزة وتنتهي الحرب.

أسمعهم يهمهمون بافتراضاتٍ وتركيباتٍ لا تكتمل بها جُمل، وأنا غارقةٌ في دوّامة ماضٍ لا أستطيب استرجاعَه، أشرد متذكّرةً مجلسي بضفاف الترعة، متهدّلةً كأغصانٍ جافّةٍ انقطع عنها الريّ. العمر يأفل، والزمان يمتصّ من المخلوقات أكسير الحياة وماءها، وما كنتُ أنا من ذلك استثناءً.

أتذكّر، أدورُ في ساقية العمر بعكس اتّجاهها، تؤانسني ريحُ الأيّام الخوالي وإن عكّرت صفوها الدموع. فحتّى أحزان الأمس البعيد تحتفظ بمذاقٍ ذي حلاوة وطلاوة. مات أبواي في شهرٍ واحد، هزمهُما البرد في طوبة[1] فنالت منهما حّمى تفتك ولا ترحم.

(1) هو الشهر الخامس في التقويم المصري القديم، ويبدأ من 9 يناير حتى 7 فبراير، ومعروف عنه أنه أكثر شهور السنة برودة.

كانا قد اكتفيا بي صبيّةً وحيدة، وفشلت محاولاتُهما في الإنجاب من بعدي. ولدتني أمّي وهي ابنة الخامسة عشرة، ثمّ نضب رحمها مثلي، فكان أبي يلومها بعد طلاقي، إذ تأخّرتْ في تزويجي وقد زففتُ ابنةَ عشرين سنة، فورثتُ عنها نضوبَ الرحم المبكّرَ.

بعدما أَسدلَتِ الوحدة خيمتَها الثقيلة على رأسي، غادرتُ الدار الأولى، ومضيت بلا غايةٍ حتّى استقرّ بي المقام في قريةٍ واسعةٍ على مقربةٍ من أسيوط، فجعلتُ أزاول مهنتي التي لم أتعلّم سواها منذ طُلِّقت. كنت قد تلقّيتُ أسرارَ القِبالة عن امرأةٍ عجوزٍ أرادت فتاةً تعينها وتمرّضها في ذات الوقت. انخرطتُ في عملي متصوّرةً أنّ الله عوّضني بذلك، إذ جعلني واسطةً بين كلّ أمٍّ وجنينها، وسرعان ما غدوتُ في قريتي الجديدة نذيرةَ خير، وقد التقطتْ يداي من الصِّبْيَة أضعافَ ما تلقّفتا من الإناث.

التزمتُ بالتعاليم التي لقّنتني إيّاها العجوز من دون تحريفٍ ولا تجريب. أوليتها ثقةً كلّيّة، وكنتُ أراها نبيّةً سخّرها الله لتنشر الأفراحَ في الدور، عرفت منها كيفيّة فكّ المربوط وإبعاد الحسّاد بآيات الله وأدعية النبيّ سليمان، والتزمتُ بعادات الأوّلين، فكنتُ أحرص على رَمْي التراب خلفَ ظهر كلّ امرأةٍ تدخل على الوالدة فورَ ولادتها. دأبتُ كذلك على تغسيل الأموات من الأجنّة بنفسي، وتسليمهم إلى ذويهم. تعلّمتُ أيضًا ألّا أعذّب الأهالي بأطفالٍ شائهين، فكان الطفل المعيب في عينيّ ميّتًا مؤجّلًا، محض اختبارٍ إلهيٍّ يُستحسَن أن أجنّب الأبوين خوضَه.

مات زوجي الثاني بعد مضيّ سنواتٍ ثلاث على زيجتنا، نالَ منه وباءٌ يُسبّب الحمّى ويُفرغ الأمعاء. رجلٌ أرمل ماتت زوجتُه بغتةً دون العشرين قبل أن ينبت ثمره في أحشائها، فقرّر أن يعتزل النساء حتّى لقيني. وقتئذٍ كنتُ محزونةً لرحيل شيختي ومعلّمتي، مأخوذةً بتهافت النسوة على طلبي، كأنّي امتدادٌ لها. أقبلَ بظلّه العريض، فحجبَ الشمسَ عن الحارة. قصدني مباشرةً إذ كان على سفرٍ وأنا لا أهل لي. قبلتُ به زوجًا ورحلتُ معه إلى قريته.

حرث أرضي حتّى أعياه التعب وأنهكه بوارها، فأدرك أنّ الثمر لن يَنبت في الرحم القاحل. لم يعاتبني لقوّة إيمانه، ولبساطته، لم يهجر فراشي، ولم يباعد بين جسدينا حتّى في آونة التعب. أشار عليه بعض المشايخ بكلّ الوصفات المعروفة، وقرؤوا علينا الآيات من مختلف الكتب المقدّسة بغيةَ فكّ الربط، فما نجحُوا، وما عرفُوا أنّ لي في دروب السحر باعًا، وأنّ الجارات في قريتي الجديدة اعتدنَ زيارتي ليتحدّثنَ عن السحر الذي يكون الفراشُ مُستقرّه، والأجساد مُستهدفَه، فيتشاكين من زوجٍ عنّين، أو زوجٍ مربوط، أو رجلٍ زاهدٍ في حياة الأسرّة.

دفنتُ زوجي الثاني، وعدتُ إلى وطن أبويّ، ساقتْني قدمايَ لاإراديًّا إلى نجع المناسي، نجعٍ هادئٍ وناسُه طيّبون، كلّ دارٍ مغلقةٌ على شؤون قاطنيها، قرابة السبعين دارًا أو يزيد، تعجّ بالحياة بلا صخب، أتحرّك بينها وبين باقي القرى على حِمارتي، يرسل الناس المراسيلَ فأرتاد دورًا عامرةً بالترقّب، قبل أن أغادرها على أصوات

الزغاريد. وجدتُ في مهنتي مهمّةً إلهيّة، كأنّ الله قال: يا وداد، كوني سببَ فرح، ومصدر نشوةٍ أينما وَضعتِ قدميكِ.

لكنّ المقدورَ لم يَسِرْ دومًا في درب المأمول، طاردني العويلُ أحيانًا، مصحوبًا بصراخ كلّ امرأةٍ تضع قطعةَ لحم لا يلج إليها الهواء. وفي بعض الأحايين، تَحَتَّمَ عليَّ اتّخاذُ قرارٍ بيني وبين الله بخصوص مولودٍ مشوَّه أو معيب، كذلك الذي يراود ساعات نومي أخيرًا، فما حاجة أبوَين إلى طفلٍ برأسين، أو طفلٍ بثلاث عيون، أو بأصابع زائدة، أو طفلة نبَتَ بين ساقيها قضيب؟!

تتراقصُ الظلال كأنّ الركب موشكٌ على المضيّ، كلٌّ في اتّجاهه، الصبْيَة كأنّهم فريقٌ من الخواجات المهووسين بحفر الأرض واستخراج تماثيل المساخيط ومحاولة فكّ رموز الفراعين المكتوبة على الأسوار المهدّمة. لم آبه يومًا بفكّ رموز الحرف، فكلّ اللّغات في عينيّ سواء، لكنّي شهدت أكثر من مرّةٍ انتقام الفراعين ممّن يعبثون بقبورهم ورفاتهم، فطفقت الحمّى تفتك بالكثيرين، والحُفَر تنقبض على رؤوس الحفّارين. كنت أهاب قبورَهم وتماثيلَهم الضخمة ولا أخشاهم، فهم لا يؤذون سوى من تجرّأ على مرقدهم بالسرقة أو العبث. على الأقلّ، هم لا يطاردون الفلّاحات كما يُشاع عن تمثال الزعيم، الذي يقول الناس إنه يروّع الصِّبية ويواقع النسوة!

هل واقَع التمثالُ شواهي؟

انخرط أجدادُنا عُقودًا في العمل مع الخواجات، خبراء يعرفون الدروب ومواضع الآبار والجبال التي تسرح فيها عروقُ الفضّة

والذهب. ومرّت السنون فهات الخبراء، وتبخّر الخواجات مع الفضّة والذهب، وحدهم الفراعين ظلّوا ليحرسُوا تاريخًا لهم لم نتوقّف عن نبشه. تتعالى أصوات الصبية نصف المخمورين فتنتزعني من نوبة شرودٍ اختلطتْ فيها مشاهد الفراعين بالخواجات وبشواهي المطعونة بعضو التمثال الحجريّ. يبدو لي أنّ ذهن قارئهم قد تفتّق عن صياغةٍ شبه مكتملةٍ لما كُتب على جدار الدار، فأتابع مذعورةً استنتاجاتهم العرجاء:

– تلك المرأة قاتلة!

– من قتلت؟ هل للأمر علاقةٌ بشواهي؟

– سحّارة، أليس كذلك؟

– كلّا، مكتوبٌ أنّها وأدت صبيًّا وضعته امرأةُ الشيخ أيوب...

– يا الله! الرجل الذي عاش يبتغي من الله صبيًّا؟

– يا لها من كافرة!

– لماذا قتلت الصبيّ؟

– مكتوب أنّه وُلِد بستّة أصابع في يديه وقدميه...

– وهل يبرّر ذلك قتله؟

– لعنها الله في كلّ كتاب، لو وجدتها لشججتُ رأسها ودفنتها مع الرضيع الذي قتلت...

– دارها مغلقة، وهي ليست هنا، لعلّها هربت إلى دار شواهي..

– سأخبر أبي بما قرأته علينا الآن، وهو من جهته سيبلغ الشيخ

أيّوب، لا بدّ من طرد تلك المرأة من النجع!

-وهل لأحدٍ منّا طريق خروجٍ أو رجوع؟ نحن محاصرون حتّى نهاية الحرب!

-لو زال الحصارُ لأرسلنا أهلُنا إلى المدارس في القرى المجاورة..

- فلتستمرّ الحرب إذَن! وليلعن الله وداد حتّى نقتصّ منها فور ظهورها...

الظلال تبتعد تدريجيًّا، والأصواتُ تخفت فتستحيل همهماتٍ أنتظر في هلعٍ زوالَها، وأقرّ بما تأخّر تبيانه؛ لم يعد لي مكان في هذا النجع. قبل ظهر الغد سيُذاع خبري بين الجميع، وتلك السلاحف لن تعي أنّني كنتُ أفعل بهم خيرًا، أرحتهم ممّا كان سيقصِم ظهورَهم ذات يوم، ولكن هل كان ابن الشيخ أيّوب يستحقّ فرصة؟

أتذكّر الأمر برمّته الآن، قبض على سبّابتي بأصابعه وهو مغمض العينَين، بكاؤه واهنٌ وصوتُه تعب. عددت أصابعُه على إصبعي ستًّا! طالعت يدَه الأخرى فوجدت لها ستّ أصابع، استطلعت قدمَيه فوجدت لكلّ قدم ستّ أصابع، ووجدتُ في فمه سنًّا يوشك على البروز. تعاملت بهدوءٍ كعادتي في تلك الحالات، كتمتُ أنفاسه بكفّي دقيقةً واحدة، فانسلّت روحه المعذّبة من جسده المعيب. أبلغتُ الشيخ أيّوب، وكان قد ناهز الخمسين والمرأة ثالث زوجاته. فدمع صابرًا، وفوّض لله أمره، ثمّ تسلّم جنينه ودفنَه في غضون ساعة...

يومذاك، تجمّعت النسوة في دار الشيخ، زوجة النحّال وزوجة الخوجة وعنايات زوجة النجّار التي لا تحبل، وقريبات المرأة الواضعة، فهل لمحَ نفرٌ من الحضور كفّيَّ تعتصران أنفاس الوليد؟

ارتدّتْ تفاصيلُ اليوم إلى ذهني، تعجّبتُ كثيرًا إذ لم تمحُ السنوات ما جرى، فظلّ ذلك الجنين تحديدًا مدفونًا في ركنٍ قصيٍّ من ذاكرتي. خضتُ عشرات الحوادث المشابهة التي بقيت طيَّ الكتمان، ولم أعد أذكرها؛ قطع لحم حمراء رحَمتُها من عذابات الدنيا، وأرسلتها إلى الجنّة ملائكةً مجنّحةً تشيّد لآبائها قلاعًا، فأيّ خطإٍ ارتكبت؟

أجلسُ على المصطبة الحجريّة عند عتبة الدار، أستجمعُ شتاتَ أفكاري، يطبق الصمت مجدّدًا على سائر الملكوت. أقفُ بصعوبةٍ على ركبتَين مرتجفتَين، أحملُ جوّالي على ظهري، وأمشي ناحيةَ دار شواهي، فأغوصُ بين الزروع متجنّبةً السير في الطرقات.

أمدّ يدي، ألامس سنابل القمح مسترجعةً صوت حفيفه في مواسم الحصاد، وأسترجعُ أزمنةً مشبعةً بالخضار والصفاء. أمشي حذو الترعة في اتّجاه معاكسٍ للجبانة، كأنّي أقتفي أثرَ الصِّبية الذين أهدروا للتوّ دمي، أدعسُ بقدميَّ آثار خطواتهم الغاضبة المترنّحة، وأمضي نحو سماءٍ واسعةٍ تتراصّ فيها نجماتٌ طالما ائتمنتُها على سرّي. تحت هذه السماء التقطتُ شواهي طفلةً باكيةً قرب المعدّية، وخلفَ هذه الجدران كنتُ طيلة سنوات أهمَّ أسباب الفرح.

أغلب الأهالي الذين وفّرتُ عليهم مشقّة رعاية طفلٍ مشوَّه

رزقهم الله بطفلٍ سليم عقب عامٍ أو أقلّ، إلّا الشيخ أيّوب... فإن كانت رحمة الله قد وسعت كلَّ الأهالي ونبذتْه من محيطها، وإن كانت السماء قد لبّت دعوات الصابرين ثمّ أقفلت أبوابها في وجه الشيخ، فلا شكّ أنّ في الأمر حكمةً ربّانيّةً تستغلق على عقول البشر، وما كنتُ أنا سوى سببٍ ينفّذ مشيئة السماء!

حانة شواهي هي دارها، دارها شبيهة بدار النسّاج، لها مدخلان، أوّلُهما يُفضي إلى حانةٍ صغيرةٍ بها أربعُ موائد تحيط بها كراسٍ من الخوص، وبعض المصاطب، وثاني البابَين يقود إلى مسكنها، فسحة صغيرة في الدور الأرضيّ وقد ذهبت نصفُ مساحته للحانة، وطابق ثانٍ تعيش فيه وتختزن مؤنَها. سريرها مصنوعٌ من النحاس، وله ناموسيّةٌ بيضاء شفيفة، فراشُها واسعٌ تقعّر أحدُ جانبَيه حيث مرقدها، وتحدّب النصف الآخر وقد خلَا من الشريك.

لطالما طاردتْ شواهي اتّهاماتٌ بغواية رجال النجع ومعاشرتهم. هي غنجةٌ بالفطرة، لها صوتٌ ناعمٌ يصهر القلوبَ ويسكن المسامع فلا تغيب عنها أصداؤه، خيالها يؤرّق القعود حيثما تمرّ، ورقصها اجتثاثٌ للأحداق والأفئدة من مكامنها. لكن كلّ تلك الاتّهامات كانت باطلة، إذ ظلّت شواهي فتاةً غجريّة حرّة، تعيش كما يحلو لها مُذ هربتْ من قافلتها؛ طفلةً تلاعب أحدُهم بجسدها.

وصفتْ لي الرجلَ فكان طويل الشعر، أسمر البشرة، وفي أنفه حِلَقٌ من فضّة. اقترب منها مخمورًا ذات فجرٍ فضغط حلمتها

بين سبابته وإبهامه، نفرت وقفزت بعيدًا عنه، بينما اكتفت النساء الغجريّات بابتساماتٍ تُبطنّ معانيها. راوَغت الجميع في ذروة انشغالهم بحلّ خيامهم، وتسرَّبت إلى النجع الهادئ لأتلقّفها باكيةً متّسخةَ الملبس والوجه. هل كانت ابنة ستّ سنواتٍ أم ثمانٍ؟ لست واثقة، لكنّ طفولتها مرّت عجولة، فرضخت لفورة الأنثى الكامنة في خلاياها. نما لها نتوءان في موضع صدرها استفزَّا الغجريّ السكّير على ما يبدو، وقاداها إلى مرافقتي منذ ما يربو اليوم على ثلاثين سنة، من دون أن يعود من القوافل أحدٌ ليبحث عنها.

حاولتُ أن أجعل منها مساعِدةً لي كما درّبتني معلّمتي الأولى، لكنّ شواهي اعتادت ألّا تسمع سوى صوتها. رافقتْني على مضضٍ في مناسبات عديدة، وتمارضتْ كثيرًا، شهدتْ معي الطقوسَ وحفظت الأسرار، وتعلّمت ما يجعلها قادرةً على العمل من دوني، لكنّها ظلّت تُطارد سراب حلمٍ مغاير. طبيعتها الغجريّة شبّت بها عن طوق الطاعة لتنطلق في فضاءٍ من التمرد، لتغدو بمرور السنوات -وحدها- قافلةَ غجر، ترقص في الأعراس رسولةً للبهجة والفرح، فيغدق عليها الفرحون مالَهم، ويهدونها الأقمشة والمؤن التي تلبّي حاجتها شهورًا.

استقرّ بها الأمر وهي ابنة خمسة عشر عامًا لتعتّق البلح مستخلصةً منه العرق، وجعلت تشتري الخمورَ من القوافل العابرة. حصلت على بضائعها بثمنٍ بخس، إذ تكفي بسمةٌ واحدةٌ ترسو بمرفإ ثغرها ليسقط السعر إلى أقلّ ما يمكن، وربّما باعتها القوافل القِنانَ

بالخسارة أحيانًا. أدركت شواهي مواطن قوّتها، وباتت تعرف نقاطَ تفوّقها بمجرّد النظر في أعين الرجال، تمنحهم أملًا غير مكتملٍ بوصالٍ محموم، تترك ظلّها من خلفها سرابًا يتراقص أمامَ عيون المريدين، تزرع في رؤوسهم ألف صورة لها بينما تتعرّى وتسلم نفسها لفوهات براكينهم، تتلوّى تحت حممهم وتئنّ، وقبل اللمسة الأولى، تتبخّر الغجريّة كأنّها كانت منذ البدء حلمًا سكبته الخمرُ في رؤوسٍ ثملة.

ظلّت أحلامُها متوالدةً لا تعرف حدودَ الرضا، فهي تحلم بالتحرّر التامّ، وبنسف سياج الألغام، وبانتهاء الحرب، وبفارسٍ يأتيها على صهوة جوادٍ أشهب، من دونه تظلّ عزباء تحوطها حرابُ الشكّ وتنهش ظلَّها نظراتُ الجياع. حين انعزلتْ عنّي وبنى لها دارها بنّاءٌ جوّالٌ جاء من قريةٍ بعيدةٍ لقاء بعض البسمات والضحكات والقليل من العملات المعدنيّة، لم تنقطع عن زيارتي، ظلّت الغجريّة حافظة للجميل، لم تَسقط في سراديب النسيان كعادة البشر، أبقتْ على حبل ودٍّ مشدودٍ بين دارينا، فظلّ الوصال حبلًا سرّيًّا نتبادل عبره الولائم والزيارات والضحكات، تدّخر بحوزتي ما تدّعي أنّه مدّخراتها، وأنا على درايةٍ بأنّها تقصد به معونةً لا تعرف أنّني لست بحاجة إليها.

أتوقّفُ عن الترنّح وقد اتّزنت ركبتاي قليلًا، أعبرُ المساحة الترابيّة بين أطراف الحقول ودار شواهي، أقتربُ من دارها، ثمّ أسمع دبيبًا أصمَّ يلحق بي من مسافةٍ قريبة، صوتًا أشبه بصخرةٍ تسقط وتتدحرج

في اتّجاهي. أحاول أن أهرول، فتُثقل كتفيَّ ثمانون سنةً أحملها عنوة. أحاول التلفّت مستطلعةً مصدرَ الجلبة فأسقط، أشاهدُ غبارًا ثائرًا يتراكم ويتجسّد في الفضاء كشبح، أو كظلال جنود.

أحاول النهوض فأسقط في كلّ مرّة، أزحف كدودةٍ تهرب من طائرٍ جائع، الصوت مرعبٌ والطريق تتّسع فتطيح بدار شواهي إلى ما خلف الأفق، أغمض عينيَّ وأواصل التوجّه ناحيتَها ما بين تعثّرٍ فزحفٍ ونهوض، والصوتُ من خلفي يدور رفقةَ الغبار والظلال، ألامسُ المصطبة المجاورة لباب الدار فأكاد لا أصدّق، بابُ الحانة الأقرب إليَّ مفتوح، ألقي جسدي داخلها، وصوت لهاثي يكاد يعلو على صوت مطاردي الخفيّ، أيكون التمثال اللعين؟ لا شيء يصدر الجلبة ويثيرُ الغبار سوى جسمٍ ضخمٍ كالتمثال الجوّال.

لو صح ظنّي، فأنا لا أعرف غايتَه مِن مطاردتي، فما أنا بصبيّةٍ يبتغي معاشرتها، ولا صبيّ تأخّر عن داره. لماذا لم يطارد الصِّبْيَة الذين فضحوا سرّي منذ ساعة؟ لماذا يقصدني أنا؟ أهو وسيلة العقاب التي أستحقّها؟ كيف سيقتلني إذَن؟ هل يجثم عليَّ فيسحقني، أم يتركني للموت رعبًا؟

هل أخاف الموت؟ أم تُراني تحت قدمي التمثال أتوسّل الحياة وعفوًا صعب المنال؟ وفيم حاجتي إلى العفو وأنا رسولة البهجة والسكينة؟ وممن أطلبه؟ من الناس أم من الله؟ أم من الصخرة الجوّالة في أدمغة الخائفين؟

جنّ عليّ اللّيل، فانتقص الخوف من رصيد الطمأنينة، ورحتُ أقطع على نفسي وعودًا أنفّذها إذا نجوت؛ سأدفع ديَّةً عن كلّ طفلٍ معيبٍ خارت بين كفيَّ أنفاسُه الأولى، سأوقد الشمعَ عند ضريح الشيخ جعفر، سأهجّ من النجع برمّته بعد ذلك، سأدعس الألغام بقدمَين حافيتَين لا تعرفان الخوف. لو نجّاني الله ممّن يطاردني فحسب.

تهدأ أنفاسي ولا تهدأ الجلبة خارج الحانة، تقترب وتبتعد في مراوغاتٍ يُراد بها الفزع، لكنّي أستردُّ الأنفاس برويّةٍ بعدما وقَر في قلبي أنّي لا أخاف الموت! تبدّلت أفكاري بغتة، وهجٌ فُجائيٌّ مسَّ عقلي، ونَقَر في جداره كوّةً طالعتُ عبرَها عوالم تتشكّل من صفوٍ وسكون. فطنتُ إلى أنّ الموت لا يخيف. حتمًا سيموت الناس جميعًا، فلا محلّ لدهشةٍ ولا مجال لتفسير، لا خبر يُذاع بين الناس أصدق من خبر الوفاة، فممَّ يكون الخوف؟

الوحدة هي الخوف الأعظم في نجعٍ موبوءٍ يراقب خطواتي ويُحصي أنفاسي. أستجوبُ روحي المُنهَكة، فأدرك أنّي، وإن كنت لا أخشى الموت، أصبو إلى ميتةٍ هادئة، أريد أن تتسرّب آخر أنفاسي وأنا مُحاطةٌ بالأحبّة، أن أعيش طويلًا في صورةٍ أبدو فيها راضيةً داخلَ برواز خشبيّ. لا أستحقّ الموتَ وحيدةً أسفلَ تمثالٍ أو فوق لغم. فوداد التي عاشت فألَ فرحٍ وابتهاجٍ في أغلب النجوع والقرى تستحقُّ ميتةً هانئةً في فراشٍ دافئٍ بينما تحرسُها ظلال المحبّين. لا ينبغي على الأقدار أن تكتب لها نهايةَ جرذٍ مذعورٍ كهذه!

يتوقّف الدبيبُ وهلةً، أخرجُ من الحانة، أتّجه بأقصى سرعةٍ يسمح بها جسدي نحو باب الدار، أطرقُ الباب كثيرًا، أرمي جسدي فوقَه فينفتح. شواهي في الدار لا ريب، أصعدُ السلّم على أربعٍ وقد لمحتُ قبسَ نور، ألاحظ أنّ جوال الخيش الذي حوى كلَّ ما أملك قد سقط خلال المطاردة، إلّا أنّ مدّخراتي ظلّت مربوطةً حول خصري لحسن الحظ.

فراش شواهي فارغ، أرتَمي فوقه، أتدثّرُ بأغطيتها بينما صوت الدبيب يعود فوق سطح الدار هذه المرّة. تتسارعُ ضربات القلب، أسترجع مشاهدَ كثيرةً من حياةٍ عشتُها في الزمن الأخضر. ذبالة لمبة الجاز تخبو تدريجيًّا، الدبيب يرتفع، والسقف يرتجّ، أسبلُ عينيَّ بحثًا عن خيالٍ يزيح رعبَ اللّحظة، أتصوّرني ضخمةً كتمثال الزعيم، أطير في الهواء وأمسكُ بالحجر الضخم الساقط من رحم السماء، أكتمُ أنفاسَ الحجر وقد جاء معيبًا حمّال شرور، ثمّ ألقي به خارج سياج الألغام. أشاهد دُورَ النجع النائمة من علٍ، أدور بينها منتشيةً بإنقاذها من الوباء الذي جلبه الحجر، وأرفع وجهي نحو الله باسمةً، لأطلب منه أن يلتقط لي صورةً! يأتيني صوت القطار من أقاصي الصحراء، يُطربني صخبُه، فأتوقّف فوق داري أبحث عن خيط دخانه، فأجد الصبيةَ المخمورين لا يزالون يحملقون في جدران الطين. ويقول أحد الصلع بصوتٍ متقطّع يتحرّى الحقيقة:

«تلك دار المرأة التي قتلتْ ابن شيخ النجع».

عاشق ليالي الصبر مدّاح القمر
عشق العيون السمر غواني السهر
لولا النهار فِ جبينك... لولا الورود فِ خدودك
لولا الأمان فِ وجودك... ما كنت هويت ولا حبّيت،
ولا حسّيت بطعم الحبّ يا عمري



عبد الحليم حافظ
كلمات: محمد حمزة
لحن: بليغ حمدي

الجلسة الرابعة

عاكف الكلاف

استيقظتُ والنهار يشقُّ الظلمة. تحسّستُ الحصاة المستقرّة فوق كتفيَّ، ورحتُ أراقب الحياة بنظراتٍ شاردةٍ أختلسُها عبر كسرٍ قديمٍ في الشيش. الكون يتمخّض عن يومٍ جديدٍ لن يأتي بجديد، بضعة أنفارٍ يتسرّبون من مسجد النجع، وحكيم ابن الخوجة يوزّع جريدةَ «صوت الحرب» على الدور النائمة، ورقةٌ واحدةٌ يلفّها حول نفسها كالقرطاس ويضعها على العتبات والمصاطب بعدما يثبّتها بحجر.

ألفيت الصبيَّ ذات مرّةٍ يركض عابرًا الطريق أمام عربتي فاستوقفتُه، حاولتُ أن أعيد إليه الجريدة التي تخلّف مطالعةُ صورِها غُمّةً تحطّ على صدر أمّ سلامة. هزّ رأسه، فطلبتُ منه أن يتوقّف عن جلبها، فطفق يتصفّح بعينيه البيوتَ والأشجار والسماء، ثمّ واصل الركض في اتّجاهٍ غير محدد. استنتجتُ أنّ مطلبي غير جائز. الجريدة إذَن قدرٌ ومصيرٌ لا مفرَّ منه ولا سبيل إلى اجتنابه، تمامًا كالحرب.

بقيتُ جالسًا على مصطبتي أقلّب الجريدة بين يديَّ، بينما أتأهّب لتحميل عربتي والمضيّ إلى دكّانة الخوجة كالعادة. الصور باهتةٌ: الزعيم في زيّه الحربيّ، مزنّرٌ بسلاحه، يشدُّ من أزر الجنود على الجبهة. هي حربٌ واحدةٌ وليس بالإمكان أن يلتقطوا كلَّ يومٍ صورًا

جديدةً على أيّ حال. ثمّ ماذا عسانا أن نفعل بصور الجنود وقد اعتلوا دبّابات العدوّ وأحاطوا بسيّاراته الحربيّة واستعرضوا طوابير الأسرى المشعثي الشعور؟

لا يهمّ الناسَ سوى البحث عن وجوه أبنائهم في الصور. يفتّشون عن دليلٍ يثبتُ أنّ أبناءهم لم يُسلموا أرواحهم لطاحونة الحرب بعد، وأغلبهم ينشد منفذًا للخروج من النجع، خصوصًا منذ شقّ الضوء السماء فأسقطتْ أحمالها، وإن كنتُ أثق أنّ الناس إذا خمدتْ طبولُ الحرب ونُسِف حزام الألغام سيبقون في دورهم لا يبرحونها. هم يتوقون فحسْب إلى الشعور بأنّ الرحيل متاحٌ والسفر مباح. فسيرة الجدود حاضرةٌ في الخلايا، تُحيي رغبات الارتحال على الرغم من الرضاء الظاهر بوطنٍ لا يرتجّ فوق ظهور الجمال.

فكّرتُ مسبَّقًا في حفر نفقٍ يمرُّ أسفلَ النجع ويُفضي إلى ما وراء الألغام، حكيتُ عن الأمر لمحجوب النجّار فبدا متحمّسًا، ولا سيّما أنّ امرأته العاقر منذ سنوات قد تفجّرت في جسدها معجزةٌ سماويّةٌ ضجّت لها القريةُ منذ شهور، وها هي توشك على وضع جنينه الأوّل، بعدما تبخّرت الخالة وداد، ولم يبقَ منها سوى سيرةٍ ملتبسةٍ ودارٍ مهجورةٍ وحكاياتٍ مخيفة.

يريد الرجل الهروبَ بزوجته إلى أيّ قريةٍ أو نجعٍ قريبٍ يعثر في ربوعه على داية تقوم بالمطلوب. لكنَّ حماسته سرعانَ ما خفتتْ، فعاد إلى حالته الأولى، يكاد يحفر الأرضَ بحثًا عن وداد. يدور

كالمجاذيب طوالَ النهار، حتّى إذا جاء اللّيل ركن إلى داره، واختفى عن الأنظار...

أعرضتُ عن القيام بالأمر منفردًا، فداري تشرف على المسجد، وفي ظهرها جارٌ توقّف عن إلقاء السلام، والجبّانةُ قريبة. لم تكن لي حيلةٌ للحفر أسفل الترعة، خصوصًا وقد بتُّ أتفادى المرورَ على مقربة منها منذ اكتشفتُ جثّة زكريا النسّاج، فلعلّ في ثناياها قتلى آخرين، وكذلك لم يكن من الجائز الحفر أسفل رفات الراقدين في الجبّانة وإقلاق أرواحهم. خشيتُ أن أضلّ الاتّجاهات في دمس النفق فأجد نفسي أسفل أطلال النجع القديم. كنتُ إذَن محاطًا بالمخاوف: الترعة وقتيلها، النجع القديم والحكايات عن الأنين في الليالي التي يطلّ فيها القمر بدرًا، والجبّانة التي لا تنقصها الحكايات.

كان النفق خاطرةً مخيفةٍ لا تصدر إلا عن متمرّدٍ أو مجنون، لكنّي لم أكن يومًا هذا ولا ذاك، كلّ ما في الأمر أنّي كنتُ قلِقًا بشأن المواشي، واستحالة استقدام طبيبٍ بيطريٍّ في مثل هذا الوضع.

نَفقَ زوجٌ من الجواميس منذ بداية السنة، وها هي بقرةٌ أخرى مريضة، الخِراف لا تنطُّ على نعاجها، والتناسُل في تراجعٍ ملحوظ، الغربان تسرق البسمات الشاحبة من أفواهنا، الجوارح تُحلّق فوق الزريبة متأهّبةً لانقضاضٍ قريبٍ على بهيمةٍ نافقة، والبوم يقف على السقيفة في المساء مشهرًا رايات الشؤم.

أتذكّر البهائم النافقة، والنوق التي استبدَّ بها الضجر إثر توقّف الرعي عقب الحصار ففرّت. قال الخوجة إنّ الجنود ميّزوا أشلاءها

قرب أطراف النجع حذوَ الأرض المزروعة بالنار، وقلتُ آنذاك إنّ أحدًا لم يسمع دويَّ انفجار اللغم، فأجاب الخوجة أنّ لبعض الألغام دويًّا مكتومًا لا يبلغ النجع. بقيتُ أهدهد الأمل بعودة النوق كلَّ ليلة، تنساب في أذنيَّ أصداء حنينها ورغائها. أُسرةٌ قوامها جملٌ وناقةٌ وحُوارٌ هجَّت من النجع والناسُ في أَسْرِهم مصفَّدون. ضاقت صدورها بهواء ديارنا فارتحلت لترعى تحت شمس لا تحدّها الألغام...

لجأتُ إلى الشيخ جعفر في أيّامه الأخيرة، مسَّدَ رأسي وقرأ أورادَه، فما عادت الجمالُ وما هدأ الضجيج في رأسي. حتّى الخالة وداد أعرضتْ عن مساعدتي منكرةً علاقتها بجلب الغائب وردّ المحبوب. فهل بمقدوري أن أحفر نفقًا يغورُ في جوف الأرض ويجعل في جنباته متّسعًا لعبور المواشي والجمال لو عادت؟

تلوح لي دار النجّار في الطرف الآخر من النجع، تبدو أكثر ملاءمةً لفكرة النفق، إذ تنتصبُ وحيدةً من دون جار. يبدو الحفر في خطٍّ موازٍ للترعة حتّى اجتياز منطقة الألغام، ومن قبلها دار الخوجة، ممكنًا، لكنّ العزيمة في أمسّ الحاجة إلى ما يشحذها. التفّت الهواجس حولَ الرؤوس تعصرها كالحيّة حتّى طُمِست الفكرة، واستحالت أقرب لتخاريف السكارى.

والخوجة مقتنعٌ أنّ ما يمدّني به من عقاقير كافٍ لشفاء البهائم. أُقسِمُ له كلَّ يومٍ أنّ العقاقير لا تأتي بجديد، وأنّ الأمر يستلزم استقدام بيطريٍّ من أيّ قرية قريبة، ليس عليه سوى التوسّط لدى

زوّاره الذين يستضيفهم في داره. سأعرّج اليوم على دكّانته كأغلب الصباحات، أبتاعُ العلفَ والشعير، والذرةَ والأرز، ونخالةَ القمح، وأبيعه أقساطَ الحليب الصابح، وكُلّي أملٌ أن أحظى بمساحة وقتٍ إضافيّةٍ أرجوه فيها -مجدّدًا- أن يمنحني وساطةً تكفل الإتيان ببيطريّ.

وجدتُ الناسَ في الطابور الطويل يلوكون حكاية الأمس، وما شاع عن نبإ العجوز وداد التي قَتلتْ صبيًّا للشيخ أيّوب منذ زمن. اختلفَ الناس بين قتلها الرضيعَ خنقًا، ووأدها إيّاه حيًّا. قال بعضهم إنّها تستخدم أجساد الرضَّع المقتولين في السحر، وهمس المتوترون أنّ الوباء الذي حلّ بالنجع من صنيعها. ثمّ أفتى واحدٌ منهم أنّ السحر تحقّق حين أكملت وداد قتلَ خمسين رضيعًا. وطالبَ الناس بنَبْشِ القبور والبحث عن رفات الرُضّع. استنكرت الأغلبيّة مطلب الرجل، وتبادلنا جميعًا نظرات شكّ باتت معتادة، ثمّة شخصٌ يُضمر الشرّ للآخر ولا ريب، كلّ شخص في الطابور عدوٌّ محتَمَل، وجميعُنا ضحاياه، وكلّ ما في الأمر أنّنا لا نعرف هويّته. هكذا استقرّت عقولنا على اجتناب الغير درءًا لأيّ ضررٍ محتمل.

وكنتُ بخلاف الأغلبيّة غيرَ منشغلٍ بجرائم القابلة، بقدر ما أنا مُحمَّلٌ بهموم الخلاص، يتملّكني الغضبُ كلّما عاينتُ البقرة المريضة التي جفّ ضرعُها ونَحَلت حتّى أمست شبيهةً بالحمار، لم تقدر اليوم على الوقوف، فوضعت لها علفَها وتركتُها محزونًا.

ودّعتُ زوجتي بعدما أعانتْني على رصّ الأقساط فوقَ عربةٍ يجرّها الحمار. ربَّتتْ عنقَه، فاستكانَ لها. طُفتُ بين الدور التي راحت نوافذها تشرع واحدةً تلو أخرى. النساء يصنعن صوت الصباح بنشاطهنّ فوق الأسطح وفي الزرائب وأمام الدور، فيصحو كلّ شيءٍ من رقاده، يُطعمن الدواجن والبهائم ويجهّزن الطحين للخبيز.

الطريق من الدار إلى دكّان الخوجة محفورةٌ في رأسي منذ عشر سنوات. بمقدوري أن أغمضَ عينيَّ تاركًا للحمار زمامَ السير، متخيّلًا كلَّ ما أمرّ به مع كلّ انعطافٍ وصعود أو هبوط، رسوم الكعبة الشريفة والجِمال الملوَّنة على جدران الدور، تبريكات الحجّ المبرور وتمنّيات الذنب المغفور، الأطباق الخزفيّة التي كانت يومًا زاهية اللون، العواميد السوداء ولمبات الكيروسين، وصور الزعيم المثبّتة على العواميد. أفتح عينيَّ في أيّ لحظةٍ فأجدني تمامًا حيث صوّر الخيالُ خلفَ العينَين المغمضتَين.

ألتفتُ مُطالعًا آثارَ العربة على التراب المخضّب بالروث وسقط الحمول العابرة. أميِّز المكانَ بالروائح، للدار رائحةُ أمّ سلامة الأشبه بماء الورد. الزرائب تفوح بروائح الطفولة، فضلات البهائم وأكوام التبن والعلف وأقراص جلّة تجفّفها أمّ سلامة على السقيفة، المسك يفوح من دار الشيخ أيّوب، وعبق الخبيز يعوم فوق ذلك كلّه، حاملًا مزيجًا من رائحة الطحين وشيِّ المطارح الخشبيّة. إن عرّج الحمار بالعربة تجاه دار النسّاج المغلَقَة التقط أنفي رائحة خزين القطن، وإن شرد فبلغ الجبّانة القريبة من الدار فعبق الموت المخيّم

على القبور ينبّهني بروائح أكفان الراحلين، وكذا الحال برائحة التمر المخمَّر والعرق في دار شواهي. الروائح لا تفنى ولا تموت، وما أيسرَ تتبُّعَها، خصوصًا حين يُغرق العرق عيونًا زالت حواجبها.

أمرُّ في الطريق مسترجعًا الحكايات، فألاحظ أنّها باتتْ مكرَّرَة، والألفاظ معادة، والنبرات ما عادت تنطوي سوى على الشكّ والحذر. كلّ شيءٍ يُعَاد في المواقيت ذاتها، حتّى حين يتجدّد الصباح بخبرٍ مثل خبر الخالة وداد وقتلها للرضّع، فسرعان ما يعود كلُّ شيءٍ إلى حالته الأولى. الناس كأنّهم يبيتُون في توابيت مغلقة، يصبحون ليفعلَ كلٌّ منهم ما أُمليَ عليه قبل أن يسارع بالعودة إلى تابوته عقبَ المغيب!

تُشعَل الكوانين وتقعد كلّ امرأةٍ أمام كانونها بساقَين مفتوحتين، لعلّ النار تطرد الخمول من أجسادهنّ الباردة. هكذا اعتاد الناس أن يهمسوا في الطابور أمامَ دكّانة الخوجة، ولم أكن أنا استثناءً، فالوباء ما انفكّ يبذرُ القلقَ والشكّ بين رجلٍ وامرأته، وبين صبيّة وأمّها. الرجال باتوا يهجّون إلى الحُصر المفروشة قبالةَ المصاطب وفوق الأسطح بحثًا عن طراوةٍ ضاقت عنها جدران البيت، والنساء حلّت عليهنَّ حالةٌ من الكآبة وقد أصبحن من دون شعورهنّ التي عشنَ يتباهين بجدلها.

ما عادت امرأةٌ تستثير زوجَها، وما أصبح رجلٌ يرى في زوجته آيةً من آيات الجمال. قال أحدهم إنّ النساء صرنَ أشبه بالرجال في مظهرهنّ وطبائعهنّ، إذ بتن سريعات الغضب قليلات الصبر.

ولَعَنَهُنّ آخر وهو يبصق امتعاضًا إذ نقلت له امرأتُه ما سمعته من جارتها، قالت إنّ فحولةَ الرجال ما عادت تُقَارَن بفحولة تُروى عن التمثال المتجوّل.

حمدتُ الله على حصافة زوجتي وحكمتها في أوقاتٍ عصيبةٍ كتلك التي تلفّ بيوت النجع، إذ ظلّت ملتحفةً بصمتٍ يكتم شكواها، تحتضن الولدين والبنت، وتصلّي تضرّعًا إلى الله، فتدعو بزوال الوباء ومباركةٍ من الله في رجلها والعيال والبهائم، وتبكي وهي تدعوه أن يوقف الحربَ قبل أن يبلغ سلامة سنّ القتال.

كانت محقّةً في خوفها، فسلامة اليوم في الثالثة عشرة، وبعد سنواتٍ ثلاث ستأتي العربة المموّهة ويتسلّم سائقوها كشوفَ الأعمار من خليل الخوجة، وعندئذٍ سنودِّع سلامة كما ودّع الآخرون أبناءهم بلا رجعة، فما من شابٍّ خرج للحرب وعاد إلى النجع منذ ما يزيد على عشر سنوات. منذ نصر 67 لم يعد أحد! الرجال يفقدون عقولَهم والنسوةُ يُنجِبْن المزيدَ من الصبية خشيةَ فقدان الأبناء على الجبهة، وأمّ سلامة تحصي الأيّام وتصرّ على أن يقرأ لها أيّ قارئٍ جريدةَ «صوتِ الحرب»، وتسأل: هل ذكر أحدهم خبرًا عن توقّف الحرب؟

تركتُ نوح النحّال صباحَ اليوم يقرأ لها الجريدة من وراء باب الدار. مضيتُ بعربتي والنحّالُ يتلفّت حولَه في قلقٍ معتاد. كنتُ أعرف أنّ الوقوف في الطابور سيطول. قبل الظهيرة تتكدّس طوابير البيع وتتعطّل إثرَ حساب المخصوم لحساب المجهود الحربيّ

وضبط الأرصدة. وبعد صلاة الظهر تبدأ حركة الشراء حتّى آذان المغرب. حرصتُ على الذهاب مبكّرًا، وها أنا على الرغم من ذلك مصلوبٌ في الطابور اللعين ذاته. تذكّرت أمّ سلامة وهي تُجلِس سلمى وسليم على فخذَيها وراء الباب، وتستجدي النحّالَ أن يقرأ لها بوتيرةٍ أقلّ تسارعًا.

تذكّرتُ بضعة عناوين نطق بها النحّال بشأن المزيد من التقهقر لقوّات العدوّ، وعن الشيطان الأمريكيّ الذي يمنع القضاءَ الكامل على جيش اليهود عبرَ توفير المواقع وإمداده بذخيرةٍ تُطيل أمدَ الحرب. لقد حرّر جيشُنا أغلب أراضي فلسطين، لكنّ اليهود نجحوا بعد نصر 67 -بمعونة الأمريكان- في استيطان مواقعَ احتلّوها في الجولان والضفّة الغربيّة، وتسنّى لهم بطريقةٍ مّا أن يحافظوا على كيانهم بوصفهم دولةً تعيش تحت حماية الغرب.

لم أفهم أغلبيّة المصطلحات عن الخطط الطويلة الأمد والمناورات العسكريّة، والاستراتيجيّات الحربيّة، لكنّي كنت أثق أنّ الزعيم عبد الناصر، الذي ذكره الله في كتابه الكريم، لن يتوقّف قبل أن يمحو اليهودَ من فوق الأرض، ولن يحصل على راحة قبل أن يُبيدَ دولة إسرائيل، أو يلقِ بها في البحر، فلا يعود لها وجود، لذلك لا أخشى انضمامَ سلامة إلى الجيش، لستُ مرعوبًا كأمّ سلامة على الأقلّ...

فطرتي تخاف على الصبيّ الأكبر من بين ثلاثة مواليد جاءت بهم الخالة وداد من بطن أمّ سلامة، وعقلي يؤمن أنّ معركتَنا رابحةٌ بكلّ

تأكيد، فالخطر محدود، وقيادتنا حكيمة، والأمر مسألة وقتٍ وإن طالت الآماد.

شردتُ في حكاية القابلة، فغزتني شكوك: هل وأدتْ وداد توأمًا وضعته أمّ سلامة ولم تُعلمنا بوجوده؟ أرزقتُ بطفلٍ لم أسمع به؟ بدا بطن أمّ سلامة كبيرًا قبل أن تأتي بثاني المواليد، سلمى، فهل جاء أخٌ لسلمى ونالت منه وداد بغية إتمام سحرها؟ ألم تقل الخالة وداد إنّ قطًّا يتجسّد في أحد التوائم حين تضع المرأة طفلَين، ليجول بين الطرقات تحت ستر اللّيل، كاشفًا خبايا الناس ومُطَّلِعًا على خفاياهم؟ أيكون لسلمى أخٌ يتمسّح بين قدميَّ قطًّا من دون أن أدري؟! لطالما تتبّعتِ القططُ ظِلَّ الخالة وداد واقتفت أثرها. عشرات القطط تسكن دارها وتلتجئ إليها في مواسم المطر، فهل تكون قططها توائم مسحورة؟

نفضتُ رأسي وقد أغرق العرقُ صلعتي فبلّل رقبتي وظهري ونالَ ملحه من عينيّ. رحتُ أحرّك الجلبابَ من حول رقبتي مُستجديًا الهواء أن يمرّ خلاله. طال الطابور فكثرت الشكوك كما هي العادة. جئتُ أفكّر في كيفيّة إقناع خليل الخوجة باستقدام طبيبٍ بيطريّ، وها أنا أشكُّ أنّ لي ولدًا مقتولًا أخفت عنّي وداد خبره، ويدور في عقلي أنّ قطًّا يسكن دار الخالة وداد ربّما يكون من صُلبي، فبأيّ سرعةٍ ينتشر هذا الوباء بين الناس!

الطقسُ خانقٌ ونسيمُ الهواء شحيحٌ على غير عادة الربيع، أعدّ سبع عربات أمامي، وعشرًا من ورائي، روائحُها تفوح بالزرع

والعرق. أبصرتُ الخوجة داخل الدكّان، ورأيتُ ولدَه الأخرس يحمل البضائع ويصفّها حذو الدكّان، قبل أن يأتي ببضائع أخرى ويسلّمها إلى الناس. كلّ شيءٍ موجودٌ لدى الخوجة: الأجبان والتوابل والزرع والطحين والتبن والعلف والسجائر ومستلزمات الخياطة وأدوات الصيانة والعقاقير الطبّيّة، حتّى الحشيش والأفيون!

أتابع استعراضَ المعروض من البضائع، فأرى الفؤوسَ والمعاول والجواريف والمكانس، وبعض الأقمشة التي ظهرت في دكّان الخوجة عقب مقتل النسّاج، وصورًا ملوّنةً للزعيم. كلّ ذلك المعروض وغيره يرتصّ بعرض الحائط الطينيّ في توالٍ وانسجام، تصبغُه أشعّة الشمس بالتماعٍ يجذب أنظارَ الواقفين.

أدور برأسي المبلّل بين الوجوه، وأمدّ عنقي متحرّيًا الشخوص، لم يغب وجهٌ عن الطابور منذ سنوات، وحدَه النسّاج لم يقف يومًا في الطابور، وهو الآن ميّتٌ لا يفتقد الطابور حضوره.

صحتُ في الوقوف أن يسرعُوا، فبحوزتي لبنٌ صابحٌ قد ينال منه القيظُ فيفسده. رفع الخوجة رأسَه مُطالبًا بالمزيد من الصبر، أعرف أنّ ما يعوق حركة الطابور ويطيل الانتظارَ هو ضبط الحسابات. حسبتُ حسبتي توفيرًا للوقت، بينما لمحتُ النحّالَ يمرُّ على مبعدة منّي، يسبُّ الحربَ والخوجة.

أتساءل كثيرًا: أيّ عالمٍ يقبع خلفَ الرمال؟ أيّ حياة، وأيّ لغة؟ كيف أصبحت أسيوطُ، والمنيا، وسوهاج، وملوي؟ أما زالت القطاراتُ تمرّ في محطّاتها ومواعيدها المعلومة؟ لم نعد نسمع صافرةَ

القطار منذ سنوات، كأنّه غيّر مسارَه ليتفادى المرورَ حذو النجع. لا شكّ أنّه يدور بين قرًى أخرى، فلا يمكن أن يكون قد أُرسل هو أيضًا إلى الجبهة! قال بعضهم إنّ صافرةَ القطار معطّلة، لكنّ النحّال قال إنّ القضبانَ تسيّر عشرات القطارات بين البلاد، وإنّ ضجيج القطار انطفأ هو أيضًا بحكم اعتياد سماعه. تداعبُ الخيالَ صورٌ للبلاد التي يتوقّف بها قطارنا الغائب، تبدو دورُها عالية، وجدرانها تشرّبت من الألوان ما يسرّ البصر، الناس باسمون، ولا شكّ في أنّ لديهم وحداتٍ صحّيّةً بيطريّةً تُنقِذ بقرةً تفوح منها رائحة الوداع.

أيعود المقاتلون إلى ذويهم خارجَ حدود النجع؟ أم تطحن رحى الحرب الأرواحَ والآمالَ والوعود كما هي حال أرضنا هذه؟ هل نحن حقًّا جديرون بحمايةٍ تلتفّ حول رقابنا لتحجبنا عن أنظار العدوّ؟ وهل الناس خارج النجع هم المأسورون؟ هل نحن الأكثر حظًّا وقد شُمِلنا بالحماية عبر سياجٍ من نار؟ لماذا إذَن نتوق إلى القفز فوق هذه الألغام بالذات؟ هل يُرَاد بنا الاستواء تحت ظلٍّ واحدٍ تحدّده الحكومة فيحترق كلّ من يجرؤ على ترك مساحة الأمان المخصّصة له؟ ما الذي يمنع الحكومة من إرسال قابلةٍ لزوجة محجوب الذي عاش عقدَين يتأهّب لملاقاة مولودٍ ظنّه غرسًا في الهواء؟ وفيمَ تتأثر الحرب لو أوفدوا إليَّ بيطريًّا يراجع حالة المواشي؟ ألا يكفي الناسَ أن حُرِموا من وجود طبيبٍ بشريٍّ يعالج الشيوخ والأطفال؟ لماذا ترتضي الدولة أنْ يعيش في ربوعها بشرٌ حُرموا العلاج وتساووا مع الدوابّ في استلاب الحقوق؟

كلّ شيءٍ يمرُّ من خلال الخوجة، هو كعبةُ النجع التي نحجُّ إليها. بشرٌ ملعونون صُفِّدوا في قيودهم وأُجبِروا على الطواف حول بيتٍ لا يسكنه الله. كلّ أسباب استمرار الحياة لدى خليل الخوجة، المؤن والعقاقير والأخبار، سجلّات الموت والوفاة ملكُ يمينه. الخطابات تصل إليه وترسل من خلاله، هو محطّة السكّة الحديد التي لم يرَها الناس، هو الميناء الذي يُبحر بأبنائهم إلى فراغٍ لا نهائيّ، هو المرفأ لقوارب النجّار المهملة، هو المطار الذي تنطلق منه الطائرات للإغارة على مواقع العدوّ، هو القطار الذي فقد صافرته، هو صاحب العربة الزرقاء المعطوبة، وهو من يملك إصلاحَها إذا ما شاء.

والناس في نجعنا ما بين ناقمٍ وخائفٍ وراضخ، كلّ ما يفعلونه هو أنّهم يواصلون الطوافَ حول كعبته.

لم أطمع يومًا في نَيل مكانته، ولا أحمِّله المسؤوليّة كما يقول النحّال، فالرجل ربّما أُرغم على تولّي مقاليد الأمور، وهو في حقيقة الأمر لا يستفيد ممّا أُوكِل إليه، كلّ الأسئلة يجب أن تصبّ في النهاية فوق رأس الحكومة المتخفّية خلف أستار الحرب، الخوجة لا يستحقّ العداء، فهو مجرّد أداة سلطة، أو واجهة، مجرّد لافتةٍ توضع على ناصية متجرٍ عتيق، تعلن عن وجود مندوبٍ للدولة خلفَ هذه الجدران، لذلك أنا لا أكرهه، بل إنّي أشفقتُ عليه من هجوم النحّال الضاري، تمامًا كما حزن لأجله أغلب الرجال الذين شهدوا الواقعة.

منذ سنوات الصبا لم أعادِ أحدًا، حفظتُ سيرةَ أبي وهيبتَه بوصفه أهمَّ راعٍ في صحاري الجنوب، وأكثرهم أمانةً ورحمة، ومثله

لم أكُ يومًا ممّن ينشغلون بأمور الغير. لم أستسغ يومًا الخوضَ في أصل الخوجة ونسبه، لم أتتبّع المرويّات عن مسقط رأسه والحكايات المخزية التي قادتْه إلى النجع، تمامًا كما لم أكن يومًا من نـهّاشي الأعراض فلم أهتمّ بسيرة امرأته الهاربة مع سرّها. ربّما نسيت أمر هروبها حتّى بتُّ أتفاجأ بالحكاية كلّما وردتْ على ألسنة المقيمين في الطابور. لم أفهم لمَ هربت المرأة، فكل الحكايات لا ترتكز على شاهد عيان. لم أعِ كيفيّة إفلاتها من حزام النار، ولم أهتمّ لأعرف. فلستُ أرى الخوجة سوى بوقٍ تنفث عبره الحكومة أخبارَها وتذيع تطوّرات حربٍ تأبى أن تَضع أوزارها، ينفّذ التعليمات ليس إلّا. لذا لا أكره الخوجة، وأثق أنّ الزعيم عبد الناصر لا يعرف ما نعيشه اليوم. حاولتُ أن أكره الزعيم أكثر من مرّةٍ، لكنّي لم أستطع.

لا ناقة لي في شؤون الدولة، لكنّ لي جِمالًا تسرح في براحٍ قريب. لا حاجة بي إلى علاقةٍ وثيقةٍ مع الدولة، ولا دافع إلى شراء عداواتٍ مجّانيّةٍ لن تغيّر الوقائع ولن تستبدل بالأمور أمورًا، لكنّي مسؤولٌ عن رعيّةٍ كلّفتني السماءُ بحمايتها.

كان النفق هو الحلّ الأقدر على إجابة كلّ التساؤلات وزفر الكرب خارجَ النجع، لكنّ الهمّة بين الناس مبتورة، وخواطري سرعان ما تذوب بين لغط الناس. عقلي مشطورٌ بين ادّعاء عدم القلق على مصير سلامة، والقلق المستمرّ على مواشٍ نقتات من خيراتها.

- لم تعد لديَّ القوّة اللّازمة يا عاكف، فكلانا جاوز الأربعين...

- نحن ثلاثة يا محجوب، لا تنسَ سلامة...

- ولو كنّا خمسة رجالٍ يا عاكف، أو عشرة، سيستغرق الأمر شهورًا من الكدّ...

- لكنّه يستحقّ، وبعد التعب مُستراحٌ بمشيئة الله...

- كأنّك تعرف ما ينتظرنا ونحن نجهل ما سيفضي بنا إليه النفق!

- حتّى لو قادَنا النفق إلى أرضٍ تعيش فيها الغيلان... فكّر في ولدك القادم، فكّر في سلامة الذي قد يفارقني قبل أن أحاول إنقاذه...

- سيأتي ولدي سليمًا معافى يا عاكف، وسيخلق جنّة الله في أرضنَا، هو ابن المعجزة، وفور أن يطلق صرخته الأولى سيعود كلّ شيءٍ كما كان...

وقَرَ في يقيني أنّ النجّارَ يفقد عقلَه توازيًا مع اقتراب ولادة صبيّه، وعلى ذلك لم أجد بديلًا عن تكرار المحاولة، ودفعِه إلى حفر النفق. هو عنيدٌ لكنّه طيّب، عليه أن يتوقّف عن كلّ أشغاله من أجل ذلك الحلم، لن تنفعه الكراسي والأبواب والأرائك، كما لن تنفعه القوارب التي يشيّدها خلف داره ما لم يرتحل بعيدًا عن النجع. لا أحد يعرف السرَّ وراء هوسه بصنع القوارب، يسخر منه البعض فيقولون إنّه ينتظر الطوفان، أمّا أنا فلم أشأ أن أعرف، لكنّ النجار أخذَ يصرّ على تبرير وجودها في مرفئه الوهميّ...

- صنع البشر القوارب حين اكتشفوا البحر، أليس كذلك؟

- أكيد...

- إذَن، لو صفّفتُ القوارب وجهّزتها للإبحار، حتمًا سيجد البحرُ طريقه إليها!

- أفي انتظار البحر أملٌ أكبر من شقّ الأرض يا محجوب؟ أين ذهبت معجزات ولدك إذَن؟

ويضحك حتّى يتناثر لعابُه وتفوح منه رائحة نشارة الخشب:

- كم أنت ساذج يا عاكف، سيكون الطوفان أوّل المعجزات، وسأنجو معه، ولا تنسَ؛ لن يمسّ قواربي كلٌّ من سخر منها!

أغضبُ منه، لكنّ خصامنا أشبه بجَزرٍ يسبق المدّ، سأقنعه ذات يومٍ لا ريب، وسأعاونه في حفر النفق، وسيساعدنا سلامة، سنفرّ من هذا الحصار، وسنجنّب سلامة ملاقاة الحرب، سأهرب مع النجّار وعائلتَينا، وسنجعل النفقَ عظيمًا لكي تعبره المواشي، وليحمل النجّار معه قواربه إذا شاء. صحيح أنّنا لا نعرف ما قد نجدُه خلفَ حزام الألغام، لكنّ البهائم ستطيل أمدَ الانتظار وتؤمّن استمرار الحياة، لن نهرب إلى الأبد، سنطهّر صدورَنا من أرق الحرب ونعود. لا دار لنا ولا مستقرَّ خارج نجع المناسي.

- - ماذا لديك يا عاكف؟ المعتاد؟

جاءني صوت الخوجة الأجشّ وقد شارفتُ على بلوغه، عربةٌ واحدةٌ باتت تفصلني عنه، وحكيم يرصّ بضائعها أمام الدكّان، أناخ حمار العربة فانتظرتُ حتّى تنتهي أعمال النقل والرصّ.

انقبضَ صدري وقد تصوّرتُ حالَ الجنود على الجبهة في مثل هذا الطقس. فكّرتُ أنّ خوذاتهم الحديديّة حتمًا ستضاعف حرارةَ الشمس حتّى تسلخ رؤوسَهم، وداهمني طيفُ سلامة في لباسٍ عسكريٍّ بينما كنتُ أحاول أن أحيد خاطري عن الأمر برمّته عبر عدِّ الغيوم المنثورة في الأفق. جفلتُ، ودمعتْ عيناي حتّى اختلط الدمعُ بالعرق.

-المعتاد يا خليل بالطبع، أتتوقّع أن تبيض البهائم عوضًا عن درّ اللبن؟

رحتُ أتشاغل مرّةً أخرى بعَدِّ أقساط اللبن العشرة ومراجعةِ حسابي لدى الخوجة وقد ردّ على سخريتي بابتسامةٍ ودودة. بلغتْ مسمَعي همهماتٌ مقتضبة تدور عن واجب زيارة الشيخ أيّوب لتقديم العزاء في مولوده الذي عرف بموته منذ ساعات، مقرونة بعبارات غاضبة عن ضرورة القصاص من وداد. فاستقرّ عقلي على زيارة الشيخ، وترْك مهمّة الاقتصاص من وداد لخالقها، خصوصًا والادّعاء برمّته بلا قرينةٍ تدمغه: مجرّد كلماتٍ خطّها أحدهم على دارها.

كلامُ الخوجة مكرور. قال حين بلغته إنّه أبلغَ زوّارَه بحاجتنا إلى بيطريّ، وجَزَم واثقًا أنّهم حتمًا سيلبّون مطلبي: «مسألة وقت ليس إلّا». أمدّني بعقاقير جديدةٍ قال إنّ الزوّار زوّدوه بها إلى حين استقدام الطبيب. أعدتُ من جهتي كلَّ المطالب، ثمّ اقترحتُ أن تحملني عرباتُهم رفقةَ البهيمة المريضة خارج النجع. فوحدَها العرباتُ تعرف مسارَ الخروج الآمن. ففغرَ فاه، ثمّ قطّبَ حاجبَيْه، وكرّرَ كلماته الأولى

قاضيًا باستحالة تنفيذ مُقترحي. عدتُ أدراجي أحملُ السخط الذي جئتُ به. كنت أعرفُ أنّ خروج الناس من النجع أمرٌ أكبرُ من الخوجة، لكنّي لم أسُقْ تلك الفكرة إلّا لتأخّر الطبيب، لعلّ الخوجة يقدر على وساطةٍ أشدّ تأثيرًا، لكنّه -على ما يبدو- أقلّ شأنًا من أن يحثّهم على قبول مطلبي.

راقبتُ حكيم بينما يرصّ أقساط اللبن أسفل التعريشة إلى جوار الدكّان، والشمس تنفذ عبر سَعَف النخيل المرصوص فوقَ الأعواد الخشبيّة، نبّهته أن يبعد الأقساط عن الشمس، فهزّ رأسه إيجابًا، ومضى إلى العربة التالية لعربتي.

يبدو الولد الصغير أكبر من سنّه. يُتْمُ الأمّ موشومٌ على قسماته، صوت عبد الحليم حافظ يحلّق عبر النافذة المشرعة في الدار، يغنّي أغانيَ وطنيّةً تمجّد الثورةَ وتفتخر بالنصر. تابعتُ الصبيّ لحظاتٍ. تذكّرتُ البهيمة المريضة وانقبض قلبي بتصوّر مصيرها المحسوم، فمضيتُ من دون أن أُلقِيَ التحيّة على خليل.

كان الشيخ أيّوب، في داره المتاخمة للمسجد، يتقبّل العزاء في رضيعٍ وُئِد منذ سنوات. الناس يَفِدون إليه لتعزيته، والتوتّر يربك خطواتهم، فلا يلبث معظمهم في الدار طويلًا. اللعنات تنصبُّ على رأس وداد وسيرتها، والأقاويل كثيرةٌ عن حكاياتٍ مشابهةٍ لم تُعلَن بعد، وأعمال سحرٍ ورَبْطٍ وشرورٍ ما انفكت المرأة العجوز تنفثها في الدور أينما حلّت، والشيخ المأزوم يهمهم بكلماتٍ مقتضبة، ثمّ يواصل دعوتَه لصلاته الـمُنجيَة.

كان صوته خفيضًا تخنقه العبرات، يتبادل مع الزوّار كلمات التعزية والمواساة. انقسم الناس بين الاستعلام عن تفاصيل الصلاة المرجوّة، والانتهاء من مراسم العزاء والمغادرة في أسرع وقتٍ.

أذّن الشيخ لصلاة المغرب، لكنّ ضوءًا خافتًا ما فتئ يتسرّب من السماء. أسراب الحمائم تعود إلى الغيّات، وخادم المسجد يدور بين أعمدة الإنارة حول الدار الملاصقة للمسجد يُشعل فتائلَ الكيروسين. عبارات التعازي تتنقّل بين أفواه القادمين والمغادرين، والشيخُ يومئ برأسه عرفانًا. قدّمت أمّ سلامة العزاء في مجلس النساء قَبلي، إذ أرسلتْ إليّ سلامة يخبرني حين غادرتُ الطابور، فأذنتُ لها.

تأهّبتُ لتوديع الشيخ حين فاجأني النحّال العجوز بدخوله. فالرجل قد أهال السباب منذ ساعاتٍ على رأس الشيخ وقذفه بأقذع الصفات، بيد أنّ الشيخ المؤمن بقضاء الله أحسنَ استقبالَه كأنّ شيئًا لم يكن، توقيرًا للظرف، واحترامًا لسنّ النحّال.

دقائق قليلةٌ مضت قبل أن ينهض نوح ليعيد عبارات التعزية والمواساة. شدّ على يدَي الشيخ ومضى.

نادَاني النحّال إبان مغادرتي المسجد. ألفيتُه وقد استوقف قرابة عشرة رجالٍ قبلي، لقيتهم مصطفّين في دائرةٍ حوله، تفصل الواحد منهم عن الآخر مسافةُ ذراعٍ أو ذراعين، أضحى ابتعاد الناس بعضهم عن بعضٍ يولِّد شيئًا من الراحة المرجوّة. توجّهتُ صوبَ النحّال في منتصف الدائرة وقد ظننتُ الناس يريدون به ضررًا،

لكنّه بدَا كمَن يخطبُ فيهم همسًا. صوته خافت، ظهرُه محنيٌّ إلّا أنّ نبراته صارمةٌ مثقَلةٌ بالحنق والسخط. طفق يعيد الكلمات بينما يتأمّل الناسَ يروم الظفر بموافقةٍ على مقترحٍ تلاه قبل انضمامي إليهم. أحاول استيعاب ما قِيل قبل قدومي، لكنّ كلمات النحّال سرعانَ ما تُفزعني. فقد ذهبَ الرجل بجنونه بعيدًا، وبلغَ به الكبر مشارفَ الخرف فوصل إلى نقطةٍ لم يبلغها أيٌّ منّا في أبشع كوابيسه.

تنبّهتُ إلى أنّ أحدًا لم يُعرض عن حديثه. فما اختلجت قسماتُهم بغضبٍ ولا استنكار، ولا صدرت عنهم بادرةُ اعتراض. كنتُ على وشك الانسحاب من الجمع الآخذ في التزايد، لكن اعتراني فضولٌ لمتابعة الحديث الجاري، والتحقّق ممّا سيُفضي إليه.

جعلتُ أستقصي النتائجَ عبر تفحّص الوجوه، أغلبها غاضبٌ يشاطر النحّال حنقه، الجميع مُؤهَّلون للاشتعال، والنحّال ذو الظهر المثنيّ يستنهض بكلماته همًا عهدتها خائرة. بدأ الناس يتبادلون النظرات المتوافقة على اتّباع العجوز الخرف، جعلوا يهزّون رؤوسَهم، ونبراتُ الرجل المخبول تعلو رويدًا. صحتُ أذكّرهم بأنّنا كنّا نقدّم التعازي للشيخ أيّوب منذ دقائق، ولم نزل على بُعد أمتارٍ من داره، فحريٌّ بنا مراعاة الظرف والتوقّف عن صنع مثل تلك الجلبة.

رمقني النحّال بنظرة شكّ، اقترب منّي، وهمس في أذني بعبارةٍ واحدةٍ شجّت رأسي ووَخَزَت صدري. تفرّق الجمع على وعدٍ بلقاءٍ آخر عقب صلاة المغرب في اليوم التالي. تابعتُ الناس بينما

يغذّون السيرَ كلٌّ نحو داره. وحدَه النحّال مضى في غير اتّجاه داره. وأنا قطعتُ خطواتٍ مرتبكةً على غير هدًى محاولا استبانة الطريق المظلمة صوب الدار.

تخاتلني ظلالُ جنودٍ لا تتوقّف عن الركض على الجدران، فتتضارب الأفكارُ في عقلي وتتصارع الرؤى. في كلمات النحّال بصيصُ أملٍ يفضي إلى حرّيّة مستدامة، وفي وصفه لبلوغ الأمر جنونٌ كفيلٌ بإضرام النار في النجع، سيشعل المخبول فتيلَ حربٍ أخرى، كأنّ حربًا واحدةَ لا تكفيه! كان النحّال يُبلغ الناسَ بخطّته التي سترفع البلاء وتمحو الوباء، وتحلّق بهم فوق الحزام الناريّ وصولًا إلى الحرّيّة. قال نوح أن لا مخرج ولا مهرب للناس إلّا عبر الخوجة وزوّاره. قال إنّه جعل يراقب زياراتهم منذ شهور، ثمّ جزم أنّه باتَ يحفظ مواقيتَ حضورهم عن ظهر قلب. يريد من الناس أن يكُونَ هجومُهم مفاجئًا، سوف يتسلّلون إلى الغيط المتاخم لدار الخوجة ويمكثون قرابة ساعةٍ أو ساعتين، حتّى إذا أقبل الزوّار في عرباتهم واستقرّوا في دار الخوجة باغتوهم بانقضاضٍ عظيم. يؤمن النحّال أنّ بمقدور الناس -إذا اجتمعوا على الأمر- شلَّ حركة قرابة عشرة أشخاصٍ وربّما تجريدهم من سلاحهم، ثمّ إجبار سائقي العربات على الخروج بهم من النجع.

لمْ يستعلم الناسُ عن تفاصيل جوهريّةٍ في خطّته، فهل سيهربُ الرجالُ المهاجمون بمفردهم؟ أم تراهم يصطحبون عائلاتهم، وربّما مواشيهم؟ هل تشارك النسوة في المعركة المأمولة؟ ومن أين للناس

بسلاحٍ يباغتُون به رجالًا ربّما يحملون البنادق؟ وهل تكفي مشاعل النار والجنازير المعدنيّة التي تحدّث النحّالُ عن حَمْلها لبثّ الرعب في قلوب رجالٍ اعتادوا المبيتَ أسفل قصف الطائرات والمدافع؟ وفيمَ يفيدُ حرق دار الخوجة كما دعا المخبول؟ فما ذنب خليل؟ وماذا اقترفت يدا ولده الأخرس لتخيّره المصائر بين الموت حرقًا والتشرّد في أطلال النجع المهدّم بلا مأوى؟

بلغتُ الدار، فجلستُ على مصطبتها لاهثًا. أسبلتُ جفنيّ محاولًا تفنيد الأمور وترتيبها. حاولتُ أن أكون محايدًا فلا أميل إلى تصديق النحّال، ولا أقف في صفّ الخوجة. الأفكار تبدو أكثر وضوحًا في العادة إذا أغمضتُ عينيّ، لكنّ الأمر خطير، والحدث جَلَل، وأنا حائرٌ بين تصوّر نَوالِ حرّيّةٍ كاد الناس ينسون كيف ينطقونها لفظًا، ونهايةٍ داميةٍ تلوح في الأفق.

بدا لي أنّ ما كُتِبَ على دار النحّال أصابه بالجنون، لم يتحمّل عقله المعتلّ منذ رحيل زوجته فكرةَ أنّ ولده لن يعود، هكذا رَوى للناس المكتوب، وأجهش بالبكاء حين ذكر وحيدَه، فجزم أنّه عائدٌ لا محالة. والناس ما انفكّوا يتهامسون أنّ الشرير الذي يلطّخ الدور ربّما أراد تأجيجَ الغضب وإشعالَ فتيل الفتنة بما يكتبه.

ولكي أعيد الأمور إلى نصابها، رحتُ أستدعي البدايات، وكانت نقطة البداية حسب ظنّي هي وصول خليل الخوجة إلى النجع منذ عشرين سنة.

لم يكن أحدٌ قادرًا على الجزم بحقيقةٍ واحدةٍ تخصُّ الخوجة.

المعلومات المؤكّدة شحيحة. رجلٌ غريبٌ حلّ بالنجع في النصف الثاني من الخمسينيّات، اشترى داره من ورثة تاجرٍ رحّالٍ توفّي قبل ذلك بشهور، وهجّت أسرته إلى أسيوط. علّق على داره علم الجمهوريّة العربية المتّحدة حالما أعلنت الوحدة مع سوريا، ثمّ عاد واستبدل به علمَ مصر القديم عقب الانفصال بساعات.

فقَد ولدُه حكيم لسانَه إثر تشنّجاتٍ ألّمت به عقب فرار أمّه. عضّ الصبيّ لسانَه كمدًا وهو نائم، فقطع معظمه. هكذا اعتاد الخوجة أن يروي دامعًا حكاية ولده. ولسببٍ مّا، حاز الخوجة -الغريب عن النجع- ثقةَ الدولة لإدارة شؤون ذاك النجع ذاته.

باستثناء ذلك، لا شيء معلومٌ عن خليل، الحكايات عن تاريخه الشخصيّ غير مُوثَّقة. ما الذي وراءَ ارتحاله إلى نجعٍ لا يظهر في خرائط الدولة الرسميّة؟ وكيف عرف بوجود النجع أساسًا؟ قيل إنّه سرّاق إرث، لكنّ مظاهر الثراء لم تظهر على الرجل يومَ حطّ رحاله في أرضنا. اشترى -فحسب- دارًا قديمة، وأرضًا باعَها عقب مناورة التنحّي بساعاتٍ ليشتري سيّارةً معطوبةً تقبع الآن في مدخل داره.

والواقع أنّ نفوذ الرجل قد ازداد بمرور سنوات الحرب، فراجت تجارته وتوسّعت رقعةُ أراضيه. ربّما استفاد من الحصار لكونه البائع الأوحد والمتحكّم في الأسعار، لكنّه لم يَفِد إلى النجع ثريًّا بما يوثّق مقولة استيلائه على تَركة أبيه. تلك الحقائق أيضًا تنفي عنه اتّهامًا آخر جاء في روايةٍ مغايرة، مفادها أنّه لصٌّ استولى على

أموال الناس وفرّ بها إلى الصحراء حتّى انشقّت الأرضُ أمامه عن نجعنا الهادئ.

ربّما تظلّ رواية هروبه من ثأرٍ في قريته هي الأقرب إلى التصديق. الهروب من موتٍ محيقٍ يتّسق مع غموضه ويتوافق مع صمته الدائم وعزوفه عن مشاركة الناس حكاياته.

لا أحد يعرف شيئًا عن وظيفته، إذ لم يكن مُزارعًا ولا تاجرًا حتّى راجت أخبارُ الحرب وعظّم الحصارُ من شأنها. هو يعرف القراءةَ والكتابة لا ريب، لديه مكتبةٌ ويجيد الحساب، فهو بذلك رجلٌ مُتعلّم، لذا يُقال إنّه عمل موظّفًا في جهةٍ حكوميّةٍ مهمّة منذ زمن، حتّى أربك الثأرُ خطواته فقذفَ به إلى صحرائنا، وربّما منحَتْه وظيفتُه الحكوميّة السابقة ثقةَ الدولة.

قِيل كذلك إنّه طبيب، بشريٌّ أو بيطريّ، وفي روايةٍ أخرى تداول الناس أنّه عمل ممرّضًا في أحد مستوصفات الصعيد، فالخوجة يعرف كيف يحقن الناس بالأدوية، ويجيد وصف العلاج للمرضى، حتّى إنّه يصف العقاقير اللّازمة لمداواة البهائم. وإن لم تُجدِ عقاقيرُه مع بهيمتي المريضة اليوم، فقد أفلحت من قبل.

وثمّة روايةٌ أخيرةٌ قيلت عن مهنة الخوجة الأصليّة، وهذه لا أصدّقها كثيرًا، وهي اشتغالُه في أحد مطابع القاهرة بوصفه أحدَ مشرفي الورديّات. وقالوا إنّ الأمر أهّله لطباعة جريدة «صوت الحرب» في المطبعة التي جهّزها بنفسه بعدما دقّت أوّل طبول الحرب، وقيل في روايةٍ أخرى إنّ زوّاره الغرباءَ هم من جلبوا له معدّات

الطباعة ومستلزماتها. لكنّي رأيت أنّ الخوجة يبدو أكبر شأنًا من أن يغدو مجرّدَ عامل طباعة أو حتّى مشرفَ ورديّة، ربّما هو مدرّس أو طبيب، لا أؤمن باحتمالاتٍ مغايرة، كما أثق أنّه هاربٌ من ثأرٍ، لذلك فربّما يكون الرجل بالأساس قاتلًا!

أنهضُ لأعرج على الزريبة، العيون تلمع في ظلامٍ خانق، أقترب من موضع مريضتي المسكينة، أقرّبُ كفّي من فمها، فأميّز أنفاسًا ساخنةً هادئة، لا تزال حيّةً إذن... أقتعد الأرض على مقربةٍ منها غير عابئٍ بالروث والطين. أنا هنا ربّ الزريبة، تلك المواشي والماعز والخرفان وحتّى النوق الهاربة كلّها رعيّتي، أنا لها بمثابة الأب، والصديق، والحبيب...

- سامحيني... فعلتُ ما بوسعي، لكنّ الحرب اللعينة تحجب كلَّ خير.

وتدمع عينَا البهيمة المحتضرة، فأجيب نظرتها المستغيثة بابتسامةٍ عاجزٍ تكلّلها دموعُ مذنب، وأمسّد رقبتها...

- جئتُكِ بعقاقير جديدة، في الواقع أنا لا أثق أنّها جديدة، لكنّ الخوجة يدّعي ذلك، لنجرّبْ هذ الدواء، فقط لا تمتنعي عن شربه كعادتكِ، أرجوكِ...

صدرت عنها حشرجةٌ تشجُّ القلب، فتوسّدتُ رقبتها متوسّلًا دفء الحياة أن يستمرّ، متناسيًا غضبة أمّ سلامة الآتية لا ريب.

فكم من مرّةٍ عاتبتني أمّ سلامة وقد أمضيت اللّيلَ ساهرًا أطبّب بهيمةً مريضة، أو أربّت بطنَ أخرى توشك على وضع جنينها؟

تعرف أمّ سلامة أنّني ولدتُ وعشت بين الأغنام، فلطالما رافقت والدي في تجواله بين النجوع راعيًا. كنتُ صبيًّا وحيدًا فقَد إخوتَه قبل أن يميّز ملامحهم ويختزن أصواتهم، ماتوا بأمراضٍ قال أبي إنّها لم تكن شائعة، وجزمتْ أمّي أنّ للأمر علاقةً بالحسد. ولكي يجنّباني مصيرَ إخوتي أطلقاني بين خراف أبي. هكذا ظنَّا وصحّ ظنّهُما، إذ لم أمُت، بل إنّي وجدت بين الأغنام ألفةً لا أجدها بعيدًا عنها. علا شأنُ أبي، وراجت تجارتُه في بيع الصوف للنسّاجين في قرًى كثيرة، فاعتبرني تميمةَ حظّه. ولمّا أقعده المرض أقام الزريبة وجعل فيها من كلّ ماشيةٍ زوجين، وتركني مع الأغنام نرعى، فباتت لي أسرةٌ وجدتُ فيها الصاحبَ والناصح، والحكيم، والزوجة والحبيبة، حتّى إنّ رحيل أبويّ عقب ذلك لم يشعرني يومًا باليُتم، وإن افتقدتهما.

أتذكّر كمدي وهمّي طوالَ أيّام دأبتُ فيها على مطاردة أطياف النوق الهاربة. طُفتُ حدودَ النجع ليلًا، فتّشتُ الظلالَ متصوّرًا أنّها راقدةٌ هنا أو واقفةٌ هناك.

أسمع صوت أمّ سلامة تنادي من خلف باب الدار الموصد: «يا أبا سلامة»، فأهمس في أذن البقرة الخائرة: «تمسّكي بالحياة، المدد في الطريق»، ثمّ أدبرُ صاغرًا نحو الدار.

أمضي بوجدانٍ مُخرّب، وذهنٍ مشوّش، أدلفُ إلى البيت الذي سحبتْ أمّ سلامة مزاليجَه، أطالع وجهي في مرآةٍ تكسّرت حوافّها، فتهاجمني التجاعيد بغتة، وتنتشر حتّى أغدو كهلًا في أرذل العمر.

أتحسّس وجهي مُتحرِّيًا ملامح الأصلع الذي صرته، فلا أميّز بين القسمات سوى قبسٍ من وجه أبي.

مرّت ساعاتٌ مشحونةً بالقلق نفرتُ فيها من الجدران، شعرت أنّ أنفاسي تضيق كأنّ الحيطان تنطبق عليَّ وتسحقني، هكذا هي حالي منذ تزوّجت. لكم وددتُ لو قبلت أمّ سلامة أن نُمضي ليالينا الأولى في خيمةٍ أُقِيمُها بمكانٍ أعرفه ويعرفني. لكنّها تعلّلت بالستر والحياء فأبتْ، ورضختُ لها لكونها ابنة خالتي، ولأنّها مثلي يتيمة؛ أوصاني أبواها بها خيرًا، ففعلت.

غزتني الهواجس حتّى لفظتني الدارُ إلى الزريبة مرّةً أخرى. جلستُ بين الغنم أعدّها كما هي حالي كلّما وقعت عيناي عليها، عاث في صدري وسواس أنّ أحدًا سيسرقها منذ بدء الحصار، وخصوصًا بعد انفجار السماء. رحتُ أستنشق عبقَ الصوف، فتتخدّر أوصالي. أمّ سلامة ستُبدي ضيقًا مضاعفًا إذا عرفتْ أنّي قضيت اللّيل في الزريبة مرّةً أخرى، ذلك خلافنا الأزليّ، والوحيد، إذ تدّعي أنّني أولي البهائم من العناية ما يفوق اهتمامي بها وبالعيال، وتخرّف أحيانًا فتقول إنّ عشقي لها لا يقارن بعشقي لساكني الزريبة، لكنّها امرأةٌ ككلّ النساء!

سحبني النعاس إلى عوالمه، فرأيتُ الظلال تصطفّ على حائط الدار، تكتب عباراتٍ وتمحوها أكثر من مرّة، ثمّ يدوّي صوتُ رصاص، وتسقط الظلال واحدًا تلو آخر، تتلوّى ألمًا، تتقيّأ دمًا أسود اللون، ثمّ تنهض، وتركض، فتتلاشى.

رأيتُ كذلك وجوهَ أطفالٍ رُضّع ترتسم على الجدران التي غادرها الجنود. بلّلتْ قطراتُ العرق وجهي، فأفقتُ لأصافحَ نسيمًا رطبًا ينساب في الزريبة. كساني العرق كأنّي عدت الساعةَ من أتون جهنّم، وشعرتُ بقلقٍ عظيمٍ حيال سلامة ومصيره المقبّض. هرعت لأطمئنّ على البقرة المريضة، فوجدتها نافقةً وفي عينيها نصف المسبلتين سؤالٌ حائر. لعنتُ النجّار الذي لم يقبل حفرَ النفق، ولعنتُ الخوجة إذ تأخّر البيطريّ، ثمّ تذكّرت كلمات النحّال التي أسرّ لي بها أمام دار الشيخ أيّوب، فدرتُ حولَ جدران الدار، ورحتُ أتحرّى أشكالَ الحروف والكلمات المكتوبة. شعرتُ بغصّةٍ إذ حال الجهلُ بيني وبين قراءتها. سقطتُ في حيرةٍ وصمت، بينما كلمات النحّال الخبيثة تتردّد في أذنيَّ:

«أحقًّا تهجر فراشَ زوجتك لتنكح الغنم كما هو مكتوبٌ على دارك؟».

شوف خدتنا لفين يا قلبي، وشوف سابتنا فين
في سكّة زمان راجعين، في سكّة زمان
في نفس المكان ضايعين، في نفس المكان
لا جراحنا بتهدا يا قلبي،
ولا ننسى اللي كان يا قلبي..... شوف



عبد الحليم حافظ

كلمات: محمد حمزة

لحن: بليغ حمدي

الجلسة الخامسة

محجوب النجّار

صباح أمس، استيقظتُ وبقايا حلمٍ مُقبّض تكاد تتسرّب إلى صحوي. رأيتُني في الحلم فأرًا ضخمًا تستقرّ فوق كتفَيه رأسُ سلحفاةٍ يبرُز منها منقارٌ حادّ، أنبش الأرض بأظافري ومنقاري غير منشغلٍ بهيئتي القبيحة، وأغوص في سردابٍ طويلٍ يلوح في آخره قبسٌ من ضيّ أزرق، أتنفّس بصعوبة، وصوتٌ خافتٌ لبكاء رضيعٍ يتسرّب من جوف النفق، بينما الجدران من حولي رطبةٌ مُشبَعةٌ بالحمرة.

غادرتُ الدارَ فور استيقاظي. وتوجّهت سريعًا إلى ضفّة الترعة. طالعتُ وجهي المنعكسَ على صفحة الماء، وسرعان ما شعرتُ بارتياحٍ إذ وجدتُ لي رأس سلحفاةٍ بغير منقار. ثمّ أرجعتُ الحلم برمّته إلى انشغالي بفكرة الخلاص، وانهماكي في شقّ بطن الأرض.

كنتُ موشكًا على الانتهاء من النفق. كلّ ما يفصلني عن تنشّق الهواء خلفَ حزام الألغام ستّمائة ذراعٍ أو سبعمائة. الهواء هناك حتمًا يختلف عمّا يسبح في النجع. فالناس هنا يتبادلون أنفاسًا مذعورةً مترعةً بالخوف والمذلّة. وأنا وامرأتي الحبلى نستحقّ هواءً مغايرًا، الطفل في أحشائها ينتظره غدٌ عظيم، سيكون نبيًّا يبعثه الله في مَن بقي من الناس ليبشّرهم بالانعتاق. سيكون أوّلَ نبيٍّ يُبشّر بالحرّيّة،

ولا ينشغل بالمجد والفتوحات والرايات المرفوعة على أسنّة الرماح ونصال السيوف، نبيٍّ وُلِدت معجزتُه قبل أن ينبت في أحشاء امرأةٍ عاقرٍ انقطع طمثها، فما للسحر ولا لتبريكات الشيوخ القدرةُ على إحداث المعجزة، هي يد الله التي خَضّرت بورًا، واليومَ أنا منوطٌ بي أن أُكمل أسفار الحكاية.

لن يولد نبيُّ الغد في هذه الأرض الموبوءة. لن يولَد في الأسر، بل ستضعه عنايات بين يدَي الله على أيّ بقعةٍ من أرضه خارجَ حدود النار، سهم الله الذي ألقاه على عدوّ الدين خرّب النجع، ولا دراية لي بما إذا كان السهم أصابَ هدفه أم حاد عنه ليستقرّ في عقولنا. هي إرادة الله النافذة على أيّ حال، ولا رادّ لمشيئته سبحانه، لكنّ الله لم يأمرني بالسجود أمام دكّان الخوجة، ولم يُشبّهني للناس مصلوبًا أمامَه، حتّى إن ارتضى الناس بالصلب.

لن يُصلَب ولدي في بطن أمّه، بل سيجيء إلى الدنيا وقد حرَّرتُه من شراكها ليخلق عالمًا جديدًا لا مكان فيه لخرافات التماثيل التي تضاجع الصبايا، ولا لصوت النداهة الآسر، ولا محلّ فيه للخوف من توائم موؤودة، أو أطفالٍ استحالوا قططًا تتمسّح برجلي الخالة وداد؛ عالم يتشكّل في صورة شاطئٍ لا نهائيٍّ تحوطه الورود، وتعانقه الموجات.

تذكّرتُ العمّ ميشيل، وهو سمّاكٌ يهوديّ اعتاد أن يقصّ علينا الحكايات كلّمَا حلّ بنجعنا زائرًا وتاجرًا. واظبتُ على انتظار زياراته الدوريّة للنجع، إذ ينزل أرضنَا محمَّلًا بحصيلة صيده الوفير من

السمك والقصص. مع العمّ ميشيل عرفنا ألوانًا لم نعرفها قبله، وأسماكًا لم نرَ لها شبيهًا قبل أن يمرّ الصيّاد العجوز بنجعنا النائم كما كان يسمّيه.

طالما قال العمّ ميشيل إنّ نجع المناسي دون باقي النجوع والقرى، يتميّز بسكونه الشديد والصمت الذي أحاطته به الكثبان. يقع النجع على أرضٍ مستويةٍ بخلاف النجع الغارق، بيد أنّ الكثبان من حوله تكاد تخفيه عن أنظار العابرين. جزم الصيّاد البشوش أنّ نجعنا هو الوحيد في الصعيد الذي لا يَسمع فيه لغوًا ولا ثرثرة، ولا حتّى ما اعتادت أذناه التقاطَه من مشاجرات الصبية ومشاحنات النسوة ونداءات الباعة في الأسواق، لذلك أسماه النجع النائم، جرى ذلك وأنا طفلٌ في عهد الملكيّة.

قبل أن تشبّ الحرب ويزداد النجع انعزالًا، اعتاد العمّ ميشيل التباهي بأنّ الله -وفقًا لكتابه المقدّس- خَلقَ السمك قبل البشر، واعتاد أن يشاكس النسوةَ بقوله إنّ إناث الدوابّ قد خُلِقن قبل حوّاء، وإنّ الله لم يخلق حوّاء إلّا إرضاءً لآدم حين لاحظ إبّان تسميته للحيوانات والطيور أنّ لكلٍّ منهم ذكرًا وأنثى، بينما هو وحيدٌ من دون وليفٍ ولا أنيس.

كانت النسوة يضحكن لمشاكسته لهنّ، ويتمايلن في غنجٍ أمام طبليّةٍ خشبيّةٍ يعرض عليها صيدَه. أتذكّر اليوم مرآه وهو يشوّن الأسماك الأكبر حجمًا في مشنّةٍ ضخمةٍ يضعها إلى جوار الطبليّة، ثمّ ينتقي أفضلها ليعرضه، وأصغرها ليمنحه للقطط.

سحرتني قصص السمّاك حتّى صرت في صباي مفتونًا بها. رجوتُه أن يصحبني معه في رحلة صيدٍ فرفض قاطعًا، وتوافق رفضُه مع زجر أبي وأمّي لي يوم بحتُ لهما بخواطري، فجرى ما جرى.

تعقّبته ذات صباح كسَتْه سماءٌ صافية، بقيت أتابع جملَيه من مسافةٍ آمنة. جعلتُ أراقبه مسيرةَ نهار كامل حتّى انطفأت الشمس فركضتُ نحوه خائفًا. فزع العجوز لمرآي، وراح يجزم بجنوني ويقسم على إعادتي. بكيتُ كثيرًا يومئذٍ وأنا أرجوه أن أرافقه في رحلات صيده. فكرر الرفض والزجر. وبقيتُ مُصمّمًا على رجائي صادقًا في توسّلاتي حتّى استجاب، وندّت عن شفتَيه ابتسامةُ ودٍّ.

عرفتُ خلالَ ساعاتٍ أمضيتُها رفقةَ السمّاك عوالمَ لم تَدُرْ في خلدي يومًا. انبهرتُ بحياة البحر وعالمه الغامض. جمعتني بالعجوز الطيّب محاورةٌ طويلة، فكنت أنا السائلَ دومًا، وهو الراوي المجيب.

طوينا الطريق من تحتنا بحكاياتٍ عن عالم البحر الذي لم أعرفه، فسمعت منه عن رجالٍ ابتلعتهم زرقته، وآخرين اعتلوا صهوةَ الموجات فأجادوا ترويضَها، وعن نداهةٍ تجمع بين جسد المرأة وحراشف السمك يُقَال لها عروس البحر، وكيف منحته ميثاقَ الأمان بعدما جرى بينهما ما يتمّ بين رجلٍ وامرأته، فبات الموجُ يخضع له، والأسماك تتسابق بغية الاستقرار في شبكته.

روى لي المزيد من أخبار أجدادنا الرُحّل، فسعدتُ بأنّهم عرفوا ركوبَ البحر، وخبروا طرائقَه وخرائطه، حتّى إنّهم تركوا أثرَهم فوق العديد من الجزر المنسيّة.

ببلوغ شاطئ البحر في النهار التالي، استوقفني أنّ مياهه كانت شبيهةً بمياه الترعة، لكنّها أقلّ دكنة وأكثر صفاءً. أفزعني الموج الهادر كثيرًا، وغشاني الخوف. حلّ السمّاك وِثاقَ قاربه المثبت قُرب كوخه، انتزع من الأرض وتدَه، ثمّ مدَّ إليّ يدَه، فأطعته. وحمَلَنَا الموجُ في غضون دقائق إلى مياهٍ أكثر زرقة. هدْهَدَ البحر ركبنا برويّةٍ حتّى هدأت وتيرةُ الموج فرمى العمّ ميشيل شباكَه قدر مستطاعه. طفقتُ أساعده بينما هو باسم، واثقٌ ممّا يجري، آمنٌ بميثاقه.

مضت الساعات فجأةً، فراحت الشمسُ تسقطُ صوبَ البحر حتّى ابتلع نصفَها. كان صيدُنا وفيرًا، والسمّاك سعيدًا بحصيلة اليوم. ولمّا رسَونا على الشاطئ بادرَ باحتضاني، قال إنّني فألٌ حسنٌ وقدمُ سعد. ثمّ بلغت سعادتي ذروتها حين قال إنّه فور إعادتي إلى النجع، سيطلب من أبي أن أنضمّ إليه بشكلٍ دائم. قال إنّه سيُعلّمني فنونَ الصيد ولغةَ السمك وهمسات البحر. أكّد أنّ حياة البحر أكثر صفاءً، وأضاف مطرقًا أنّ غدر الموج أهونُ من خيانة البشر. ثمّ أردف بأنّه -حال انضمامي إليه- سيطلعني على بيت عروس البحر.

قفلنا إلى النجع، فوجدتُ أبي كمَن مسَّه الجنون عقب اختفائي، وسمعتُ من النسوة اللّاتي اجتمعن على مشهد سحلي أنّ أمّي هي من اقترحت البحث عن السمّاك الذي حوّر الناس اسمَه وعمله إلى لقب اليهوديّ فحسب، وجزمتْ أنّ الناس حيثما وجدوا اليهوديّ الماكر عثرُوا على صبيّها محجوب.

عدتُ رفقةَ السّماك طواعية، فنفض النجعُ عنه هدأته التي طالما تحاكى بها العجوز، لم يعد نجعًا نائمًا صموتًا كما اعتاده، بل هبّ رجاله في وجهه، وكالوا له شتّى الضربات قبل أن يتفوّه بحرف واحد. كنت أدافع عنه والدموعُ تسيلُ من عينيّ قهرًا، حتّى قبضَ أبي على شعري، واقتادني إلى الدار مسحولًا، وجعل يكرّر عبارَةً واحدة؛ «**طالما رأيت في وجهك صورة قتيلٍ يشتهي الهلاك**».

تناوب أبي وأمي على صفعي وتوبيخي. ربّما أعي اليومَ حجم الرعب الذي سبّبتُه لهما يومذاك، وأسامحهما، إلّا أنّ ما لم أنسَه لأبي طوالَ أيّام تلت تلك اللّيلة، هو حبسي داخل صندوقٍ مُغلَق يومًا كاملًا عقابًا على ما اقترفت.

وضعني أبي في جوف صندوقٍ ضخم اعتاد استخدامه لحفظ أدواته بعيدًا عن متناول الصغار. رفعني بيسرٍ وألقاني داخله، ثمّ أغلق غطاءه وجلس فوقه غير عابئٍ بصرخاتي. عقب ذلك راح يدقّ عشرات المسامير في أطراف الصندوق مُحكمًا إغلاقه، وهو لا يكفّ عن سَبّي ولَعن اليهوديّ والبحر والسمك. ثمّ عمد إلى إزميله فصنعَ ثقبَين في الغطاء أدركت لاحقًا أنّه أراد أن يجعل لي متنفّسًا كي لا أختنق.

قبعتُ في الصندوق قرابةَ يوم، قضّيتُ اللّيل ممدَّدًا في تابوت عقابي، لم أجد مبرّرًا لعقاب بمثل هذه القسوة، صرختُ وبكيت كثيرًا، واختلطتْ توسّلاتي بنحيب أختي إحسان وأمّي التي تبخّر غضبها مباشرةً عقب صفعي. رحتُ أبرّئ السّماك من الذنب، وأقرُّ

أنّني من لحق به وتقفّى أثره. فكان أبي يقسم أنّه لن يتراجع عمّا قرّره: «**سيقضي محجوب ليلتَه في الصندوق مهما جرى**».

استنفدتُ مخزونَ البكاء قرب الفجر، رحلَ المتعاطفون والشامتون قبل ذلك بساعات، وتسلّلتْ إحسان من فراشها فباتت ليلتَها إلى جواري. وانبلج الصبح فراحت تدقّ برفق منادية باسمي. استيقظتُ لكنّي لم أقوَ على الكلام، فزعتْ إحسان وهرعت إلى أبي توقظه، صارخةً أنّ محجوبًا قد مات.

فتح أبي الصندوق بعتلةٍ ضخمةٍ، فأدهشتْني نظرةُ الفزع في عينَيه. لم أتكلّم طوالَ أيّامٍ أعقبت تلك اللّيلة، بقيت أتذكّر قبضةَ الظلام التي أُحكِمت على جسدي، وأتصوّرُ ما مرّ به الوليّ جعفر في قبره حتّى عاد من الموت. لم يعرف أحدٌ أنّي تبوّلتُ يومئذٍ في جلبابي، إذ لم يخبر أبي أحدًا بعدما لاحظ ذلك.

عقب أسبوعٍ استدعاني أبي إلى مجلسه، ربّتَ كتفي بيدٍ ضخمةٍ حانية، ثمّ راح يوصيني:

-إلّا البحر يا محجوب! فهو موطن غدر، لم ينجُ من هلاكه سوى نبيّ الله يونس، لا تأمن ركوبَ البحر، ولا تنسَ حكاية جدودٍ لنا أغرقهم السيل فأطبق عليهم دورهم، عَهدتك منذ طفولتك لا تتردّد ولا تعرف إلى الخوف طريقًا، أحببتُ انطلاقك واختلافك عن أقرانك مبكّرًا، لم تشته اللهوَ بقدر ما تعجّلت الاشتغالَ بالنجارة كأبيك، كنت تقلّدني في حركتي وملبَسي وطريقة كلامي، لم تكن كبقيّة الأطفال يومًا، لهذا

فأنتَ أقرب الناس إلى قلب أبيك، لا ينتابك حقدٌ أو غضبٌ تجاهي لما فعلته بك يومَ هربت خلف السمّاك، أنا أبوك، ويتحتّم عليَّ توجيهك وتقويمك، وعقابك حين تركض خلف جموحك. هل تذكر ما صنعته قديمًا من أخشابٍ قديمةٍ تبقّت لديّ؟ ألا تذكر؟ فاجأتني ذات يومٍ وقد صنعت طبليّةً ضخمةً لها حوافّ وجلست داخلها، ثمّ رحتَ تطلق أصواتًا كهديل الحمام، كنتَ في الثامنة أو التاسعة من عمرك، سألتك عمّا تفعل، فقلتَ إنّك انتهيت لتوّك من صنع بساط الريح! وأخذت تروي لي حكايةً سمعتها من قافلة غجرٍ عن علاء الدين وحبيبته الأميرة، والبساط السحريّ الذي يحلّق بهما ليلامس السماء، ضحكتُ في البداية، ثمّ تسوّر الخوفُ قلبي، وبتّ أخشَى رغبتَك في الانطلاق، وحلمك بالطيران، حتّى جاءت حكاية السمّاك والاشتغال بالصيد وركوب البحر، فاشتعل غضبي، وكان ضروريًّا أن أُنزِل بك عقابًا لا تنساه. كُنْ راضيًا بما وزّعته عليك الأقدار من نصيبٍ في الأسرة والعيش والكدّ والمطارح يا بنيّ، لا تطمع في المزيد من كلّ شيء، أعرف أنّك ربّما لن تفهم كلماتي اليوم، لكنّك حتمًا ستفعل يومَ تضمّ بيديك إلى صدرك ذرّيّتك، ربّما لن أحيا لأشاهد ذلك، لكنّي أثق أنّك يومئذٍ ستعي ما قصدته، وتعرف كيف يكون قلق الآباء على الأبناء.

دارت رحى الأيّام، وأماتَ الحصار كلّ التقاويم، ولم أمسس

ذرّيّتي حتّى اليوم، لكنّي فهمت حكمة أبي، أدركت مشاعره ولامست خوفه، فسامحته.

مات أبي قبل زواجي، فلم أبكِ، تزوّجَتْ إحسان وسافرتْ رفقة زوجها إلى سوهاج. حزنتُ كثيرًا باجتثاث الساعات التي كنت أمضيها رفقة أختي وشريكة حكاياتي، لكنّي لم أبكِ. اختارت لي أمّي عنايات زوجةً، فلم أخيّب رجاءها، وظلّت تتمسّك بالحياة أملًا في هدهدة أوّل أبنائي، خصوصًا بعدما اشتعلت الحرب وانقطعت عنّا زيارات إحسان وأبنائها الثلاثة. كانت قد أسمت كبيرَهم محجوبًا، فبكت أمّي آنذاك، وظلّت على كمدها حتّى فُرِض الحصار فماتت، ولم أبكِ.

لكنّي حين عرفتُ من آخر قافلة غجر، عبرت قبل زرع الألغام، أنّهم عثروا -منذ سنوات- على العمّ ميشيل السمّاك ميّتًا في الصحراء، فدفنوه من دون شاهدة، وضمّوا جمَلَيه إلى قافلتهم. حينئذٍ فحسب ذرفتُ كلّ ما اختزنته الأحداق، وعدتُ طفلًا يضرب بقبضتَيه جدران الصندوق الذي حُبِس فيه.

في الصباح التالي، شرعتُ في صناعة أوّل القوارب، لم أكن على درايةٍ بكيفيّة صنع القوارب، ولكنّي رحتُ أكرّر التجارب حتّى أتممتُ أوّلها فصبغته بلون السماء كقارب العمّ ميشيل. عقب ذلك صنعتُ المجاديف، وجعلت للقارب عجلاتٍ تسهّل نقله إلى شاطئٍ مّا ذات يوم غير معلوم. أعدتُ الأمر مرّات، حتّى صار لي خمسة قوارب شبيهة بقارب العمّ ميشيل. حفظتها خلفَ الدار،

وحاولتُ أن أخفيها عن أعين الفضوليّين بغطاءٍ عريضٍ صنعه لي زكريا النسّاج من الخيش، لكنّهم ما لبثُوا أن كشفُوا خبيئتي، فكنت أجيب تساؤلات العابرين عن جدوى صناعة القوارب بأنّ صيّادًا مرّ بنجعنا آتيًا من قريةٍ تتاخم البحر، فقصدني بعدما دلّه أحدهم على داري وامتدح جودة صنيعتي، وطلب منّي صناعة القوارب، ثمّ أغلق الحصار فكَّيْه على النجع فما عاد الصيّاد قادرًا على العودة، وما أفلحتُ في بيع القوارب.

باستدعاء ذكرى ميشيل اليهوديّ وأسماكه، وكتابه المقدّس الذي أمطر على رؤوسنا قصصَه وحكاياته، انشغلتُ بماهيّة التكوين، وخصوصيّة الخلق الأوّل، ورحتُ أفكّر في وليدي القادم.

تكالبتْ عليَّ الأسئلة وتعالى صوتُ الاستفهامات في عقلي: أيكون الوباء الذي حلّ بالنجع إمعانًا في عقاب البشر على عصيانهم كما يروّج الشيخ أيّوب؟ وهل أضحى النجع هو وطنَ العقاب الجديد، صندوقًا خشبيًّا هائلًا حُبس فيه أهل النجع، وأحكمت الألغام إغلاقَه كالمسامير، من دون أن تجعل في أيّ من جوانبه متنفَّسًا كما فعل أبي قديمًا؟!

الناس عن بكرة أبيهم صامتون، كحالي داخل الصندوق في تلك اللّيلة البعيدة، أيغدو ذلك مُختتَمًا لسِفرٍ من أسفار الخلق، فتُكتَب في الغد القريب صحفُ الخلق الجديد؟ أم إنّ الانفجار والوباء ليسَا سوى اختبارٍ عابرٍ سيَرِدُ آنفًا في بضعة سطورٍ في صحف السماء؟

أفكّر؛ ربّما أنزل الله علينا الوباءَ ابتلاءً واختبارًا، لكنّه ترك المصل في عقولنا، أيكون كسرُ طوق الحصار وتحطيمُ الصندوق هو المصل؟ الحرّيّة هي المصل، بيد أنّ الحرّيّة لا تفيض من أنفاس المذعورين. والأكوان لا تُخلَق تحت الحصار، والأحلام لا تراود المأسورين داخل الصناديق المعتمة.

حين أشار عليَّ عاكف الكلاف بحفر النفق أوّل مرّة، بدت فكرته خياليّة، بيد أنّي احتفظتُ بها وادّعيتُ عدم الاقتناع، ثمّ سقتُ الكثير من العراقيل حتّى خَفت الوهج في عيني الكلاف. عاد يحكي عن حال بهائمه، ويبكي نفوق بعضها، ورحتُ أحدّثه عن بِحارٍ ستبحث عن قواربٍ تحملنا إلى النجاة. انشغل الكلاف بمعضلاتٍ صُغرى، واستعرتُ أنا فكرتَه، مقرِّرًا الانشغالَ بالخلاص الأكبر.

أخبرتُ عنايات بالأمر، فلم تبدِ ارتياحًا في البداية، لكنّها أبدت -كلّما حملتُ فأسي ومعاولي وغصتُ في بطن الأرض- همّةً عظيمة، فجعلت تنتظرني عند مدخل النفق وبطنُها المنتفخ يطلّ من قبلها عليّ. تسألني عن المسافة التي اجتزتُها في جوف الأرض، وعمّا تبقّى، فأخبرها أنّ الأمر قد يستغرق أسابيعَ، وأنبّهها إلى ضرورة تحصين نبإ النفق بالكتمان.

حاولتُ الابتعاد عن مسار العربات المموّهة المتّجهة إلى دار الخوجة. فمضيتُ مجاورًا للترعة في عكس اتّجاه الجبّانة، أصنع تعاريش من عروق خشبٍ فككتها من سقف الدار، وحصلتُ على بعضها من الخوجة نفسه؛ فقد اعتاد الرجل بيع الأدوات والمستلزمات القديمة

المستخدمة، أو الحصول عليها في سياق تسويةٍ من بعض المتعثّرين في السداد.

قدّرتُ عمقَ الترعة مستخدمًا ألواحًا خشبيّةً متفاوتةَ الطول حتّى أغوصَ بالنفق أسفلَها مؤمّنًا رحلتَنا المقدّسة. ابتعتُ من الخوجة عربةً صفيحيّةً وألواحًا خشبيّة، وفأسًا وبضعة جواريف، وقسمتُ اليوم إلى نصفَين، في النهار أجوب النجعَ بحثًا عن أثرٍ لوداد، ثمّ أحاول الخلود إلى سباتٍ قصيرٍ بين العصر والعشاء، حتّى يحلّ اللّيل، فأهرول إلى باطن الأرض، حاملًا الأدوات وبعض المُؤَن، لأقضي الوقت حتّى الفجر في الحفر والتسقيف والتسوية.

كنتُ أتحرّك بهمّة، أحفر مسافةَ مترَين، ثمّ أرفع الردم وأعود به إلى الدار صعودًا. ثمّ جعلت في مدخل النفق دَرَجًا لا يظهر للعابرين. لم يلحظ أحدٌ تكدّسَ الرمل والتراب خلف الدار، ثمّ إنّي كنت أعمل على تسوية الأرض دوريًّا ورشّها بالماء لإخفاء تباين الألوان بين تراب الطرقات والتربة السمراء القادمة من جوف الأرض.

لم يكن لي جارٌ قريب، ولم يزرني من الناس من هو قادرٌ على الملاحظة. وحين أبدَتْ عنايات قلقَها من جواز سماع الناس لصوت الحفر، أخبرتها ألّا تكترث، فكلّ الأصوات اليوم يرجعها الناس إلى جولات التمثال، لكنّ عنايات ظلّت خائفة، مؤمنةً بحكايات التمثال، واثقةً أنّها لمحت ظلَّه يتحرّك بعد مغيب الشمس. بدت متأكّدةً من صحّة ما يروى، متوجّسةً من سخريتي من الأمر.

لملمتُ شظايا الشهاب من النواحي القريبة، صخورًا سوداء بلون الفحم، وأخرى حمراء بلون الدم الذي لطّخ عباءة الشيخ جعفر ذات يوم. بعضها صخرٌ في جوفه معدنٌ أبيض، وبعضُها معدنيٌّ كحطام الطائرات. لم أشاهد طائرةً محطّمَة في حياتي، لكنّها تشبه الصور التي تمتلئ بها جريدة «صوت الحرب» لخسائر العدوّ وغنائم قوّاتنا الباسلة.

ثمّ لم أعرف ما أفعله ببقايا سهم الله، جمعتُها وشوّنتها خلف الدار، وكنتُ أجلس كلّما تملّكني الإرهاق قربَ تلك الشظايا، أتحسّس ملمَسها الأملس كبشرة رضيع، ثمّ أتصوّر ملمسَ رضيعي حين يجيء، فأذرف دمعةً حائرةً بين فرحٍ وقلق. الألوان في قلب الحجر زاهية، قادمةٌ من مكانٍ بعيد. ربّما لم تنتمِ تلك الحجارة إلى العالم الذي نعرفه. لو كان النيزك حجرًا قادمًا من خارج الأرض كما يقول النحّال، فإنّ تلك البقايا ليست إلّا لنيزك، وليست لقمرٍ صناعيٍّ كما يقول البعض.

ومن لطائف الأمور أنّ عنايات ظلّت تخشَى لمسَ بقايا الحجر في البداية، وكنتُ أعي خوفَها من الأمر برمّته وقد تزامن سقوط الحجر مع انتشار الوباء وشيوع أعراضه. ظنّت عنايات أنّ الوباء كامنٌ في الحجر، لكنّي أيقنت أن لا ضررَ سيقع أكثر ممّا وقع. وصدق حدسي، فلم يستفحل بي الوباءُ بملامسة الحجر، وإن ظلّ كامنًا في جسدي.

أواصل التجوالَ تأهّبًا لمعاودة حَفْر النفق. التوجّس كامنٌ في الأزقّة، والقلق يزحف على جدران الدور مستمدًّا قوّته من الخوف.

يبدو بيتُ الخوجة ودكّانته في صدره كقلعةٍ حجريّةٍ عملاقة، راسخة الأركان، ومن خلفها تمتدّ أراضيه، ما بين المؤَجَّر والمشتَرَى.

الخوجة يواصلُ التبشيرَ بفضيلة الوطنيّة، ويخطب في الناس عن الظرف الحرج الذي يستلزم التكاتف، فينطق بلسان الزعيم المطلّ على صباحات النجع من صوره فوقَ عواميد النور. والشيخ أيّوب يحاول أن يُطمئِن الناس بصلاةٍ تدرأ الحزَن وهو أكثرهم خوفًا، يتحدّث عن الزعيم المذكور في كتابِ الله، ويصفُه بالمهديّ المنتظَر الذي بُعِث ليقهَر اليهود، والناس يؤمّنون بِلَيٍّ الأعناق على الصدور، يطأطئون قهرًا فيُفسّر القهر بالإيجاب، ويذرفون الدمعَ فتغبط الشيخَ نوباتُ خشوعهم.

سيلانٌ من الأفكار والتخيّلات يطوف في عقلي ويتشكّل أمام عينيّ، أضلّ الطريق إلى الدار في بعض الأحيان، ترعبني ظلمةُ النفق، فأقف أمام مدخله عاجزًا عن الحراك، لا أعرف ما قد ألقاه في ظلمته، أُصيخ السمع إلى تضرّعاتٍ تتردّد في دماغي جليّةً كوحي: «**لا تتوقّف عن الحفر، في شقّ الأرض خلاصٌ، يعقبه مخاضٌ من نور**».

لا أحدَ يستحقّ عبورَ النفق. فحتّى الكلّاف، الذي أضاء الفكرة في عقلي ظلَّ مُصرًّا على العودة بعد مداواة المواشي! والنحّال الذي ما فتئ يشحذُ همَ الناس، يشخصن الأمر بإصراره على حرق دار خليل، ويسوق مبرّرًا على ذلك هو قطعُ طرق العودة على عربات زوّاره. النحّال ينسج خطّةَ انتقامٍ من الخوجة الذي يتّهمه بالتهاون

في إثبات أنّ ولده وحيدٌ لا أخ له، والتخاذل في متابعة القضيّة مع مندوبي الحكومة. والخوجة يشكّك في عمر نوح ويقول إنّه زوّره، وأنا لا أبالي، إذ لا أنشد إيذاءً يلحق بأيّ امرئ، ولا أستهدف انتقامًا من هذا ولا ذاك، بل أودّ لو يتحرّر الناس جميعًا، ولكنّهم بكلّ بساطة لا يستحقّون! أمّا الكلّاف فقد خلصت إلى أنّه مرسولٌ أرسله إليّ الله فجعلَه مشكاةً تحمل ضيَّ الفكرة، ومجدافَي القارب الذي سأطير به فوق حزام النار.

منذ سنواتٍ وسُفن الخلاص مشدودةٌ إلى وتد العجز، وسفينة نوح التي يشيّدها النحّال لا تجد كفايتَها من الركاب، يواصل الرجل شحن الناس وتأجيجَ رغبة الحرّيّة في صدورهم، لكنّ شُعل الخلاص مطفأةٌ منذ سنوات، وغالبيّة الناس لا يؤمنون بنبوّته. الجموع عاجزةٌ عن مفارقة ظلالها المربوطة، لا يفعل أيٌّ منهم شيئًا لتبديل واقعه المرفوض، ولا يثور نفرٌ منهم على أيّامٍ مشحونة بالتكرار. الصرخات متيبّسةٌ في الحلوق، والحربُ غولةٌ تقبض ببراثنها على نجعٍ أليفٍ مسالم، لا تكترث بإنهاء حيوات ضحاياها بضربةٍ واحدة.

أتساءل: أكان عجْز الناس هو نطفة القلق التي تخلّقت منها كلّ الأشباح والمخاوف؟

ثمّ أتمتم: لكنّ أغلب الناس لا يفقهون!

الذئاب لم تتوقّف عن الترحال، والصقور تنقر قبابَ السماء من دون كلل، والبوم يحوم فوق رؤوسٍ مطرقة، بينما هربت نوق الكلّاف، فلا هي انتظرت نوحًا، ولا اشتهت إلى السفين سبيلًا. لم

تخشَ الحيوانات الفيضان العظيم، حسبها أنّها غادرت أرضًا تدور في ديمومة حرب، وخرقتْ ميثاقَ صمتٍ طال حتّى ابتلع الجميع كجبٍّ بلا قرار!

أمّا الناس، فقد قبعوا على شطآن حيرتهم، يلوّحون للسفينة، ولقبطانها، وينتظرون سماعَ صفير القطار الغائب، ولا يتحركون!

وأفكّر: ربّما تستحقّ مواشي الكلّاف أن تهرب من الحصار عبر النفق، لكنّ الكلّاف نفسَه لا يستحقّ.

أعود إلى النفق، أقف حذرًا كي لا تنزلق قدمي فوق الدرج المفضي إلى جوفه، أحاول إزاحةَ كلّ الهواجس ومسبّبات القلق، يبلّل مخلوط العرق والدمع وجهي، فأناجي الله:

«ربّي، لي أملٌ أخيرٌ أترجّاه منك: الصبيّ، لا تتركه ليولد في أرضٍ محاصرة. ربّما لا أعرف ما ينتظرنا خلف سياج الخوف، لكنّ خيالي الثرثار لا يقوى على تخيّل حياةٍ أبشع ممّا يعيشه الناس اليوم في نجع المناسي، رحماك يا الله».

ويزدحم رأسي بالخواطر فأقرّر تأجيل الحفر...

نويتُ أن أنال قسطًا من الراحة والتأمّل واستدعاء أحلام يقظة أستعذبها. درتُ حولَ الدار قاصدًا مجلسي الأثير على مقربةٍ من بقايا سهم الله. كانت بعض أحجاره تعكس ضياءَ القمر. جلستُ القرفصاء وأشعلتُ لفافة تبغٍ خلطتُه بالحشيش. تساعدني عنايات في لفّ هذه السجائر وقد اتّفقتْ معي على ضرورة تدخينها حرصًا على اليقظة وشحذ التركيز أثناء الحفر. فكانت تُخزّن اللفافات

بعنايةٍ في صندوقٍ تحتفظ به في حجرة الخزين، وتحرص على ألّا ينفد مخزونها كلّما أتيتها بالحشيش، لكنّها لم تعرف أنّي أجلب الحشيش من الخوجة.

تدريجيًّا، رحتُ أشعر بصفاءٍ يكسو عينيّ. بات سمعي أكثر حدّة، وبصري لا تشاغله الظلال والخيالات. تناهى إلى مسمعي صوت أنفاسٍ قريبة. ارتجّ جسدي فزعًا. فوجئتُ بظلٍّ قابعٍ على مقربةٍ من الحجارة الملوّنة، وما يشبه يدًا تمتدّ منه لتتحسّس ملمسها. أشعلتُ عودَ ثقابٍ واقتربتُ من الظلّ الجاثم، فإذا به الصبيّ الأخرس، حكيم ابن الخوجة، يجلس شاردًا، يحملق في الصخر كأنّه لا يراني.

شقّ الخوفُ صدري. هل كنت أحدّث نفسي بصوتٍ مسموع؟ كم مضى من الوقت على هذا الصبيّ وهو في موضعه هذا؟ أهذه أوّل مرّةٍ يتلصّص فيها على مجلسي؟ هل لاحظ النفق؟ هل أخبر أباه؟ حاولتُ أن أتماسك كي لا أبدي أمامَه ذعرًا. كنتُ أعرف أنّه أخرس، فاقتربتُ منه، ربّتُّ على كتفه فمنحني نصفَ ابتسامة، حدّثته:

- أيّها الصبيّ، ما الذي تفعله بعيدًا عن دارك في هذا الوقت المتأخّر؟

عدّل طاقيّته فوق رأسه، وهزّ كتفَيه أن لا شيء، بادرته:

- ألا تخاف التمثالَ الذي يطارد الصبية في الطرقات؟

ندّت عنه ضحكةٌ صامتةٌ مثله، ثمّ أشار برأسه أن لا.

– أفلا تخشى بقيّة الحكايات عن النداهة؟

أعاد إشارةَ النفي ذاتها. وراح صمته يضاعف فزعي. شعرتُ أنّه يعرف كلَّ شيء، ودهمتني رغبةٌ شيطانيّةٌ في التخلّص منه لو تسنّى له كَشْف المستور. حاولتُ استجوابه:

– فما الذي جاء بك إلى هنا؟ أضللتَ الطريق في الظلام؟ أقربُ عمود نورٍ يقع قرب دار الشيخ أيّوب، فهل فقدتَ مسارَك حتّى جاءت بك قدماك إلى داري هذه؟

غمرني ارتياح، وسَرَت في ظهري قشعريرةٌ باردةٌ حين أومأ إيجابًا. زفرت ارتياحًا، ثمّ أردتُ المزيد من التأكّد فواصلت:

– لم أرك بالقرب من هنا من قبل، هل أنت معتادٌ على المرور بهذه الجهة من النجع؟

صمتَ الصبي برهةً فاضطرب جوفي. أشعلت عود ثقابٍ جديدًا، واقتربتُ من وجهه، عيناه خاويتان لامعتان تحدّقان بوجهي. مرّت ثوانٍ من سكونٍ مرعبٍ حتّى هزّ رأسه نافيًا، ببطء، حدّق في السماء برهةً قبل أن تعود عيناه لتستقرَّا على وجهي المضطرب، ابتسم، ونهض مغادرًا.

– انتظر، سأجلب مصباحًا من الدار وأمضي معك حتّى تبلغ دارك آمنًا.

هرعتُ إلى الدار، أشعلتُ لمبة الكيروسين وعُدت إليه. وجدته قطعَ بضع خطوات في سكّة المسجد، فهرولت حتّى بلغته. وضعت يدي على كتفه أطمئنه، والحقّ أنّي كنت أبحث عمَّا يطمئنني: هل

يكذب الفتى؟ هل علمَ بأمر النفق؟ جعلتُ مدخله مزدحمًا بالعربة الصفيحيّة والردم وألواح الخشب التي أستعدّ لاستخدامها، والجوالات الفارغة التي صفّفتها بعنايةٍ لأستخدمها في رفع الردم لاحقًا. لم يوحِ مدخل النفق بما قطعته في جوف الأرض، ولا يُظهر الدرج. بدا أشبه بحفرة، حفرةٍ كبيرة، فهل لاحظ الفتى شيئًا؟

قفزتْ إلى ذهني خاطرةٌ ربّما تجنّبني الخطر؛ لو أنّ الصبيَّ الأخرس شاهدني وأنا أهبط إلى النفق أو أصعد منه، فهو حتمًا لم يلج إلى جوفه يومًا، وهكذا فإن شاعَ بين الناس أنّي أحفر الأرض أمام بيتي، فسيظنّ معظمهم أنّي أبحث عن مساخيط الفراعين. لن يدور في خلد أيّ منهم أنّي أحفر نفقًا يُفضي إلى ما وراء اللغم. لن يتصوّر أحدهم أنّ بمقدوري إنجازَ ذاك العمل منفردًا. ثمّ إنّ الصبيّ أخرس لن يفشي السرّ. وإن ساورته الشكوك وكتب ما يدور في خلده فسَيعجز الأغلبيّة عن القراءة.

في الطريق، شعرتُ تجاه الصبيّ بمشاعر مختلطة، خشيتُه في البدء وقد حام قُرب السرّ وربّما كشفه، ثمّ شعرتُ تجاهه بإشفاقٍ حقيقيّ. فتذكّرتُ كلمات النسّاج عن نقاء سريرته، وعن اليتم الذي فطر قلبه.

كان النسّاج يعطف على حكيم، يقابله بوجهٍ باشٍّ ويهديه الطواقي والجلابيب، على الرغم من معرفته بعدم حاجته إلى الهدايا، فأبوه أكثرُ آل النجع ثراءً، لكنّ النسّاج آلمه فقدان الصبيّ أمَّه، وربّما كان حكيم يذكّره بفقدان بنيه.

- هذه طاقيّة زكريا النسّاج، أليس كذلك؟

اغتبط الصبيّ بذكر النسّاج، واتّسعت ابتسامته. أومأ برأسه أيْ نعم. عقبَ ذلك تسرّبت بيننا الحكايات، كنتُ أنا الراوي وهو المستمع بطبيعة الحال، قصصتُ عليه حكايات النجع القديم، والسيل والقدّيس، والعمّ ميشيل السمّاك وصندوق العقاب، عن العديد من المسامرات مع أختي إحسان، عن أبي الذي ورثت مهنته، وكلّ المقاعد والأرائك التي صنعها وبقيتْ شاهدةً على براعته في مداخل الدور، وعن أمّي التي لحقتْ بأبي وظلّت رائحتُها تعبّق البيت الذي ورثته عنهما.

وجدتُ في حديثي مع الصبيّ راحةً وألفةً ما عادت حاضرةً في نجعٍ تكاد تنقطع فيه المحاورات بين الناس، وبين أهل الدار الواحدة. نسيتُ لدقائق كلَّ هواجسي ومخاوفي، نسيتُ النفق والقلق، بل إنّي نسيت لوهلةٍ مولودي المنتظر!

عدتُ من حيث تركتُ حكيم مؤانسًا بأنوار العواميد، ضبطته يقف أمام صور الزعيم المثبّتة فوقها كأنّه يقرأ العبارات التي يصفها أبوه بالخالدة. تجاهلته ومضيتُ سعيدًا بأثر الحكايات، وكان هو آمنًا وادعًا، يمرّ عبر العواميد بتروٍّ كأنّه يستعيد الأقاصيص التي تلوتُها على مسمعه، فأشرتُ إليه بودٍّ حقيقي. صحت به «**في رفقتك علاجٌ للقلق والكدر يا حكيم، فلا تتوقّف عن زيارتي، لم تزل لديّ حكاياتٌ كثيرة**». لوّح لي بيده بينما ظلال الدور تبتلعه، فأوليته ظهري، وأدبرتُ شطرَ الدار.

ومع كلّ خطوةٍ أبتعد بها عن حكيم وأقترب من النفق، كان طنين الهواجس يعلو ويتعاظم. وجدتُ تأثيرَ الصبيّ اليافع -غير المُصاب بالوباء دون سائر الناس- عظيمًا، هو قادرٌ بصمته على إخراس الهواجس وبثّ الراحة في أوصالِ مُحدّثه. فكّرتُ وهلةً؛ لو علم أبوه بالأثر الذي يتركه في مجالسيه، وكيف وجدت في رفقته مصلًا يقهر الوباء، لربّما تاجر به، وقبض ثمنًا لقاءَ مجالسته!

بدأت الطمأنينة تتلاشى، فارتدّ إليَّ القلق، وعاد الخوف يساورني حيالَ فرضيّة كشف حكيم لسرّ النفق. لكنّي ما لبثت أن شعرتُ بطمأنينةٍ حذرةٍ؛ حتّى إن كانت أمور التنقيب والبحث عن الآثار غير شائعةٍ في النجع، فإنّها تظلّ أقرب إلى أذهان الناس من حفر الأنفاق.

صباح اليوم، استيقظتُ منشغلًا بأمر حكيم، وبالسرّ وراء عدم إصابته بالوباء. قضيتُ ساعات اللّيل في الحفر، حتّى تسرّبَ إلى ساعديّ الخدر، وهكذا عاودني الألم فورَ استيقاظي، استوطن الألم الساعدين والكتفين وسلسلة الظهر، لكنّه بات معتادًا في أواخر الأيّام.

شغلني الصبيّ عن الألم هذا الصباح؛ أيكون لي صبيٌّ في مثل نباهته؟ يقرأ ويكتب ويحسب ويستمع إلى الموسيقى، حرٌّ منطلقٌ يجوب الطرقات وقتما أراد؟ صبيّ على أعتاب الشباب عجز الوباء عن المساس به، وجعل الله في صمته مصلَ شفاءٍ لقوم لا يتنبّهون؟

لو لم يكُ أخرسَ لغدا شابًّا كاملًا لا تشوبه شائبةٌ سوى سيرة أمّه الهاربة، لكن هذا شأن أبيه لا شأنه هو.

لم أواصل جولات البحث عن وداد في هذا النهار. كان بحثي عنها طلبًا للأمان لا أكثر، فعنايات في صحة جيدة، ولا تراودها آلام المخاض. انخرطتُ في خيالات يتجسّد فيها وليدي القادم. رسمتُ له خلف عينيّ المسبلتين صورًا في مختلف مراحله العمريّة، فكان في أغلبها شبيهًا بحكيم ابن الخوجة؛ ربّما لا يعيب حكيم سوى تَيْنِكَ الكلمتين الملتصقتين باسمه؛ ابن الخوجة.

لا أعدّ خليل رجلًا فاسدًا رغم ذلك، ربّما يكون غامضًا يتاجر بهموم الناس كما يتاجر ببضائعه ويتلاعب بأسعارها. ربّما يكون مجهول الأصل والنسب. وربما يكون مسكينًا أُوكلت إليه مهامّ لا طاقة لأحدٍ بتحمّلها. لكنّ غالبية الناس لا يُبطنون له المودّة وإن ظهرت أعراضُها في السلام والتحايا، هم -إذَن- مضطرّون إلى قبول سطوته، حذرون من معاداته. لهذا ينفر بعضهم من حكيم، ويتّشحون بالصمت متى عبر ظلّه بمجلسهم. لاحظت ذلك -بطبيعة الحال- قبل شيوع الانعزال عقب سقوط سهم الله. والغريب أنّ أغلب من اعتادوا إظهار الودّ لحكيم كانوا على خلافٍ مع الخوجة، فأمثال زكريا النسّاج، والخالة وداد التي لم يُعرف سببٌ مفهومٌ لمعاداتها الخوجة ومراوغاتها المستمرّة له حيال سداد حسابها، كانوا الأكثر عطفًا على حكيم والأغزر مودّة، ذلك بخلاف شواهي؛ الفتاة التي أثق بكونها طيّبة، ولا أنكر أنّها ساحرة الألباب وربّة الفتنة الأبديّة.

فلشواهي وجهٌ سحريّ، وعينان فيّاضتَان بأطياف الوعود. وجهها الذي كان قِبلة النظّار ومنارة العابرين، طالما أجبرني على إطالة أمد النظر إليه والتمعّن فيه. ينساب الحديث عن جسدها الملفوف من شفاه الحضور مبلَّلًا برغبةٍ مكتومةٍ وشبقٍ متوهّج، يحاوطونها بسياج رغبةٍ حتّى تمضي فيشيّعونها بنظراتٍ ساهمةٍ وعيونٍ أثملها الخيال. بيد أنّي كنت، على الدوام، ناسكًا خاشعًا في محراب وجهها، أقيم اللّيل في استرجاعٍ حثيثٍ لكلّ التفاتة، وكلّ نظرةٍ لُغزيّة تبوح بكلماتٍ لا تنطق.

مرّت ساعاتُ اليوم في عجالة. بدا النفقُ أعمق ممّا ظننت وأردت، غورًا سحيقًا يفضي -ربّما- إلى ممالك الجنّ. نبّهتني عنايات إلى أن ألتزم بالحفر الرأسيّ المحسوب، ثمّ المضيّ أفقيًّا في رحم الأرض. حذّرتني من الغوص إلى أسفل، لكنّي كنتُ في قرارة نفسي أهرب من النور، ففي غياب النور تتلاشى الظلال وتندثر.

في بطن الأرض، اعتدتُ الهروب من خيوط الضيّ، أُخمد المشاعل وأطفئ لمبات الكيروسين كلّما اطمأننت إلى تعاريش السقف، ثمّ أضرب الأرض محمومًا، مدفوعًا بكلّ الهواجس. لكنّ الظلالَ ظلّت تتبع خطاي، وتصيخُ السمع إلى كلّ صوتٍ تحدثه ضربات الفأس وطعنات المعاول، تحتشد من خلفي كأنّها تنتظر العبور، لكنّ العبور مؤجلٌ، والنور المنشود في آخر النفق مقبوضٌ عليه بيدٍ عنيدة.

لم أعد مع انبلاج الفجر كعادتي، بقيتُ أغمض عينيَّ وأدكّ الأرض بغضب. لم يبلغني نداء عنايات عندما تمدّ رأسها من مدخل

النفق فيجيئني صوتُها مخنوقًا ملاحقًا بالأصداء. وذهبتُ إلى أنّها نامت، فأسعدني حدسي، إذ أضحى للنوم في هذه الأيّام مذاق النصر.

رحتُ أُحكم التعاريش الخشبيّة التي أدشّن بها سقفًا يحول بيني وبين الموت ردمًا، وأحسبُ ما يلزمني من أعوادٍ وألواحٍ أعضّد بها جسدَ النفق حتّى أنتهي. عددتُ الخطوات التي قطعتُها تحت الأرض إبّان عودتي، ثمّ كرّرت العدَّ فوق الأرض بعد خروجي، حاسبًا ببصري المسافة التي يلزم قطعها، مضيفًا إليها ثلاثين أو أربعين ذراعًا إضافيّةً على سبيل الاحتياط. استنتجت أنّي قطعت شوطًا من الحفر أسفل الترعة.

غادرتُ النفق والسماءُ صافية لا يشوبها غيمٌ ولا طير. شعرتُ أنّ الخلاص يغدو أقربَ في كلّ صباحٍ عمّا سبقه. أدبرتُ إلى الدار، فألفيتُ عنايات جالسةً على المصطبة وهالاتٌ سوداء تُظلّل عينيها. ربّتُّ بطنها المنفوخ باسمًا، فألقت رأسَها على كتفي بعدما اقتعدتُ الأرض أسفل قدميها. بكتْ من دون مقدّماتٍ، فانتفضتُ. سألتها عمّا إذا كان شرٌّ حلَّ بها أو بالجنين، فنفتْ. ثمّ أشارت إلى الحائط من خلفنا حيث كُتِبَت عليه منذ أيّامٍ عبارةٌ لم نهتمّ بمعرفة فحواها، سألتها:

– وما الجديد؟ كلّ بيوت الدور موشومةٌ بعباراتٍ سيّئة معيبة، ثمّ إنّ العبارات فوق الجدار منذ أيّام، فلماذا استبدّ بكِ حزنُك اليوم؟

مسحتْ وجهها تجفّف الدمع بطرف الشال، قالت:

-النجع على كفّ شيطان، وجلسات النحّال مع الرجال تدفع النجعَ إلى اشتعالٍ قريب، أخشى أن تسبق النهاية انتهاءك من الحفر.

-وما شأن ذلك بالعبارة التي لطّخت بيتَنا الهانئ؟

قلتُ باسمًا وأطرقتُ كمَن يخشى الإجابة، فأضافت:

- جافاني النوم وأنا أتصوّر استجابةَ الناس للنحّال، وهجومهم على الخوجة بطريقةٍ لا أعرفها، أو مصرع النحّال في نهايةٍ شبيهةٍ بمصير النسّاج، فجلستُ على المصطبة ودعوت الله أن يرفع الكرب ويزيل البلاء.

أومأتُ إيجابًا، وأعدت سؤالي الأخير، فاستفاضت:

-وأنا قابعةٌ في انتظارك، هلّ الفجر، فمرّت بي امرأةُ الحدّاد، وكان برفقتها صبيّها ربيب الكتاتيب، ذاك الصبي الذي قرأ الكلمات على دار الخالة وداد. شعرتُ برغبةٍ مفاجئةٍ في معرفة المكتوب، فناديتُهما بعدما أغلقتُ مدخل النفق بألواح الخشب ووضعت العربة الصفيحيّة فوقه. اقتربَا بحذر، فوقفتُ بينهما وبين مدخل النفق إمعانًا في اخفائه عن عينيهما، ثمّ طلبتُ من الصبيّ قراءة المكتوب، فتردّد ثمّ فعل، قبل أن يغرق في الصمت، حين كررتُ السؤال، فمال على أمّه يهمس لها بعباراتٍ لم أسمعها، ثمّ مدّ الخطى، ووقف بعيدًا ينتظرها.

سكتت عنايات، فجعلتُ راحتها بين كفيّ ورحتُ أربّت عليها وأقبل أناملها، قاطعتها:

- لا حاجة بي إلى معرفة المكتوب يا عنايات، يا مهجةَ القلب وأمّ الصبيّ والنبيّ. ما كُتبتْ فوق جدران الدور سوى الإساءات، وما استفاد من قراءتها أحد، النحّال جُنّ جنونه، والخالة وداد أمست طريدةً لا نعرف إذا كانت الساعة فوق الأرض أم تحتها، والكلّاف قالوا إنّه يأتي الفاحشة مع مواشيه، والدبّاغ اعتزل الدنيا ويقيم في دار النسّاج. لا حاجة بي إلى معرفة، أتوسّل إليكِ!

مالت بجذعها نحوي، وانتحبت:

- عدني ألّا يفرّق بيننا شكٌّ ولا قلق.

وعدتها وأقسمتُ، كرّرتُ طلبي بعدم الحاجة إلى المعرفة، فهزّت رأسها مُصرّةً على إبلاغي. أطرقتُ كمَن ينتظر ضربةَ الصاعقة، فأردفتْ بنبراتٍ مرتعشة:

- قالت المرأة إنّ الشياطين التي تلوّث الجدران تجزم أنّك عقيم، وأنّ رجلًا سواك هو مَن غرس الجنين في جوفي.

بُهتُّ، بكيتُ، فزادتْ من عناقها المحموم. انهالت على رأسي المطارق، وشقّت نصالُ الشكّ صدري، رحتُ أفنّد الأمورَ في عجالة، كيف تحبل عنايات ومائي معطوب، ما لم تَرْوِها عين أخرى؟ أطرح السؤال، ثمّ أسوق لنفسي ما يعارض الشكوك؛ لكنّها حبلت بعد انقطاع طمثها، وفي ذلك تتلخّص المعجزة.

بقيتُ أهمي الدمعَ على صدرها وهي تهدّئني مُقسِمةً أن لم يمسسها بشرٌ غيري، وأنا أهزّ رأسي مصدّقًا وجازمًا. هذا الجنين نبيٌّ لا ريب، والنبيّ لا يولَد من سفاح، لذا فقد استقرّت في عقلي خاطرتان استحسنتُهما واتّسقتا مع سابق تأويلي؛ لو اتّفق الناس على أنّ كاتب العبارات كذوبٌ، فلِمَ صدّقوا ما كُتب عن النحّال والدبّاغ، والكلّاف، ووداد؟! وهكذا؛ إن ثبت صدقُ ما أدّعي وكنت أنا عقيمًا، فما عنايات سوى بتول أخرى أنبت الله في أحشائها جنينًا من عدم!

تلوتُ عليها استنتاجي، فجحظتْ عيناها فزعًا، وراحت تنظر إليّ كأنّي ممسوسٌ أصابه الخبل. قبّلت رأسَها، وعدتُ إلى النفق، مقرِّرًا ألّا أعود إلّا لاصطحابها، حيث تلد النبيَّ على الجانب الآخر -المضيء- من العالم.

أنا من تراب والإرادة هي سرّك فيه
تنوّره بحكمتك وبرحمتك تهديه
تراب وسرّك إذا مس التراب يحييه
إلهمني حب الخير، حب الجمال والحقّ
خليني أقول للشيطان مهما غواني لأ



عبد الحليم حافظ

كلمات: عبد الفتاح مصطفى

لحن: محمد الموجي

سهم الله لم يصب عدوّ الدين

السماء صحراء برتقاليّة، تسرح فيها غيومٌ شهباء تتمدّد في صفحة أفقٍ لا نهائيّ، انعكس المشهد على صفحة الترعة، فغصّت مياهها بطيورٍ هربت من قيظٍ قاسٍ، وتساءل الشيخ أيّوب وهو يمشي الهوينى حذو ضفّتها: أيسيرُ هو مقلوبًا، أم انقلبت الدنيا فوق رأسه؟!

خيّم الغروب على وِهَاد النجع، فانسكب الظلامُ على كلّ سهبٍ خفيض، بينما ظلّ النهار حاضرًا فوق البيوتِ العالية. أجمَات شجرٍ كثيفةٌ راحت تحجب عن عينَي الشيخ نصفَ شمس الأصيل.

مدَّ الشيخ الخطى على غير هدى. تتعقّد الأحداث يومًا بعد يوم، المشاحنات في اطّرادٍ متواصل جعله يوقن في قرارة نفسه أنّ انفجارًا وشيكًا يلبّد الأجواء، ويُثقل الهواء بترقّبٍ يشوبُه ذعرٌ ما عاد مكتومًا، ربّما يطلق الله سهمًا آخر على أعدائه الخفيّين، لكن هل أصاب السهمُ الأوّلُ عدوَّ الله؟!

تلاشت قممُ الأشجار والنخل ببطءٍ حتّى توارت خلفَ الأفق الساكن، النجع مكسوٌّ بألوان الشفق. لا شيء يدلّ على استمرار الحياة سوى رفرفة طيورٍ تعود إلى أعشاشها.

لطالما تجاهل الشيخ تلك الظلال، وربّما اعتاد وجودها كطيف القطّ الأسود. بات السراب جزءًا من مشاهداته اليوميّة. انسكبَ الأسود على صفحة السماء في غضون دقائق مزيحًا لون البرتقال. كانت هسهسات اللّيل رفيقة سهره طيلة أيّام الصبا، لكنّ صدره مشحونٌ بالخوف.

قطع الطريق إلى الجبّانة. أراد أن يأنس بزيارة أبيه قبل إقامة صلاته المنتظرة، يودُّ لو ينهل من قدراته الشيء اليسير، فيستشرف المصائر ويبعد الشرور. اقتعد الترابَ إلى جوار الضريح، ثمّة آثارٌ لشموعٍ ذابت وانقضت كما انقضى من عمره ما يجاوز ستّة عقود. أخذَ يُسرّ لأبيه بهواجسه، يحكي له عن رضيعه المقتول، يدمع، ثمّ ينشج باكيًا، ويشكو ضيقَ ذات اليد. يسمع مواء القطّ الأسود، ويعلو على مبعدةٍ من مجلسه ضجيجٌ لا يعيره انتباهًا. ما عاد قادرًا على تمييز الحقيقيّ من المُتخيَّل، الوقائع والهواجس والرؤى باتت غزيرة متداخلة.

يعرف أنّه يقف على تخوم الجنون، لكنّ المسؤوليّة التي أحنت ظهره خلال الأسابيع الأخيرة تدفعه إلى مقاومة الانهيار؛ مسؤوليّة التوسّط بين الخالق والعباد بغيةَ رفع البلاء تقصم ظهره، وكلّ أمله أن تؤتي صلاتُه المبتكَرةُ ثمرَها خلاصًا وانعتاقًا.

ستكون صلاةً عامرة بالتضرّع والدعاء، قوامها سجدتان بلا ركوع. تبتدئ جلوسًا وتنتهي جلوسًا، بذلك سيهوّن الأمرَ على الشيوخ والعجائز، ويشجّعهم على الانخراط في مناسكها. ولأنّها

صلاةٌ غير مألوفة، قرّر أن تكون جهرًا لا يُسِرّ فيها بحرف. سيجهر بكلماته جلوسًا وسجودًا، سيصرخ بالابتهالات بغيةَ نوال الرضا والصفح، وسيحرص على رفع صوته حتّى يُحسن الناسُ الإعادةَ والتأمين من ورائه. لم يستقرّ رأيُه بعدُ على الآيات والأدعية التي سوف يتلوها، لكنّه قرّر تلاوة الآيات السبع المنجيات في أوّل السجدات. لن يقرأ التشهّد في الصلاة، سيسجد ويتضرّع ويدعو، ثمّ يسلّم الأمرَ لله، ويرتضي بقضائه وعَدلِ ميزانه.

قضى الشيخ اللّيلَ ينشج قربَ قبر أبيه، ذابَ كما تذوب الشمعات، تضاءل جسده، تكوّرَ على نفسه كجنين، فتصوّر لحظاتٍ لفظ خلالَها جنينُه أنفاسَه بين كفّيْ وداد. تمرّغ جلبابُه في التراب، نالَ الغبار من وجهه وعمامته وخضّب لحيتَه، ثمّ راح في سبات لم يعرفه منذ أسابيع. انسحب الظلام، وبزغت الشمس، فمضى الشيخ إلى مسجده.

راودت الشيخ أكثرُ من رؤيا لم يقاطعها صوتُ آذان الفجر، فالشيخ هو المؤذّن. لذا مرّ الفجرُ لأوّل مرّةٍ من دون صلاة. شاهد إبّان سباته جنودًا يسقطون من حافّة جبلٍ شاهق، وأصوات رصاصاتٍ تدوّي من كلّ صوب. تعالت صرخاتُ الجنود المضرّجين بدمائهم، سقطوا في هوّةٍ سحيقة، ثمّ سرعان ما تسلّقت ظلالُهم الجبل ذاته راكضةً في اتّجاه النجع.

منذ يومَين، توقّف صدور جريدة «صوت الحرب» لأوّل مرّةٍ منذ عقدٍ من الزمن. أعلن الخوجة أنّ عطبًا أصابَ آلةَ الطباعة،

فلم يهتمّ أحد. قال الشيخ إنّ الأعطاب شائعة في قاموس الخوجة، فالسيّارة معطوبة، والمذياع إمّا معطوبٌ وإمّا فرغت بطّاريّته، وها هي المطبعة قد عطبت.

ظلّت حدّةُ نظرات الناس تؤرّق الشيخَ وتؤجّج شكوكَه في وجود أمرٍ يُرَتَّب في الخفاء. لاحظ تكرارَ الاجتماعات التي يعقدها النحّال خلفَ أستار الظلام مع أناسٍ لم يُبدِ أيٌّ منهم اعتراضًا حيال أيّ شيء منذ سنوات. بيد أنّهم باتُوا الآن كثيري الشكوى، سريعي الغضب، متأهّبين للاشتعال مع أوّل شَررٍ عابر.

تلاشت شبّورة الصبح كأنّ النهار يرفع حجابه أو شواهي ترفع جلبابَها كاشفةً عن ساقَين بلون الحليب. يستغفر الشيخ ربّه عقب استحضاره مشهدَ الغجريّة، ثمّ يغمض عينيه محاولًا طردها من مخيّلته، لكنّها تستقرّ في دماغه كعادتها، تراوغه ببسماتها وغنجها ونظراتها المغوية. يتصوّرها الشيخ ترقص في باحة المسجد، يتلوّى ظلّها فوق الأعمدة، وتميل كاشفةً عن سفوح نهدَين متوثّبين ينشدان التحرّر من جلبابها الضيّق. يهزّ رأسَه بعنفٍ، فتتوقّف عن الرقص، وتتمدّد على الدرج الخشبيّ المفضي إلى المنبر، وتداعب شفتَها السفلى بسبّابتها، فتكشف عن أسنانٍ مستوية، ولسانٍ يُجِيد التلاوةَ بكلّ اللغات، لكنّ حرفًا واحدًا لا يصدر عنه.

تؤرّقه كثرة استدعائه طيفَها في المسجد، فيلقي عليها باللوم، رغم علمه بتكرار تغاضيها عن زيارته -متخفّيًا- إلى الحانة في النزع الأخير من اللّيل. لطالما غضّت عنه طرفَها متظاهرةً بعدم

تمييزه. وَقَرَ في قلبه اشتهاء تجاهها، فلم يمنعه شيءٌ عن مواصلة تجسيدها خلفَ جفنيه، أرادها خليلةً ورفيقة، زوجةً ربّما، نديمةً ربّما، أرادَها في أيّ صورةٍ تقبل بها، لكنّ عمامتَه وقفطانَه غُرِسا بينهما كسياجٍ من حمم جهنّم، لا يقدر على عبوره، ولا يقوى قلبُه على جذبها إليه.

يتوضّأ، ثمّ يعيد الوضوءَ عقب كلّ شرود، يصبّ الماء من إناءٍ نحاسيٍّ مزخرف، فينسكب في حوضٍ خزفيٍّ طالما غسَلَ فيه ذنوبَه. يطالع انعكاسَ وجهه في مرآةٍ مثبّتةٍ في مواجهة الحوض، يطوف بين التجاعيد، ويستدعي مشهدَ خصلاتٍ بيضاء طالما سرحت في شعره وأطراف لحيته. يحزّ في قرارة نفسه أنّه لم يستطع أن يصبح مثل أبيه، وإن جمعهما تشابهٌ شديدٌ لاحظه العوامّ، قبل أن يمنحه الوباءُ رأسًا كالحصاة. ظلّ متشبّثًا بطرف جلباب الوليّ، لكنّه لم يقترب يومًا من مكانته المقدّسة.

يظلّ جعفر المنسيّ هو الوليّ على الرغم من كلّ شيء، هو صاحب الكرامات، نظيف القلب والعين واللسان، أطهر الناس، أتقاهم وأغناهم، أعلاهم شأنًا وأكثرهم ورعًا وصلاحًا. أمّا هو فليس سوى ستّينيٍّ ورثَ عن أبيه عمامتَه وقفطانَه وبعضَ ملامحه، كهلٍ لم يفلح في إنجاب الوريث، ضالٍّ يحتسي العرقَ من آنٍ إلى آخر، ولا يتوقّف عن اللهاث خلف ظلّ الغجريّة، كأنّ أسرارَ الحياة ومفاتيحَها مطمورةٌ في بقعةٍ مّا من جسدها النورانيّ.

يقتعدُ الدرج الخشبيّ للمنبر، وعيناه ساهمتان شطرَ بابٍ مفتوحٍ

لا يعبُره أحد، يُفلح الوضوء المتوالي في تنحية طيف شواهي، فيعود إلى التفكّر والتدبّر.

كانت الحرب الجارية منذ سنواتٍ هي الدافع والغاية. وُلدتْ صاخبةً وظلّت شابّةً لا تشيخ، جليّةً تطلّ من أحداق الناس، تنعكس في أكواب الشاي، وتتصاعد متراقصةً كالحيّة من أدخنة الجوزة، والصهد السابح فوق الأفران والكوانين، تبتلع الأيّام وتطوي الأعمار في مظاريف تُرسَل فارغةً من الأوراق من دون عنوانٍ يدلُّ على المُرسِل.

تُقرَع طبولُ الأعراس فترتدّ الأصداء حاملةً أصواتَ القصف ودويَّ مدافع الهاون. النجع نائمٌ على مسافةٍ من نقاط الاشتباك، لكنّ صخب البارود ظلّ حاضرًا فوق السُّرر، لذلك لاحت النهاية منذ زمن. لا مفرّ من الحرب وإن راوغتنا جبهاتها، لا مفرّ من المواجهة ولو مرّةً واحدة، أولى وأخيرة، فهل تُجابَه الحربُ بالحرب؟ والبارود بالبارود؟ حتّى لو بقي العدوّ مجهولًا بعيدًا عن المتناول؟ أينخرط الناس في اقتتالٍ ذاتيّ؟ أم ينجح الشيخ في درء الفتنة وطرد الوباء وتصفية العقول؟

عبرت فكرةُ الصلاة مخيّلته، أقبلتْ كأملٍ يُطلّ من ثنيّات الحصار. سيواجه الحرب بالصلاة، وسيقف الله بين المتصارعين لِيَئِدَ الاقتتال في مهده، سيجهض التناحر ويطرد الهواجس. ربّما لم يصب سهمُ الله الأوّلُ ذلك العدوَّ الغامض لحكمةٍ استغلق على الشيخ إدراكها، لكنّ الصلاة ستؤتي أُكلَها كشجرةٍ طيبة، أصلها في قبر

الوليّ وفرعها في السماء. حينئذٍ سيرقد النجعُ آمنًا، لا تحرّكه المدافع ولا تؤرّقه أخبارُ الحروب.

يشاغل شرودَه ظلٌّ عابرٌ لصبيٍّ يافعٍ عريض الصدر، يعتمر طاقيّةً يُراد بها إخفاء خصلاته. يقترب بروّيّةٍ محاذيًا جدرانَ المسجد التي خُطّت عليها كلماتٌ عن الرحمة والحساب. يقف أمامَ الباب مطالعًا الشيخَ المتقوقع فوق درج المنبر. يتحسّس الشيخُ صلعتَه أسفلَ عمامته، وينتفض في مجلسه معتدلًا. يحاول رسمَ ابتسامةٍ فوق وجهٍ سكنته الهموم. فيقف الصبيّ ويشير بسبابته إلى الكلمات المكتوبة على المسجد مستفهمًا من الشيخ عن مأربها. لا يواجه الشيخ الكلمات، لكنّه يسترجعها في أذنَيه، ويستدعي عباراتٍ مشابهةً كُتِبت على داره القريبة، تحوم في أفلاك السكر والعجز والتضليل والتخاذل. يقترب الصبيّ فيجلس أسفل ظلّ الشيخ، يُربّت العجوز طاقيّتَه، فينكشف شعره. يجفل الصبيّ ويسارع بإخفاء الدليل على نجاته من وباءٍ لم يرحَم غيره. يتجاهل أيّوب الأمر، ويخاطب الصبيّ الصامت:

-صبرًا جميلًا يا حكيم، فالقمر لا يُولَد بدرًا، يلزمه زمنٌ حتّى يتحوّر ويتعاظم فيشتدّ ضياؤه. أمّا وقد اكتسى عودُك بالخضار، وعصفت بك ريح الابتلاء والمحن، فاصبر يا فتى، اتّشِح بالصبر وتسلّح بالرضا، لكلّ نهارٍ أوان، وإن طال بك اللّيل أو ظننتَ به الغبن والمخاتلة أغمض عينيك واصبر، اتلُ صلاتك فالقلق إلى زوال، ولكلّ وباءٍ مَصْلٌ ابتكره

الأسلاف، وما من لقاحٍ لآفتنا سوى الصبر والإيمان، والرضا والاحتساب، واللجوء إلى العلّام بذات الصدور، جلّاب الظلام ومُنبت النور.

صلِّ معنَا يا حكيم، ففي ابتهالاتك الدامعة مناجاةٌ للرحمة، ووساطةٌ للنجع بأكمله أمامَ عرش الرحمن، صلِّ، لعلّ صوتك المحبوسَ يبلغ السماءَ ويكون لدى العليّ القدير مسموعًا أكثر من أصواتنا مجتمعة، صلِّ، لعلّ الله يزيح عن كاهلك البلاءَ ويردّ لك الغائب، ويُجنّبنا لقيَا المصائب.

يتكوّر الصبيّ في ركنٍ قصيٍّ من المسجد، يضمّ ركبتَيه إلى صدره وينشجُ في صمت. يرتجُّ جسدُه فيواصل الشيخ تربيتَ كتفَيه ورأسه. يرفع رأسَه لسماع كلمات الشيخ، ثمّ لا يلبث أن يسنده إلى ركبتَيه.

بدا للشيخ أنّ حكيمًا يتشبّث بجدران بيت الله منارةَ نجاةٍ لا يعرف سواها.

- ستحلّ رحمتُه ولو بعد حين، وسيحاسب كلّ مَن أفسد أو سعى بين الناس بالضرر والشرور. انضمّ إلينا يا حكيم، فقد استعمر الناسَ القلقُ وباتوا يشكّكون حتّى في جدوى الصلاة، أَبحثُ عن المصلّين فتراوغني الأغلبيّة، يقولون إنّ الصلاة لدحر القلق بدعةٌ مستحدثة، فأقول إنّها لن تضرّ، وإن عجزت الصلاة عن دفع الضرر، ما زادت منه ولا أشاعت المزيد من الأسى. وحدها الصلاة قادرةٌ على كيِّ الشك باليقين.

وجه الصبي غارقٌ في دمعه، ينشج، فترتجّ كتفاه، والخوف يُشهر راياته من عينيه المذعورتين، يهزّ رأسه للشيخ كمَن يترنّح. يعيد كتابة العبارة التي لطّخت حائط المسجد على وريقة، يضعُها في يد الشيخ، يطالعها أيّوب ثمّ يضعها في جيبه.

بغتةً، يبتعد الشيخُ عن الصبيّ، ويسارع إلى استقبال أبيه، خليل الخوجة. يتمتمُ بعبارات ترحابٍ متعثّرة، تُعبّئ رأسَه أصداء الكلمات السوداء، تنسلخ عن الجدار وتفرّ من الورقة المطويّة في جيبه، مردّدةً سؤال حكيم الذي يتفادى الإجابة عنه:

«متى تحين ساعة الرحمة؟ وأنّى يحاسب المُفسدون؟».

النجمة مالت ع القمر فوق في العلالي
قالت له شايفه يا قمر أفراح قبالي
قال القمر بينا نسهر على المينا
ده النور على شط القنال سهران يلالي



عبد الحليم حافظ

كلمات: محسن الخياط

لحن: محمد الموجي

شواهي

استيقظتُ والهواجسُ تبارزني بفكرةٍ تُلحّ منذ ليالٍ على خاطري.

جلستُ عند طرف الفراش، وجعلتُ أغزل ضفائري قبل أن أخفيها بعنايةٍ أسفل غطاء رأسٍ مُحكَم. ثمّ باغتَني قرارٌ تأخّر سنوات: لن أنتظر الفارسَ وقد ولّى زمانُ الفوارس، وضلّت قوافلُ النجاة إلى نجعنا السُبل.

فلطالما حلمتُ بفارسٍ يهبط الكثبانَ إلى النجع فوقَ جوادٍ أشهب. يحطُّ رحالَه أمام الحانة، ويهبط من فوق جوادٍ كأنّه بساطٌ سحريٌّ لا تلامس الأرض قوائمه.

كلّ ليلةٍ أرتّب الفراش وأزيّنه بالمفارش المطرّزة والوسائد، أنتظر هبوط الفارس، أحلم به حتّى يتجسّد طيفًا في خلوتي، يمسّد شعري، ويتحسّس جسدي بكفَّين تلهبهما الرغبة. ثمّ يحطّ الأرقُ في الفراش، يزيح القلقَ طيفُ الفارس، تتفتّت السماء، فيجمع اللّيل شظاياها، تلتمُّ، تتّكئ على نافذتي فيّاضةً بالوعود، فأعيد ترتيبَ الفراش، وأزيّنه بالمفارش والوسائد ذاتها، تفوح مسامي بأريج الرغبة، فأقفز داخلَ ثوبٍ غجريٍّ يفضح أنوثتي، ولا يطفئ العطش المتأجج في مكامن السرّ.

آلاف العيون تبتغي وصالي، أشعر بنظراتهم تعتصرُ نهديَّ وتنفذ في جلدي، تخترق الجلبابَ وتباعد بين ساقيّ، يسيل لعابُ العيون على فخذيَّ. الوصال الذي أبتغيه لا يشبه ذلك، ولا تلك محطّة الوصول المحمومة التي أصبو إلى ملامستها. ليس بين هاته العيون ما استقرّ في رأس الفارس، عينَا الفارس تنضحان بحنوٍّ يهدّئ فورتي. لا فوارس في النجع، ولا عيونَ تنضح بغير الشهوة. كلّما نفذتُ ببصري في عيون المحدّقين، وجدتُ انعكاسًا لعُريي في مخيّلاتهم، رأيتُني عاريةً في ألف صورة، وبألف وضع، ومن خلفي ومن فوقي وتحتي ألفُ ظلٍّ لاهثٍ ينشد اللذة، وأنا الغجريّة الحرّة لم أُخلَق لهذه اللحظات، إنّما جئت لأُعبَد دهرًا بأكمله، هكذا سيُنصّبني الفارس، سيدلّلني ويزرع القرابين تحتَ قدميّ، وهكذا سأمنحه الهبة الربّانيّة التي بذرها الله في جسدي آخرَ أيّام الخلق. سأكون له الفيض من بعد الجفاف، والمطر عقب عصور العطش.

لذا حافظتُ على سُنّتي في ترتيب الفراش. بقيتُ وفيّةً لتلك العادة، وظنّي أنّ اليأس لن ينخُر سُتر الأمل، فإذا أطلّ عليَّ ذات ضجر، نازلتُه بالأغنيات والأهازيج:

يا خوفي من أمّك تسألني عليك
لاحطّك في عيني، واتكحّل عليك
يا خوفي من أختك تدوّر عليك
لاحطك في شعري يا عيني، واتضفّر عليك
وإن جتني العوازل، تسألني عليك

لاحطّك في صدري يا روحي، واللولى عليك

الحنة يا حنة، يا قطر الندى

يا شبّاك حبيبي يا عيني.، جلّاب الهوا...

واليوم ليس مغايرًا للأمس، إلّا في إشهار راية الكُفر بقدوم الفارس. طوفانٌ من الذكريات راحَ ينصبُّ على رأسي في أواخر الأيّام؛ وضعت السماء شقفةً من نور على الرؤوس، ثمّ أمطرت النجع بالحجارة، وأنا هائمةٌ بين الدروب أحسب سنوات عمري، أسترجع طفولةً ذابت ملامحها، وارتحالًا بلا بوصلة رفقةَ شخوصٍ تاهت ملامحهم. كلّ شيءٍ تبخّر في عقلٍ يصهره التكرار، إلّا يدًا واحدةً لرجلٍ راح يتحسّس جسدَ الطفلة التي كُنتها، ويستشرف نموّ ثمرها قُبيل موعده. قلبي يواصل الترحال مع القافلة، وجسدي هنا يُشعل الوله في القلوب حيثما مضى، يظلّ مصونًا وإن حاصره اشتهاء العيون. اعتدت الهروبَ من رتابة الدروب وعابريها، إذ ظلّ الهواء الحرّ خلف حزام اللغم يغويني. لا يعرف أحدٌ أنّي تجاوزت طوقَ النار أكثر من مرّة، حفظتُ سكّةً أقطعها كلّ مرّةٍ فتودي بي إلى ما خلف الزمان الموثّق في جريدة الحرب. حتّى الخالة وداد لم تكن تعرف بمخاطرتي تلك، كرّرت الأمر مرّاتٍ ولم أشعر بالخوف، حتّى انشقّت السماء عن نورها المكنون.

كنتُ قريبةً من موضع الانفجار، لا أذكر التفاصيل، لكنّ الكون -ساعتئذ- اكتسى بالأبيض من دون مقدّمات. لا أعرف هل سبق الدويّ الضوء أم العكس، لكنّي شعرتُ بخفّةٍ تليق

بالفراشات، فقدتُ الشعور بوزني دفعةً واحدة، واتّشحتُ ببياضٍ اندمج مع أبيض السماء، رأيتني كعروسٍ في ليلة زفافٍ تأجلتْ كثيرًا، والسماء من خلفي كأنّها ذيلُ فستان العروس، والدويّ يحاكي إيقاع طبول العرس، الأحصنة البيضاء والشهباء ترقص من تحتي في نشوةٍ، لم أرَ بشرًا ولا فوارس. أنا والضوء والقمر والجياد والأفق المتجدّد فحسب، كأنّ الحياة كانت تَنشأ من عدم، ربّما هكذا تشكّل الكون أوّل مرّةٍ، جعلتُ أحلّق في مضمارٍ أبصرُ على جانبَيه الغبار، أطير ومن خلفي يتماوج فستان العرس، قبل أن أهوي بغتةً فوق أرضٍ صلبة.

أتذكّر الآن، الألم يمزّقني، جلبابي ممزّقٌ مملوءٌ بالحصى، والتراب يكاد يغطّي كاملَ جسدي، الضوء ينحسر في كوّةٍ سماويّةٍ تنكمش من بعد انفراجٍ، أصداء الدويّ الأوّل ترجُّ الدور فتقفز الظلالُ في محاولةٍ فاشلةٍ للهرب، صوامع الغلال وأبراج الحمام تتأرجح حتّى تكاد تتماسّ من فوق أسطحها، صراخٌ ونحيبٌ يمهّد لفراق الأحبّة، لكنّ الغبار لا يلبث أن يرتدّ ليفترش الأرض، فتعود كلّ ذرّة غبارٍ إلى موضعها.

استجمعتُ شتاتي. لم أتذكّر موضعي وقتَ حدوث الانفجار، ولا سببَ وجودي في أيّ بقعةٍ من الأرض، كلّ ما أعرفه أنّي كنتُ بعيدةً عن داري وحانتي؛ خلف حزام الألغام، أطلال النجع والجبّانة على الجانب الآخر، وأنا مزروعةٌ بين لافتاتٍ قالوا إنّها وضعت لتحذّر الناس من الموت.

فكّرتُ وهلةً، لماذا يقضي الله بموتي فوق لغم بعدما مدّ يدَه لينتشلني من مركز الانفجار؟ رحتُ أدقّ أعمدة اللّافتات الصدئة بغصنٍ جافّ، حاولت أن أصنعَ جلبةً تُثبت للناس أنّي هنا، حيّة في قلب الخطر. فوق الكثبان لمحتُ جِمالًا ترعى: أتكون نوق الكلّاف الهاربة؟ شتّت انتباهي أن لمحتُ أضواءَ عرباتٍ ضخمةٍ تعبر مسرعةً على مبعدةٍ منّي. دارت العربات كالدوّامات. تتبّعتُ آثارَ العجلات تحت سماءٍ أضحتْ صافية، فمضيتُ في اتّجاهٍ معاكسٍ للنجع.

يومذاك، سرتُ حتّى أعيانِي التعب. أيقنتُ أنّي ابتعدتُ أكثرَ ممّا ظننتُ. اختفَى النجعُ خلفَ الكثبان العالية، لكنّي وثقتُ أنّ اللّافتات الزرقاء حتمًا ستسهّل الاستدلالَ على طريق العودة. لا أذكر كم مضَى من الوقت حتّى فقدتُ وعيي. رأيتُني أهربُ من قافلة الغجر، فاشتقتُ إلى وجه الخالة وداد، وطمأنينة تبثّها عيناها في أوصالي. ثمّ أفقتُ ورأسي متّكئٌ على ساق غريبٍ في لباسٍ مرقّط، يبدو عليه الفزع.

جعلَ يصبُّ الماء على وجهي، ويضرب خدّيَّ بقفّازٍ جلديّ، يسألني بلكنةٍ غير مألوفةٍ عمّا أتى بي إلى هذه الأرض الخلاء. حاولَ الاستعلام عن معسكرٍ مّا، وعن مستشفًى قريب. ثمّ تحدّث مع زميلٍ له عن مرضى لا ينبغي لمسُهم. كرّرتُ اسم النجع، طفقتُ أقول إنّي آتيةٌ من نجع المناسي حيث حدَث الانفجار، فكان يهزّ رأسَه غير عالمٍ بما أدّعي، وإن أومأ برأسه مُدلّلًا على علمه بحدوث انفجارٍ مّا. تبادل مع زميله حديثًا هامسًا، ثمّ تركَ إلى جواري بضعَ

لفافاتٍ وقنّينةَ مياه، قبل أن يعود إلى عربته، ويمضي مسرعًا، ينفض يديه، ويغسل قفّازه بالماء.

فضضتُ اللفافات فوجدتها تحوي طعامًا، ضايقني أن يتعامل معي الغريبُ معاملةَ جرذٍ أو قطٍّ جائعٍ يلقي له بضعَ لُقَيْماتٍ ويمضي. لم أفهم ما جرى، لكنّي قضّيتُ اللّيل سائرةً على غير هدًى، خائفةً تتناوب على وحدتي أطيافُ الراحلين ولا مؤنس لي سوى عواءُ الذئاب.

مضتْ ساعاتٌ لا أذكر عددَها وأنا أحاول اقتفاءَ آثار عجلات السيّارات. شرعت الآثار تتحوّل عدمًا كلّمَا اعتقدتُ أنّي اقتربتُ منها. كدتُ أضلّ طريق العودة، نفد الطعامُ والماء على الرغم من حرصي. طاردتُ آثارَ الجِمال حتّى وجدتُني حذوَ شريط السكّة الحديد، فهتفت؛ القطار حقيقيٌّ إذَن...

لم يكن وهمًا كما يكادُ الناس يؤمنون، صوتُ الصافرة الذي اعتدنا سماعَه قديمًا لم يكن خيالًا، أينما وُجدت القضبان يمرّ القطار لا ريب. تمدّدتُ فوق الفواصل الخشبيّة المتهالكة، تصفّحتُ السماء بعينَين حالمتَين، ولم يمرّ القطار.

في آخر الأمر، تضاءل الشغف، فقرّرتُ العودة إلى أرضٍ لم أعرف سواها. مضيتُ والأفكارُ تعرقلني، والخواطر المخيفة عن فناء النجع تلاحقني، لكنّ حقيقة أنّ الغريب لا يعرف النجعَ ظلّت تؤرّقني، وتلقي بنتفٍ من حكاياتٍ مخيفةٍ أثقلت صدري.

ففي نجعنا المنسيّ، جنيّاتُ الحكايا قاسياتٌ، لهنّ طيفٌ دميمٌ

وأثرٌ قبيح، كلّ قصصهنّ تدور في أفلاك الخوف، أبطالُها نداهة وتمثالٌ وظلالٌ وشيخٌ عائدٌ من قبره، وضحاياها قتلى وغرقَى ومجاذيب وظلالٌ تتواثب على حيطان الغياب. لم ترِ لنا جنيّاتُنا حكاياتٍ عن الحبّ والغرام، ليس في سيرنا قصّةُ عشقٍ مثل ياسين وبهيّة، ولا مرويّة بطولة على غرار أدهم. كلّ ماضٍ هنا مُشبَعٌ بالخوف، وكلّ حاضرٍ مُغمّسٌ بتوتّرات الحرب، لطالما احتاجَ الناس إلى حكاية غرام تبرهنُ على استمرار الحياة، ولو في سيرة هوى.

هكذا منحتُهم ما ينقصهم، زفرتُ الحياة في الصدور، وزرعتُ في مخيّلة كلّ رجلٍ قصّةَ حبٍّ وأملَ وصالٍ مستحيل.

ذلك ما تركتُ عليه النجع، فكيف تكون الحال عقب الانفجار؟

أعياني المسير، لم أصدّق أنّي ابتعدتُ إلى هذه الدرجة. أيعقل أن يُطيحَ بي الانفجار كلَّ هذه المسافة؟ أم إنّي انشغلتُ بخيالات اليقظة حتّى فقدتُ القدرةَ على تمييز الزمن؟ ومن في نجع المناسي يميّز الزمن؟ في الغالب لا أحد، الزمانُ في إجازةٍ منذ عشر سنوات.

لمحت أوّلَ لافتةٍ زرقاء، فاغتبطتُ. رقدتُ أسفلها، واتّكأتُ برأسي على لفافة الغريب بعد فراغها. ومع بزوغ الفجر، شعرتُ بنعاسٍ يراودني. تمنّيتُ ساعتئذٍ أن أغفو لتزورني تلك الرؤيا المتكرّرة، وفيها أصيرُ نسرًا أبيضَ يحلّق بجناحَين عظيمَين. كانت هذه الرؤيا هي أهمّ دوافعي إلى المضيّ في اتّجاهٍ مُخالفٍ للتعليمات، وبمنطقٍ يُنكر ميراثَ الخوف.

سمعتُ جلبةً من حولي، فعدتُ من شفا النوم. وجدتُ النوق أقرب من ذي قبل: «**اقتربتُ إذَن من النجع**»، هكذا استنتجتُ. رحتُ أتأمّل النوقَ بجفنَين ثقيلَين، ربّما هي بالفعل بِمال الكلّاف. أتذكّر البُقعَ الحمراء على رقبتَي الجمل والناقة، هكذا سنّ الرجلُ طريقةً يميّز بها نوقه وبهائمه، وهذا ما راح يردّده على الأسماع إبّان بحثه عنها. ألفيتُ النوقَ بعينٍ نصف مغمضة، ترعى وسطَ حشائش جافّةٍ على بُعد أمتارٍ من مرقدي. شعرتُ بالألفة إذ تيقّنتُ أنّها جمال الكلّاف وقد زادَ تعدادها؛ احتفظت الحياة -إذَن- بمواثيقها خلف الألغام.

شعرت بثقلٍ في رأسي. فاستسلمتُ لنوبة نعاسٍ دهمتْني عقب دوارٍ مباغت.

رأيتُني أقف مصلوبة، منفرجة الساقَين، وزكريا النسّاج يلفّ خيوطَه على ساقيّ صانعًا نوله بينهما. يبكي الرجل الذي تحدّى الخوجة، ترتعش يداه بينما يمرّر خيوطه الملوّنة في مسام النسيج، تتابعه عيناي، فأراه يُنقّل بصرَه آسفًا بين النول ووجهي، وعلى قسماته يرتسم رعبٌ عظيم.

لا صوت لي، الصراخ صمتٌ والعويل مكتوم، صوت الخالة وداد يأتي من جهةٍ غير معلومة. كانت تصيح باسمي. صخب قوافل الغجر يقترب، أصوات الطبل والمزامير تعلو فتختلط مع صوت الخالة، تكبيرات مشيّعي الشيخ جعفر في مَوتته الثانية تعلو آسيةً، يتعالى الصخب، تتداخل الأصوات، وزكريا منهمكٌ يغرق

العرقُ رأسَه فيبلّل جلبابَه. ألمح خيطًا أخضر، وآخر أحمر بلون الدم، فأتصوّره ينسجُ وردةً على خلفيّةٍ يتداخل فيها السواد بالبياض. تدور بي الأرض فأفقد الوعيَ ولا أسقط. أفتح عينيَّ فأعي أنّي كنت منذ البدء شجرةً مورقةً مثمرة، شجرةً ذات جذعَين، وما نُسج بينهما لم يكن سوى علم فلسطين.

يترك المشيّعون النعشَ ويلتفّون حول ساقيّ، يلحق بهم الغجر والخالة وداد، ثمّ يعلو صوتُ الدبّاغ من حيث لا أراه، يشدو بحكاية التمثال والحرب، فينتصب عضو التمثال ويتضخّم. يعلّق عليه الأطفال أرجوحتَهم، وتتلقّفه عيون الصبايا ببسماتٍ ولكزات تسري بينهنّ. يشقُّ الخوجة الصفوف حاملًا رأس التمثال، وينتهي الغزْل بالنسّاج وقد صنع لنفسه شرنقةً بين ساقي شجرةٍ هي جسدي. يختفي النسّاج داخل خيوط العلم. أشعر بخفّةٍ والريحُ تداعب أغصاني، أتحرّر خالعةً من الأرض جذوري، ثمّ أركض والأرض من تحتي مكسوّةٌ بجمرٍ مشتعل، تطاردني الضوضاء والأصوات. راح كلّ شيء يعدو ورائي كأنّي سفينة نوحٍ وقد ضلّت طريقها إلى نجعٍ يقطنه الموتى. الكون بأكمله يركض خلفي، الغجر وقافلتهم، الرجال والنعش الذي يُكبِّر حاملوه وقد جعلوا منه نعشًا طائرًا، التمثال والخوجة، الأطفال والصبايا وقطط الخالة وداد، يهتزّ النساج المُعلَّق في مشيمته ولا يسقط، أشعر بسخونة النار في قدميّ فأصرخ ألمًا، أبلغُ الجبّانة حيث السهل المفضي إلى النجع الغارق، يقابلني مدُّ السيل كالطوفان، أرتمي في اليمّ راضية. ثمّ يُظلِم كلُّ شيء.

أفقتُ منزعجةً من نومي. افتقدتُ رؤيا النسر الأبيض والسماء المشرعة على فضاءٍ لا يسوّره الخوف. اعتدلتُ في مرقدي. وأخذتُ أتساءل وعقلي مثقلٌ بالرؤى والأحلام المبتورة؛ لماذا احتشدتْ كلّ هذه المشاهد والوجوه في حلمٍ واحدٍ قصير؟

أتشبّث بعمود اللّافتة الزرقاء، أديرُ وجهي شطرَ النجع، الدور صامتة، والنجع يبدو ساكنًا من موقعي. أشعرُ براحةٍ تنساب باردةً في عروقي وتسري في سلسلة ظهري. ألفيتُ النجع باقيًا لم يمحه الانفجار، فاتّجهت شطر داري، وغصّةٌ في الحلق تتصاعد ممهّدةً لخوف عظيم.

لم يتضرّر النجع بالانفجار. لم أعرف كم يومًا أنفقت في تيهي، لكنّي لقيتُ الناسَ يخرجون من جحورهم وقد تبدّل شيءٌ ما في قسماتهم، فباتت ملامحهم متشابهة حد التطابق. لم يكترث أحدٌ بالطواف حول جسدي كعادة الغالبيّة، والنساءُ لم يرشقْنني بسهام العداء. شعرتُ أنّي كيانٌ شفيفٌ غير مرئيّ. الدوابّ في زريبة الكلّاف بدت متوتّرةً، تتدافع نحوَ بابها تنشد هروبًا، بينما الجدّات واجماتٌ ورائحةُ الخبيز باهتةٌ وأخفّ وطأةً من الصباحات السابقة.

لمحتُ شبحًا صغيرًا يقطع الطرقَ بين الدور في وثباتٍ رشيقة. ومرّت الساعاتُ فشهدتُ انتشارَ العبارات على جدران الدور. لم أفهم لأنّي لا أقرأ، لكنّي عرفتُ أنّ ثمّة أمرًا يستجدّ في النجع. حاولتُ تتبُّعَ الشبح فوجدتُ حركته أسرع ممّا يحتمل جسدي المُنهَك. أينما مرّ ظلّ الشبح تلوّنت الجدران بعباراتٍ سوداء. ثمّة حياةٌ مغايرةٌ راحت

تتشكّل في الطرقات وعلى الوجوه، وغمامةٌ من خوفٍ تُرخي أستارها على الناس فلا يبصرونني. وباءٌ عجيب ما فتئ يطوف كسحابةٍ هبطت على الأرض لتبذر الخوف والقلق أينما مرّت. غيمةٌ رماديّة ثقيلة استوطنت الصدور، وانسدلت كحجابٍ شفيفٍ أمام العيون.

باغتني سؤال: هل غرق النسّاج قبل أن تضمّه الترعة في عناقٍ أبديّ؟ هل الغرق مشروطٌ بالماء؟ أم إنّه بالأساس فكرةٌ تشترط عدمَ القدرة على التنفّس بحرّيّةٍ لإعلان الغرق وانتفاء الحياة؟ إن صحّ ظنّي فقد أصبحنا جميعًا في حكم الغرقى، وها نحن ننتظر الطوفان ليمنحنا صكّ الغرق!

حرصتُ على الاختباء والتخفّي. ومضت أيّام داومت فيها على مراقبة الناس وهم يمحون الكلمات على جدرانهم فتُكتَب من جديد. زالت شعور الرؤوس وانمَحَق الحاجبان فوق كلّ وجهٍ مختومٍ بالكدر. هالني أنّ شعري لم يسقط، وأنّ حاجبيَّ لم يزولا كبقيّة الناس. غمرني خوفٌ مُضاعف، فمضيتُ بين الناس ملثّمةً كأنّي هاربةٌ من ثأرٍ قديم.

أفكّر في ما يجري بينما الناس يهيمون على وجوههم؛ من نكون؟ أنكون نحن التوسّلات التي ضلّت طريقَها إلى الله، صحفًا مزّقتها نسائم الصحراء فطمرت حروفها بعيدًا عن أعين الربّ؟ لم تكن لنا عناوين، ولن تكون لنا يومًا؛ فنحن قومٌ نحيا أسفل خارطةٍ تبسطها الحكومة أمامَ القادة على طاولة الحرب، لا يبصروننا، ولا نلمح حتّى ظلالهم، لكنّنا نختنق.

في خلوتي التي تعلو الحانة، بالطابق العلويّ من داري، انهمكتُ في تثبيت مرآةٍ على سقف الدار، جعلتُها فوقَ الفراش مباشرة. أرهقني الأمر، لكنّي ثابرت حتّى أنجزتُه. ثمّ هرعتُ إلى حمّامي الضيّق، وضعتُ قدرًا من الماء وآخرَ من الحليب على الكانون، وأغلقتُ الستارة بعدما رصصتُ القدور الساخنة على مقربةٍ منّي. ثمّ انخرطتُ في استحمامٍ يليق بعروسٍ ليلة زفافها. تصرّفت كمن تتأهّب لفصلٍ جديدٍ من حياتها. أردت إزالةَ آثار الانفجار العالقة بي منذ أيّام، فسكبتُ الحليبَ فوق كلّ جزء من جسدي، وأضفت إليه مخلوطَ أعشابٍ كانت الخالة وداد تصفه للنسوة ليشدّ ارتخاء البطون، ويدرأَ زحفَ الترهّلات. دلّكتُ الإبطين والمفاصل وكلّ زاوية معتمة، دعكت كعبيَّ بالحجر، نتفتُ بضع شعيرات نمت في مواطن السرّ، وواريتُ بالحنّاء بضع خصلاتٍ بيضاء تنامت في فوديّ مؤخّرًا. ثمّ لففتُ منشفةً حول جسدي، وارتميتُ نصف مبلّلةٍ على فراشي أسفلَ المرآة. رُحت أتأمّل جسدي في المرآة وأنا عارية. تفحّصتُ أدقّ التفاصيل، ومسّدتُ بكفّي كلَّ ما أنبته الله في جسدي من زهرٍ وثمر. كانت رائحة الحليب الفوّاحة تهيّجُ في أعماقي أمنيةَ الأمومة، وتؤجّج في صدري شهوةَ ضمّ الجنين وإرضاعه.

أسمع أصواتًا لجمعٍ من الناس على مقربةٍ من داري، فلا آبه لغوغائهم. كنت في ذروة الانتشاء، غارقةً في لحظةٍ مقدّسةٍ أطالع فيها ما غرسه الله في جسد المرأة من أسرارٍ ومكامن لذّةٍ وينابيع حياة، أتأمّل، وأتساءل: من ذا الذي يستحقّ الفوز بجسدٍ كهذا؟

ينغرز الشوقُ في جسدي كلَّ يوم، يُشعل نيرانًا لا تخمدها ألاعيبُ الخلوة، توقظني سخونةُ الهواء حول جسدي في الشتاء، أتعرّى، ألقي بأغطيتي على أطراف الفراش، أحتضن وسادةً باردةً، والوحدة سكّين ينغرس في أحشائي، يمزّق الأحلام بلُقيَا الفارس، ويروعني حدّ التفكير في الاستسلام لسَيل عروض الزواج والوصال. لكنّ قلبي ينبئني ألّا أفعل، إذ أنّ رجلًا واحدًا يستحقّ وصالي، رجلًا ينتظر الآن في خلوته، يدّخر جسدَه لي كما ادّخرتُ جسدي له أربعة عقود، فمَن يكون الفائز؟ وكيف يبدو؟ لا أعرف!

أريدُه فارسًا، حتّى إن لم يمتلك جوادًا. أريدُه حرًّا، يقتلعني من هذه الأرض المأسورة ليزرعَني فوقَ وسادته أبدَ الدهر، في عالمٍ آخر لا يعرف الألغام والتماثيلَ والأوبئة، عالمٍ بسيطٍ لا يثقل هواءه القلق، ولا تمطر سماؤه الحجارة، ولا تمتلئ طرقاته بعيونٍ تعرّي وتخمش وتجرح، عالمٍ لا يُقتل فيه النسّاج، ولا يعرف عجز الشيخ أيّوب، ولا دهاء خليل الخوجة، ولا جنون النحّال المكلوم، عالمٍ للناس فيه صوتٌ خفيض، وعيونٌ عامرة بالقناعة والاستحياء، يطوف فيه الصبية والصبايا بضفاف أحلامٍ غزلها بعضهم حول بعض، من دون أعرافٍ تمنح وتبيح، وأخبارٍ تُسرُّ وتذاع.

أفكّر: لمَ لا يجود الله عليَّ بعالمٍ لا يسكنه سوى صبيةٍ صامتين، لهم جميعًا ملامح حكيم، ابن الخوجة المُعمَّد بالبراءة، ذي الوجه الموشوم بالحزن والفقد والشوق؟ جَزمت الخالة وداد أنّ الصبيّ يعشقني، ورددتُ على كلماتها باستنكارٍ عظيم، إذ تفصل بيننا أكثر

من عشرين سنة، هو طفلٌ لا يكاد يتحسّس شاربَه النابت وأنا أشارف على وداع الخصوبة. بدا لي أنّه يفتقد الأمّ، فحاولت أن أضعَه في قالب الصبيّ اليتيم الجدير بالشفقة، لكنْ عقبَ محادثتي مع الخالة وداد رأيتُني في حلمي ألقمه ثديي على مصطبة الحانة، فكان يرضع بتؤدةٍ وهو مسبَل العينين، وأنا محلّقةٌ في فضاءات من اللذّة والخدر.

راحت الأخبارُ تسري بين الناس. كلّما قُرئَ حرفٌ على جدارٍ اشتعلت الأجواء. أحكمتُ إغلاقَ الأبواب بالمزاليج، ثمّ رأيتُ الظلَّ يكتب على جدار الدار الشرقيّ. مضى متّشحًا بالظلام سريعَ الخطوات، سمَّر الخوفُ قدميَّ فمنعني من الاقتراب، ولم أجرؤ على نهره من نافذتي. كانت الكتابة على الجدران تمهّد للمزيد من التوتّر والتناحر، وربّما أخافني استشرافُ ما قد يحدث عقب الكتابة. سرت في جسدي قشعريرةٌ باردة، كبّلتني تصوّراتٌ سوداويّةٌ لقادم الأيّام، فاكتفيتُ بمراقبة خطواته وحركة يديه السريعة بينما يغمس عصاهُ في سطل الألوان، قبل أن يخطّ بها ما لن أقرأه. لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقةٍ أو دقيقتين، وثبَ بعدها وغاصَ في ظلال البيوت. لقد فرغ من تلطيخ جدراني باللون الأسود ومضى، فوجدته خائفًا، ربّما أكثر منّي. حاولتُ استنباط المكتوب، امرأةٌ مثلي حتمًا ستصيب كلماتُ المجهول شرفَها، ربّما سيتحدّث عن معاشرتي لرجالٍ لم أعرفهم يومًا، كنت واثقة أنّ الكلمات تتمحور حول جسدي، وربّما حول بقعةٍ بعينها من جسدي، ومدى وصول الراغبين إليها. صعدتْ غصّةٌ إلى

حلقي، فما سبق من الأخبار يمهّد لاستنتاج تتمّة الحكايات، رجلٌ يعاشر صغيرتَه المعوقة، وآخر استبدل بدوابّه امرأته، أنباء حربٍ مغلوطة، وحَمْلٌ من سِفاح، وأنسابٌ مخلوطة، ورضيعٌ مقتول ضمن زمرةٍ من القتلى التفّت أخبارهم كمشنقةٍ حول عنق الخالة وداد. فهل أكون أكثر حظًّا من كلّ هؤلاء؟ لم أؤمن يومًا أنّي امرأةٌ محظوظة، على النقيض، ربّما كنت منحوسةً اختُزلتْ سنواتُ عمرِها بين قافلة غجرٍ وأرض محاصرةٍ بالخوف.

في الصباح التالي، أزلتُ المرآة عن السقف، ثمّ أخذتُ صُرّةً ودسستُ فيها أهمّ حاجياتي والقليلَ من المؤن. قرّرتُ الهرب، بدا النجع مختلفًا. كلّ شيءٍ يعارض الفطرة، والناسُ يطنّون كسرب نحلٍ ضلَّ الطريق إلى خليّته. اجتماعات النحّال مع الناس مشحونةٌ بالتوتّر، وزيارات العربات إلى دار الخوجة أكثر من ذي قبل. ثمّة نارٌ تختمر في صدور الناس، لذا مضيتُ كقافلة غجرٍ مُستقلّة، تدور بين القرى والنجوع لتغرس الفرحَ والمرحَ أينما حلّت. سأظلّ محافظةً على جسدي فلا أسلّمه إلّا إلى ذاك الفارس. قد أبلغ الخمسين والستّين وأنا بكرٌ محصّنة، سأخمد ذبالة شوقٍ تُضرِم النار في صدري، لأبقى بتولًا طاهرةً إلى أن يظهر الفارسُ.

أخذتني الأفكارُ بينما أتسلّل مستترةً بالليل. أردتُ أن أختفي قبل أن يقرأ الناسُ ما سُطر فوق جدار الدار. عرفتُ أنّي لست بعيدةً عن انتقامهم، بل ربّما صرتُ قِبلةَ انتقامٍ لكلّ ما حُرِموا منه طوالَ سنوات الحرب. سأُعَاقَب على سنوات الرفض، سأكون مستودعَ

اللعنات للرجال والنسوة على حدٍّ سواء. أعجيب أن أشعر بالخوف وأنا أدرك أنّي لم أؤذِ أحدًا؟

مضيتُ تطاردني ظلالُ الغاضبين ودعاةُ الانتقام. تشتّت ذهني، فضلّت خطواتي الطريقَ التي حفظتها لعبور سياج الألغام. درتُ مرّاتٍ حول موضعي أتحرّى منفذًا أعرفُه جيدًا، دربًا وعرًا ممتلئًا بحجارةٍ ومخلّفاتٍ شتّى، لكنّه الآن تبخّر، كأنّ الأحجار الملوّنة تشظّت لتضلّل مساراتٍ حفظتُها عن ظهر قلب.

مضت ساعات القلق حتّى انصدع الفجر مطلًّا على نجعٍ أثخنه الوباء. السماء ملساء صدفيّة، حالمةٌ تدعو ألسنةَ العشاق إلى الترجّي، تبدّد شيءٌ من قلقٍ كاد يستعمرني، ووددتُ لو أطوف على الدور سائلةً مطمئنّة، بيد أنّ الألسنة غدت بكماء، والعيون استعمرها غبشٌ في البصر والبصيرة. عدتُ أدراجي لأحتمي بمنزلي، توسّلتُ من السماء معجزةً ينساني بها الناس. قد يزول الوباء، أو تتوقّف الحرب فيعود الجنود، وقد تنتشلني الخالة وداد فتظهر لتشاركني هجرتي المؤجّلة. تسلّلتُ مراوِغةً الظلال، أغمضتُ عينيّ وتشاغلت بغناءٍ خافتٍ للخالة ما انفكّ يتسلّل إلى أذنيّ:

والفرحة الكبيرة نقسمها سوى

وأتوه بين حبيبي يا عيني واللّيل والهوى

الحنّة يا حنّة يا حنّة يا قطر الندى

يا شبّاك حبيبي يا عيني، جلّاب الهوى

تمدّدتْ بسمتي حتّى بلغت الدارَ. هرعتُ إلى الفراش لاهثة، فوجدتُها هناك.

كانت عيناها مشرعتَين على فزعٍ عظيم، والوشومُ في وجهها ومعصمَيها كأنّها ذابتْ فانسابت محلّ العروق. الصرخات المكتومة في حدقتيها تصمُّ الآذان، الحلق في أذنَيها تبدو أكبرَ حجمًا كأنّ رأسَها انكمش. كانت تتوسّد رعبًا دهمها في منتصف الفراش، تفتّش الهواءَ بحثًا عن مهربٍ من ذعرها، صدرُها متيبّس، وشفتاها مزمومتان على زفيرٍ أخير، تقبض يمناها على علبة النشوق المعدنيّة، وثمّة آثارٌ لفوضى على الدرج وقربَ الفراش. رائحة الموت تعبّق المكان بكثافة، كأنّ مَلَكَه شاطرَها للتوّ الفراش.

تَثْقل أنفاسي، فأكتمُ صراخي بكفّيّ. ما خشيت الخالة وداد يومًا سوى نهايةٍ كتلك. لقد ماتت مذعورةً تُصارع فيضَ خيال، لو نطقت الساعة لحكتْ عن عصاباتٍ وجيوشٍ من الجنّ ما انفكّت تطاردها. لقد كانت تستحقّ، كسائر آل النجع، حياةً أفضل ونهايةً أرحم.

احتضنتُ جسدَها المتخشّب، غسّلتُها بدموع القهر، وجدتها كغصنٍ يابسٍ يكاد يتكسّر، حزامُ مدّخراتها القماشيُّ مثبّتٌ حول خصرها لم يمسسه أحد، رائحةُ الفزع تفوح من جلبابها المكسوّ بالغبار، ومئات الصور تهطل على رأسي. الزمن يتكثّف فيرعد داخلي، ترتدّ الذاكرة إلى وجه غسّان المغاربيّ، ويدَيه الممتدّتَين إلى

جسدي. أذكر تعثّري بين الخيام في قلب الصحراء ورهنَ ساقيّ للريح والركضَ حتّى عجّ صدري بالصخب.

وحين تبدّدت أنفاسي وأحكمَ الظلامُ قبضتَه عليّ وظننتُ أنّي ميّتة، فتحتُ عينيَّ على وجه الخالة وداد. ها هو الوجه الذي أعاد إليَّ الحياة يقرّر أن يوثّق لحظةَ نهايته في فراشي.

امتلكت الخالة في ذلك الزمن عينَين واسعتَين بلون الزيتون، ووجهِ أمٍّ يزيح الأرق، وخصلاتٍ تتهدّل على نحرها. يومئذٍ ربّتتْ على رأسي وقد أضاء القمر وجهَها كاشفًا عن ملامحها. حاولتُ أن أتكلّم، فوضعتْ سبابتَها على شفتيّ. قالت إنّها شاهدتني في سوق الغجر، وتعرف أنّي هاربة -لا ريب- من أمرٍ جلل. تكلّمتُ بلسان ابنة ستّ سنوات، سمعت عن أمٍّ لي هربت مع رجلٍ ذي شأنٍ في بلادٍ بعيدة وأبٍ لم يصف لي أحدٌ ملامحَه. اطمأنّتْ لوحدتي، فاتّسعت بسمتها. وجدتُها وحيدةً مثلي، هاربةً تجهل مُطارِدها. أتذكّرها الآن وأنا أجالسها جثمانًا غادرتْه الروح، فأوقن أنّها عاشت أكثر ضياعًا منّي. راوغتْها الأقدارُ كثيرًا، وقضت السماء بعذابها من دون تبريرٍ يتّسع له عقلها. أترحّم على أيّامٍ لمستني فيها بيدِ أمّ، ونظرت إليَّ بعينَي جدّةٍ رؤوم. أطوف بين تخوم الذكرى، أطرقُ معها أبوابَ النسوة اللّاتي عَلَتْ صرخاتهنّ، أغمضُ عينيّ عن الدم والسوائل الزلقة، وعن مشهدِ السكّين إذ يقطع الحبلَ السرّيّ. لم تعِ الخالة وداد نفوري من اللون الأحمر، لامتْني وقد سلكتُ طريقًا مغايرًا، وهَجَتْني فقالت إنّ دم الغجر يسري في عروقي. تعلّمتُ

من القوافل العابرة تخميرَ البلح، أتقنتُ خطوات تحضيره، برعتُ في جلب قِنان الخمر والنبيذ من التجّار والجوّالة، وصنعتُ واحتي الخاصّة، مساحةً للبهجة، لا محلّ فيها للون الدم. لم تكن لديّ سوى ألوانِ الحياة التي حلمتُ بعيشها.

بارك الشيخ جعفر الوليُّ خيمتي إذ حلَّ بها ضيفًا. تذوّق معصورَ البلح المخمَّر فعشقه. لم يسمع غيري بعشقه لمشروبي الخاصّ، ولن يسمع أحدٌ عن زيارات ابنه الشيخ أيّوب. عرفنا الوليَّ قبل مِيتَتهُ الأولى محبًّا للحياة، إذ سمحَ لي ببناء الحانة على غير الرغبة المعلنة لكِبارات النجع، فشُيّدت أسرع من أيّ دارٍ أخرى. توتّرت الأمورُ فترةً قبل أن يصبح الكبارات ذاتهم دائمي الحضور، كلٌّ منهم يبدي امتعاضَه حالَ ذكر الحانة واسم شواهي، ويغضّ البصر عن رقصي في أعراس النجع والقرى المتاخمة له. كنتُ الحرام متجسّدًا إذا ظهر في العلن، حتّى تأتي ليلة الخميس فتكون حانتي موضع اجتماعهم، يشربون ويغنّون ويضحكون ولا يرون في رقصي شبهةَ معصيةٍ ما دامت الجدرانُ تستُر سكرَهم.

صفحتْ عنّي الخالة وداد بعد شهور، وما نسيتُ إكرامَها إيّايَ يومًا. عشتُ عشر سنوات في كنفها، وآلمني أن أردّ لها وحدتها، بيد أنّ حياتي سرَتْ مغايرةً لحياتها التي ألفَتْها.

توقّفتُ واجمةً وقد كفّنتُها بملاءةٍ بيضاء بعد إتمام التغسيل كما علّمتني. وتصاعدَ الدمع في عينيَّ مقرونًا بسؤالٍ يشقّ صدري: أين

أدفنها؟ ومن يعينني على ذلك؟ فكّرتُ في كلّ الخيارات، لن آمن بمقابلة أيٍّ من ساكني النجع، فشعري المنسدل وحاجباي الثابتان أدلّةُ إدانةٍ ثابتة على جُرم لم أقترفه. سيقتصّون منّي، كما طاردوني بلعناتهم طيلة تلك السنين للسبب ذاته؛ أنّي حرّة، حيّة، لست مثلهم، ولن أكون.

قفز إلى ذهني وجه حكيم ابن الخوجة، تصوّرتُه الوحيد القادر على مساعدتي، ولكن كيف يمكنني بلوغُه وأصوات الغاضبين الماضين خلف ظلّ النحّال تتعالى، والعربات القلقة تحوم في دوّاماتٍ لانهائيّة.

سحبتُ الجثمان إلى الطابق الأرضيّ، وقرّرتُ أن أدفنه في أرض الحانة. عبرت البوّابة الداخليّة الفاصلة بين الدار والحانة، مشيتُ الهوينى قاصدةً ألّا يصدر عنّي أيّ صوت، أزحتُ المقاعد والطاولات التي صنعها محجوب، والحصر التي غزلها زكريا، وطفقت أبحث عن أدوات حفر. صعدتُ إلى غرفتي ونزعتُ أحدَ أعمدة الفراش، كنتُ أصعد السلّم وأهبطه كجرذٍ تطارده قطط الخالة، أحفر والدمعُ يُزيغ البصر، أتوقّف برهةً لأستطلع الطرقات؛ الهمهمات متصاعدةٌ والشمس لم تستوِ بعدُ فوق عرش النهار.

أحار في استبانة حقيقة تلك الهمهمات ومصدرها. أفكّر مرّةً أخرى في حكيم، أشعر بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الصبيّ الكتوم، أتمنّى لو يبزغ بغتةً بوجهه الحالم وعينَيه المتأجّجَتَين بلوعة الحبيب وشوق

الرضيع إلى ثدي أمّه، فيساعدني.

أحفر، أرجو السماءَ أن تنزل حجبًا تعزل عن الناس صوت الحفر، ويرهقني الأمر حتّى أسوّي التراب فوق جثمانها. أبحث عن ماءٍ أرطّب به مرقدَها فلا أجد شيئًا على مقربة منّي سوى صندوقٍ من قنانيّ العرق، أسكب القنانيّ فوق التراب فتمتصّه الأرض في لهفةٍ وظمإ. تجفّ الدموع بعدما يكسو الأهدابَ تراب، أصيخ السمع إلى صوتٍ يقترب، صهيلٌ خافتٌ يعلو مقرونًا بحوافر تضرب الأرض، وطيفُ فارسٍ يتجسّد. تعلو الأصواتُ فلا أهتمّ بمصدرها، ثمّ لا تلبث أن تتداخل معها صرخاتُ نسوةٍ لا تُفهم مقاصدها، ودبيبٌ متصاعدٌ لحجرٍ يتقدّم، تنتفض كلُّ خليّةٍ في جسدي تأهّبًا للقاء القادم فوق الفرس، ومعانقة الخلاص فوق بساطٍ من نور.

إحنا الشعب

اخترناك من قلب الشعب

يا فاتح باب الحرّيّة... يا ريّس يا كبير القلب

يا حلاوة الشعب وهو بيهتف باسم حبيبه

مبروك ع الشعب خلاص السعد هيبقى نصيبه



عبد الحليم حافظ

كلمات: صلاح جاهين

لحن: كمال الطويل

مناسك صلاة القلق

تراجعَ النهار، فانعكسَ الضياء في الترعة، وانطفأت الشمس في عجالة، لكنّ القيظ راحَ يفرغ الطرقات من المارّة المشحونين بالقلق، فمضوا حائرين في وجهاتهم: العودة إلى دورهم، أو الانضمام إلى جلسات النحّال، أو التوجّه إلى المسجد حيث تُختَلَقُ صلاةٌ بِكرٌ لم تَسجُد فيها الجباه قبل اليوم.

عادت الطيورُ إلى أعشاشها، ونثر القمرُ الخافت زخّاتٍ من فضةٍ تُلوّن الطرقات وتكسو نواصي الزرع. وانسدلَ اللّيل بغتة.

والشيخ أيّوب يتأمّل صفحةَ السماء وتبدُّل ألوانها، يفكّر: هل فقدتْ شواهي شعرَها هي أيضًا؟ هل أمست صلعاء؟ لا يقدر الشيخ العاشق على تخيّلها وقد استبدلتْ بتاج رأسها حصاةً ملساء، ليس عدلًا أن يمسّ الوباء شواهي، لا يستقيم أن تغرق الغجريّة في دوّامات قلقٍ وأرق. شواهي؟ وشعرها الأسود الكثيف؟ لا يطيب للمرء تصوّرها على غير صورة، فهي نفحة الجمال التي وهبَها الله للنجع.

يستغفر الله مجدّدًا، ثمّ يعيد الوضوء، ويدعو لنفسه ولبني نجعه بالهداية، ثمّ يمسك مُكبّرَ الصوت الذي أتاه به خليل الخوجة منذ أيّام، ويستعدّ لاستخدامه لأوّل مرّة.

كان اختراعًا لم يعرفه من قبل وإن سمع عنه في مسامراتٍ سابقةٍ للخوجة وصفَ خلالها خطابات الزعيم ومنبرَه. بشّره الخوجة بالعديد من الأخبار المبهجة، وطلب منه نقلها إلى جموع المصلّين عقب انتهاء صلاته. قال إنّ الحكومة سترسلُ إلى النجع طبيبًا خلال عشرة أيّامٍ ليحقّق في شأن الوباء، علاوةً على بيطريٍّ يراجع حالة البهائم. ثمّ إنّها ستفتتح كُتّابًا يحلّ محلَّ حانة شواهي التي لم ترضَ الدولة يومًا عن وجودها. سوف تنقل العربات الحكوميّة البضائع والمحاصيل بين النجع ومستودعات الحبوب والمطحنة والمزارع في القرى القريبة. وسيغلق الخوجة دكّانَه وقتئذ، سيعود الجنود عمّا قريب، سيرمّمون الأقنية المعطوبة في الغيطان، ستقام كلّ حفلات الزفاف المؤجّلة والمآتم المنسيّة، ستُصلَحُ السيّارة الفولكس، وسيأتي براديو جديدٍ للمسجد يُبثّ منه القرآن الكريم. وقد فجّر مفاجأةً مفادُها أنّ الدولة بصدد نزع الألغام المطمورة حول النجع، وكذا ستعملُ على توصيل الكهرباء إلى كلّ الدور خلال ستّة أشهر لا غير.

زفّ الخوجة كذلك أنباءً عن قرب انتهاء الحرب. وشحذ همّة الشيخ بما كاد يفصله عن الواقع، فقال إنّ الزعيم عبد الناصر يخطّط لزيارةٍ إلى الصعيد، يمرّ فيها عبر الكفور والنجوع في رحلةٍ شعبيّةٍ -تنتهي بقريته بني مرّة- احتفالًا بالنصر ووضع الحرب لأوزارها. وأضاف أنّه تحدّث مع رجال الحكومة، فاقترحَ عليهم أن تمرّ قافلةُ الزعيم بنجع المناسي في طريق عودتها.

تناسلتْ في عقل الشيخ أسئلةٌ متشظيّةٌ عن كلّ شيء، شعرَ ببركة الصلاة تحلّ على النجع قُبيلَ أدائها، وتجاهلَ مصيرَ شواهي الغامض بعد إغلاق حانتها. كانت غضبةُ الناس المكتومة وثورتُهم التي تتشكّل أمامه كلَّ ليلةٍ لا تهدف إلى شيءٍ غير المعرفة. كلّ ما أراده الناسُ هو الحقيقة، المعلومة الواضحة الشافية، وها هي دفقةٌ من الحقائق والأخبار المبهجة تكاد تنثال على رؤوسٍ أسكرتها كلمات النحّال.

الحقّ قادم، والنور ظاهر، والخير مآل الحكايات كافّة، كلّ النهايات ستكون سعيدة، وكلّ الأشداق ستمتلئ بضحكات الرضا والحبور. ستعود صحيفة «صوت الحرب» إلى الصدور، وستتناسل صفحاتُها لتشمل كلّ مناحي الحياة. وربّما يتغيّر اسم الصحيفة عقب انطفاء شعلات الحروب، سيقترح إذَن على الخوجة اسمًا بديلًا هو «صوت المناسي».

وصل خليل، فراحَ الشيخ يراجع كيفيّة تشغيل مكبّر الصوت بينما يطوّقه بنظرةٍ شاكرةٍ راضية. وكان خليل يبادله التبسّمَ من دون أن تنمحي عن وجهه أماراتُ القلق. نقر الشيخ بيدَيه على الـمُكبّر ثلاثًا، فحلّ الصمتُ على عدد من الأفراد يفدون إلى المسجد. نظرُوا تجاهَه بينما يخلعون نعالَهم قرب بابه. وزّع ابتساماته عليهم وهو يرفع مكبّرَ الصوت افتخارًا. انقضى وقت صلاة العشاء من دون صلاةٍ أو إقامة، والشطر القصيّ من المسجد يختفي خلفَ ساترٍ قماشيٍّ مثبّتٍ على عرقَين من الخشب، خصّصه الشيخ لصلاة النساء لأوّل مرّة. ارتقى العجوز منبرَه وقد استقرّ في يقينه أنّ مكبّر الصوت

حتمًا سيقنع بقيّة رجال النجع ونساءهم لينضمّوا إلى الصلاة. افتتح كلماته بالبسملة والصلاة على النبي الأمّيّ الكريم، ثمّ راح يبتهل بدعائه، ونبراتُه مترعةٌ بالورع والخشوع:

- **اللَّهمَّ إنِّي عبدُك، ابنُ عبدِك، ابنُ أمَتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدْلٌ فيَّ قضاؤُك، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سمَّيْتَ به نفسَك، أو علَّمْتَه أحدًا من خلقِك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حَزَني، وذهابَ همِّي، اللَّهمَّ رحمتَكَ أرجو فلا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ وأصلِحْ لي شأني كلَّه لا إلهَ إلَّا أنتَ، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهمِّ والحزنِ، والعجزِ والكسلِ، والبُخلِ والجُبنِ، وضَلَعِ الدَّينِ، وغَلَبَةِ الرجالِ، والخَوْفِ والشَّكِّ والقَلَقِ. اللَّهمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبعِ، وربَّ العرشِ العظيمِ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، أنتَ الظَّاهرُ فليس فوقَكَ شيء، وأنتَ الباطنُ فليس دونَكَ شيء، مُنزِلَ التَّوراةِ، والإنجيلِ، والفُرقانِ، فالقَ الحَبِّ والنَّوى، أعوذُ بكَ مِن شرِّ كلِّ شيءٍ أنتَ آخِذٌ بناصيتِه، أنتَ الأوَّلُ فليس قبْلَكَ شيء، وأنتَ الآخِرُ فليس بعدَكَ شيء، اقضِ عنَّا الدَّينَ وأَغْنِنا مِن الفقرِ، أَزِح الكَرْب، وأَنِر الدَّرْب، ومَزِّق طُبُولَ الحَرْب، اللَّهمَّ أنتَ مالِكَ المُلْكِ تؤتِي المُلكَ مَن تشاءُ وتنزِعُ المُلْكَ ممَّن تشاءُ وتُعِزُّ مَن تشاءُ وتُذِلُّ مَن تشاءُ، بيدِك الخيرُ إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير، تولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ وتولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ**

وتُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ وتُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ وترزُقُ مَن تشاءُ بغيرِ حساب، رحمنُ الدُّنيا والآخرةِ ورَحِيمُهما تُعْطِي مِنْهُمَا مَن تَشَاءُ وتَمْنَعُ مَن تَشَاءُ، ارْحَمْنا رَحْمَةً تُغْنِينا بِهَا عَنْ رَحْمةِ مَنْ سِوَاك، اللَّهُمَّ نَقِّ سرائِرَنَا مِنَ الهَلَع، وأبْعِدْ عَنْ نَجْعِنَا الخَوْف والفَزَع، اللَّهمَ رُدّ الغَائِب، وأَنْزِل سَكِينَتَكَ عَلَى رَجُلٍ مَا انْفَكَّ يَخْتَبِرُ الشَّدَائِد، وَعَلَى أُمٍّ أَثْقَلَتْهَا الوَسَاوِس، وَعِبَادٍ حَجُّوا إِلَيْكَ اليَوْمَ فِي المَسَاجِد، أَنْت الوَاحِد العَدْل، فَانْزِل اللَّهُمَّ عَدْلك، وآلِف بَيْنَ القُلُوب، واشْمَلْنَا بِعَطْفِك وَرُدَّنَا إِلَيْك رَدَّ قَرِير عَيْنٍ مُطْمَئِن، أَنْتَ مَوْلانَا، إِلَيْكَ رُفِعَت الشَّكْوَى، وإِلَيْكَ يَكُونُ الرَّجَاء، وإِلَيْكَ رَبَّنَا يَكُونُ المُسْتَقَرّ وَالمَآب.

كانت الكلمات الخاشعةُ تحطّ في دعةٍ وسكينةٍ على رؤوس القعود. يصمت الناس جميعًا، يترنّمون بالذكر والبسملة، ويؤمّنون خلفَ الشيخ مستمسكين بالدعاء. يواصل الشيخ:

- نعرف جميعًا ما حلّ بنَا من ضرر، لا فائدة من إنكار الحقيقة، الحال لا يسرّ، الصحّة في اعتلال، والأمن إلى زوال، والقلق والهمّ والكدر سمات بتنا نتقاسمها بدلًا من الكلمات والتحايا، أنزل الله عقابَه بنا لحكمةٍ وإن استغلقت على عقولنا نحن الفقراء إليه، حلّت بنا غضبته التي حكى عنها الأوّلون، لذلك فلا مناص من الرجوع إليه، هو الأوّلُ وهو الآخر. فيا عباد الله، توبوا إليه وعودوا، طهّروا قلوبَكم من الوساوس والدنس وسوء الظنون، وطّدوا ثقاتكم بالله، وبقائدكم الذي يخوض

الحرب المقدّسة على الجبهة من دون كللٍ أو تراجع، أطيعوا الله في شيخكم إن جاءكم بصلاةٍ نتضرّع فيها إلى الخالق أن يجنّبنا سوءَ المنقلب، فإن أتيتُكم بما يخالف فرقانَه أعدتموني إلى صوابي، وإن كانت غاية الصلاة هي التقرّب إلى الخالق والسجود بكلّ الندم والخشوع أسفل عرشه، فلا ضررَ يحيق بكُم ولا ضرار، بشّرني أخوكم خليل الخوجة بالعديد من الأخبار الطيّبة منذ قليل، فلا تيأسوا من رحمة الله، ولا تلتفتوا لعباراتٍ سوداء لطّخت جدرانَ الدور، ولا تنشغلوا بالغثّ من القول والسيّئ من الظنّ، لم نزل أحياء نُرزَق قُوتَ يومنا ونتنسّم الهواء ذاته، لم نمت ولن يفنينا الله كما أهلك ساكني النجع القديم. تمسّكوا بالحياة واستمسكوا بالصبر، لا تقنطوا من العيش ولا تُملُوا شروطَكم على من يضع الشروطَ ويؤلّف القلوب ويصل خيوطَ الرزق. والله إنّ ما سمعته اليوم كفيلٌ بدرء كلّ الظنون وإعادة الحياة إلى نصابها، فقط اسمحوا لي أن أشرح لكم مناسك الصلاة؛ سنصلّي سجدتَين جهرًا، وفي وضع القُعود حرصًا على صحّة الشيوخ، سنبتدئ جلوسًا وننتهي جلوسًا، عقبَ ذلك أُنهي الأمر بخطابٍ قصيرٍ عقب الصلاة، أطلعكُم فيه على ما استجدّ من أنباء.

يهزّ الناس رؤوسهم، ويَفِدُ نفرٌ من الناس إلى المسجد. يطرب الشيخ بزيادةٍ طفيفةٍ تطرأ على تعداد الحضور. ثمّ تتبدّل ملامحُه بمطالعة نوح النحّال وقد انتصب في غضبٍ عند باب المسجد.

يشير الشيخ إلى النحّال يدعوه إلى الصلاة، والجلوس شطرَ القبلة، فيهدر صوتُ النحّال العجوز بما يردّ إليه صباه ويعلو على صوت المكبّر:

-أيّها المبتلون بموتٍ مؤجّل، وبزمانٍ تيبّس على جبهات الحروب، ويا شيخ الحرب، نحن أحياء لأنّ الموت لم يمرّ من هنا بعد يا أيّوب، إلّا أنّ منجله حتمًا سيحصدنا ما إن يجرؤ على عبور حزام الألغام، الحياة متوقّفةٌ منذ اختُطف مراد ومَن هم مثل مراد، والموتُ مشغول بحساب أرباحه على الجبهة، نحن هنا أمواتٌ يا شيخ الحرب، الحرب التي تتشدّق بقداستها فوق منبرك المتداعي كلَّ جمعةٍ هي حربُ خليل الخوجة، وثلّته التي نصّبتْه نبيًّا، لم تكن يومًا حربَ مراد، ولا حربَ فلسطين، ولا حربَ هؤلاء. انظر إلى رؤوس المصلّين من خلفك، قطعان سلاحف تقطع في سنواتٍ ما تقطعه سائرُ المخلوقات في يومٍ أو بعض يوم، تبلّدت مشاعرُهم وفقدوا قدرتَهم على الاستيعاب، وآلة الحرب التي لا ترحم، وقُودُها زمنٌ قضّيناه بلا حقٍّ في إبداء الدهشة.

راجعْ مصاحفك المطبوعة في دار الخوجة، وتذكّر آياتنا الأُولى، فصلاتُك باطلة يا شيخ الدم، ونبيُّ حربك زائف، قلقُ الناس ما كان هو الوباء يومًا، قلقُهم بدايةٌ لكنّها خطوة -لأوّل مرّة- نحو طريقٍ صحيح. سأعبر حزامَ الألغام يا ابن المنايسة، وسيعبره من خلفي آخرون، لا يلزم هؤلاء

سوى فردٍ واحدٍ يبادر بالمشي فوق الخوف، فإن نجَا نجوا، وإن تشظّى جسدُه وتناثرت أشلاؤه، فسيحاول بعدَه غيره، حتّى إن عبروا فوقَ الأشلاء. صلاتُك باطلةٌ يا شيخ الخوجة، باطلةٌ يا شيخ الضلال، صلاتُك باطلة يا أيّوب.

وتعلو الهمهمات في المسجد، ويسود اضطرابٌ عظيم. فيضع الشيخ أيّوب مكبّرَ الصوت في حجره، وينظر صوبَ الخوجة في قلق. يهزّ الخوجة رأسَه مطمئنًا، فلا يبلغ الشيخَ أيًّا من مراتب الطمأنينة، ويصرخ في وجه النحّال بعيدًا عن مكبّر الصوت:

- دعنا نصلِّ يا نوح، ولتَفْعَل ما شئت، لتبقَ في النجع مواصلًا السكر والترنّح في الأزقّة، أو لتمشِ فوق الألغام. لا حاجة بنا إلى نُصحك، فما أدعو إليه اليومَ هو صلاةٌ للخالق، الخالق الذي هو وحدَه القادر على شقّ كوّة الأمل في جدار السماء، الخالق وحده سيعيد إليك مراد ومن هم مثله، جاوزت السبعين يا رجل ففكّر في آخرتك ولو قليلًا، ولا تقف بيننا وبين الله وإلّا صرتَ شيطانًا مريدًا.

يتصفّح نوح الوجوهَ القلقة، باتوا جميعًا يحملون وجهًا واحدًا، لهم القسمات ذاتها التي لا تبدي أيَّ دهشة. شعر أنّه يطالع شاطئًا مهجورًا تراصّت فوقَه عشرات الصخور اللّامعة، لا روح فيها ولا طاقة بها على الفعل، هم فحسب مأسورون بين مدّ الخوف وجزر الخداع، الحقيقة لن تأتيهم وهم جالسون أسفلَ منبر الشيخ، والخداع وحدَه قادرٌ على طيّ صفحات الأمل في عقولهم. فكّر النحّال في

مغادرة المسجد وانتظار الناس حيث اتّفقَ معهم حتّى تحين ساعة الصفر المحدّدة، لكنّ وجود بعض الملتزمين معه بالاتّفاق داخل المسجد جعله ينخرط في موجةٍ أخرى من القلق. ظلّ واقفًا قرب الباب، يتابع كلمات الشيخ، ويُحضّر كلماتٍ يواجه بها ما يُغرَس في عقول الناس من ضلال.

أضفى صمتُ النحّال مهابةً على كلمات الشيخ أيّوب، فراح يُذكّر الناس بمناسك صلاته:

- الآيات السبع المنجيات، سنقرؤها جهرًا كما أسلفت، والصلاة من سجدتَين لا أكثر، في السجدة الأولى نقرأ الآيات السبع المنجيات، وفي السجدة الثانية سأدعو الله بما تيسّر من أدعيةٍ تخصّنا، سأدعوه أن يردّ الغائبين، وينصر المقاتلين، ويُقصّر أمد الحرب، سأتلو الدعاء وتؤمّنون من بعدي، عقب ذلك يكون التسليم، ثمّ الخطبة الأخيرة كما أنبأتكم.

ظلّت وتيرة الهمهمات في تصاعدٍ تدريجيّ، النحّال متيبّسٌ يكاد الدخان ينبثقُ من رأسه كشجرةٍ ضربها البرق. اتّخذ الخوجة موقعَه بين صفوف المصلّين، والناس راحوا ينظر بعضهم شطرَ بعض، كأنّهم يستفسرون عن صحّة الصلاة وجدواها. يحاول الشيخ أيّوب طمأنتَهم فيذكّرهم بالآيات المنجيات:

- الآيات المنجيات يا عباد الله سبع، أذكّركم بها قبل الصلاة، بالإضافة إلى أنّني سأقولها جهرًا وبوتيرةٍ هادئةٍ كي يتمكّن مَن نسيَ من التلاوة، بسم الله...

يتّخذ الشيخ موضعَه أمام المصلّين، ويجمعه حديثٌ سريعٌ بالخوجة، يزداد اللَّغط، فيضيف الشيخ بصوتٍ يكسُو التوتُّر نبراته:

- عقب الصلاة والخطبة، أرجو منكم، عبادَ الله وإخوتي وأحبّتي، أن نقضي مساءَ اللّيلة في خشوعٍ متّصل، فليغادر كلٌّ منكم هذا المسجدَ إلى داره، فيغلق عليه بابه، وينغمس في رجاءٍ موصولٍ مع خالقه، ليلةٌ واحدةٌ من المناجاة والترجّي لن تضيركم في شيء. اجمعوا حولكم نساءكم وأطفالكم وانخرطوا في ابتهالٍ صامتٍ تتوسّلون فيه إلى الله أن يبارك صلاتنا هذه. ليلةٌ واحدةٌ من الخشوع ربّما تكون كفيلةً بإعادة الحياة إلى اللّيلة السابقة لسقوط الحجر الملعون.

تعلو نبراتُ النحّال يُبلّلها الدمعُ وتخنقها العبرات، فيجيء صوته مبحوحًا:

- أغلق بابَك وأَدِم إطباقَه إذ تروم نجاةً من خوفٍ محيق، رتّب أقفالك وأسكن مزاليجك في أعمق نقطةٍ من غمدها، افعل ما شئت، ضَع نفسك في جوالٍ واقْبَع في صوامع الغلال، سيتسوّر الوباء دارك في النهاية، ولسوف يدركك وإن ظننتَ أنّك في سترٍ مكنون، أفلم تدهمك الوساوس؟ ألم يصلك دبيب التمثال الجوّال؟ أفلم تُبصر يومًا ظلالَ الجنود بينما تحاول أن تُبلغك رسالةً مفادها أن تدرأ الصمت وتكسر قيدَ الضيم والطغيان؟ هل تستطيع النوم؟ هل تستجلب أقراصُ المنوّم النعاسَ المرجوّ؟ هل تقدر على إبداء الدهشة؟ ستظلّ

سُتُرك واهيةً وإن أحكمتها، وسيستعمر الصدأ أقفالَك حتّى تبلى، وسيرسل الله سيلًا يدهمك كما أغرق جدودَك، سينالُ منك الوباءُ فتموت رعبًا لو لم تنهض، فقُم وواجه كلَّ تلك الهواجس، حطّم التمثال، اقتل النداهة، صلِّ أمام الجدران التي نُقشتْ عليها رموزُ الحقيقة، اتّبع ظلال الجنود ففي رفقتهم خلاصك، وإليهم مآبك وإن حاصرتك الظنون، حرّر رفاتهم لتنفي غيابهم. اصرخ، اصرخ كثيرًا حتّى تنال الحقيقة، واعبر بصوتك حزام النار، حتّى يفور الخلاص من العيون.

يتوقّف النحّالُ وهلةً، ويستغرق في بكاءٍ يشجّ القلوب، ترتجّ كتفاه وترتعش كفّاه كأنّ سنوات عمره المراوغة ارتدّت بغتةً إلى جسده الناحل. ينشج، وينتحب، تفيض دموعُه على جلبابه سيلًا تخرّ أمامَه السدود. يهمس باسم زوجتِه وولده، ينادي النسّاج، ويخاطب طيوفَ الغائبين. يتبادل الناسُ النظرات، تدمعُ عيونُ بعضهم تأثّرًا لحال نوح، لكنّ نوحًا يستردّ تماسكه تدريجيًّا، فيرفَع شطر الجلوس وجهًا محمرًّا وعينين منهكتين. يقول بصوتٍ خفيض، وعباراته كأنّها تنزّلت عليه وحيًا:

-أقول قولي هذا، وأسأل الله أن ينزل بأرضنا معجزتَه، وأن يرينا من عجائب قدرته ما يذيب الشكّ في الصدور، وأن يمدّنا بجرأة القفز فوق المحظور، لعلّنا نحرّر أهلنا بالعبور فوق الممات المنثور، النار محلّها السماء، وأوانها القيامة، فلا خوف عليكم ولا لوم إن مضيتم من خلفي. الله مولانا،

هو المقدّر والمسيطر، فلا قوّة تحيد الأقدار لدى الخوجة، ولا حصانة لتمثاله المشطور. اليوم أتممت رسالتي، وبلّغت أمانتي، وارتضيتُ نهايةً كتبها الله لي منذ صرختي الأولى، اللهمّ فاجعل آخرَ الصرخات ولادة، وأوّلَ شهقة هواء حرّيّة، وآخر الكلمات عبادة، اللهمّ واجمعني بغائبٍ أسكنته نياط القلب، فطال به الغياب، حتّى تساوت احتمالات لقياه حيًّا، بضمّه إلى صدري تحت التراب.

تتلاقى نظراتُ الناس، تبدو أماراتُ الحيرة على قسماتهم المتشابهة حيالَ اتّخاذ القرار الأخير، يمسك الخوجة بمكبّر الصوت ليهدّئ من روع الناس، يطمئنهم أنّ الصلاة لن تضرّ أحدًا، لكنّ الهمهمات تتصاعد، والغليان يفور في مُقَل الجلوس بغتة، فتتناقص الأعداد تدريجيًّا. تخلو باحةُ المسجد من الناس أو تكاد، يتبخّر الخوجة والنحّال من المشهد كأنّهما لم يحضرا من الأساس، تتقاطع أصداء الكلمات المبتورة في سقف المسجد الخاوي، والشيخ أيّوب يجلس القرفصاء وحيدًا، يقلّب بين يدَيه مكبّر الصوت، يُسرُّ لنفسه بالآيات المنجيات، ثمّ يقرأ الفاتحة لأبيه الوليّ، ويجهش بالبكاء.

أدعوك يا سامع دعايا... يا عالي فوق كلّ غاية
يا عالم السرّ وحدك.. والكلّ لك في النهايه
اجعلني صادق وأقول الحق لو كان مرّ
علّمني ماسمعش إلا صوت ضميري الحرّ



عبد الحليم حافظ

كلمات: عبد الفتاح مصطفى

لحن: محمد الموجي

الجلسة السابعة

زكريا النسّاج

شحّ الهواءُ في صدور الصبية. ضاقُوا بأصفاد الحصار وغبارِ العربات العابرة، كبروا كما يليق بزرعٍ نَبَتَ في خَضارٍ وأُغدق عليه بالريّ. ركضت السنوات كعربةٍ تجرّها جيادٌ شرهةٌ للعَدو، فوجدتُني بينهم وقد صار ظلّي أقصرَ الظلال. أتذكّر يومَ وضعتْ مستورة ثلاثة أجنّةٍ دُفعةً واحدة. جاءتني الخالة وداد بالبشارة، لكنّها سرعان ما أطرقت مضيفةً أنّ أحدهم جاء إلى الحياة ميّتًا، فأخذني هولُ المفاجأة. كان بطن مستورة عاليًا، والنسوة توقّعْن صبيًّا في أتمّ صحّة. لم يدر في خلدي أنْ تهبني ثلاثة صبيةٍ أمسوا اثنَين ما بين بداية الجملة ونهايتها. حزنتُ وهلةً ثمّ استغفرتُ الله وحمدته على عطيّتيه. أسميتهما سعيد وسعدون، واستبشرت خيرًا.

دفنتُ المولود الميّت، بعد أن تصوّرتُ له اسمًا هو سعد، وارتضيتُ أحكام خالقه، إلّا أنّ مستورة حزنتْ عليه كثيرًا. حاولت أن أهدّئها بقولي إنّه لم يَحْيَ لكي يموت، لكنّها ظلّت واجمة، تُلقم سعيد وسعدون ثدَيْيها شاردة، تشعر أنّها أصبحت منقوصةً من صبيٍّ ثالثٍ حملته في بطنها تسعة أشهر ومضى قبل أن تشحذ ذاكرتها بصورته. أشاكسها فأقول إنّ الله لم يخلق لها ثديًا ثالثًا كي تلقمه لرضيعٍ ثالث، وفي

ذلك ربّما تتجلّى حكمته، بيد أنّها لم تكن تبادلني المزاحَ بالتبسُّم، بل ظلّت تتربّص بي في فراشها، تتغنّج وتغدق عليَّ العطور وقمصان النوم التي ابتاعتْها أمُّها من الغجر قبل زواجنا، فأبت إلّا أن تهبني سعدًا عقب عامٍ واحدٍ من موته الأوّل. هكذا صاروا ثلاثة صبية، الثلاثة يشبهون أمَّهم في وداعتها، وفي العينين اللوزيّتين الواسعتين، والجبين العريض، والأنف المدبّب، والشفتَين المكتنزتين. وكانت رائحتُها تفوح من ثلاثتهم. ظلّت أصواتهم شبيهةً بصوتها حتّى بلغوا الحلم، جمعَتْهم وأمّهم منذ طفولتهم آمالٌ عريضة، رأتهم بعين خيالها يرتحلون خارجَ حدود النجع للالتحاق بالمدارس، وقد وثقت أنّهم -حتمًا- سيلتحقون بالجامعات.

حدّثتني أنّ الصِّبْية سوف ينزحون إلى العاصمة ليحقّقوا مختلفَ النجاحات في جامعاتها، فعقولهم طيّعةٌ وحدسهم في محلّه، لكنّ الحرب جاءت لتنقبض الصدورُ ويعمر اليأس شتّى الدور. حوصرت آمالُ الصبية، ورحنا نجترّ أيّامًا متشابهة، حتّى فاجأني سعدون حين أبلغني بقراره التطوّعَ في الحرب ملاذًا أخيرًا للخروج من النجع. أيّده سعيد وأمّن على كلامهما سعد، وبقيتُ بين ثلاثتهم مكلومًا، أنبش العقل بحثًا عن كلماتٍ تثبّط نيّتهم، وتنحسر بها رغبتُهم المتأجّجة في التحرّر. تحدّثوا كثيرًا عن الحياة خارج أسوار النار، عن الارتحال مع الغجر والتجّار، عن الجبال في الصحراء إذ يحدّها شاطئ البحر، عن فَتيات يفُقن في جمالهنّ شواهي، وعن حيواتٍ من المتعة تنتظر عبورَهم فوق المحظور.

تحدّث سعدون عن استكمال رحلة تعلّمه عقب إكماله دروسَ الكتاتيب، وعن التحاقه بجامعة القاهرة. قال إنّه ينوي دراسة الطبّ، وجزم أنّه لن يعود إلى النجع إلّا طبيبًا يداوي آلامَ الصامتين. أضاف سعد أنّه سيغدو ممثّلًا شهيرًا في استوديوهات القاهرة، وسيجبر الدولة على الاعتراف بوجود نجع المناسي بصفته مسقط رأس النجم الصاعد الذي سيكونه، بينما ظلّ سعيد حائرًا حيال وضع نجاحه المنتظَر داخل إطارٍ محدّدٍ مثل أخويه.

حاولتُ إقناعَهم، فوجدتُ أفكارَهم مرتّبةً بصورةٍ مدهشة. طلبت منهم مدّ أجل الصبر، فقال سعيد إنّهم يعيشون كما يعيش القتلى في انتظار رصاصاتٍ تدمغ موتهم. ثمّ باحَ لي بخطّةٍ محكمَةٍ وضعها رفقة أخويه، ومفادها أنّهم ينوون الخروجَ رفقة العربات التي نراها متوقّفةً عند دار الخوجة كلَّ أسبوع، وأنّ تطوّعهم في واقع الأمر ليس سوى ستارٍ آمنٍ لهروبهم إلى الحرّيّة. خذلتني الكلمات وغلبتني الدموع.

انقبضَ قلبي وأنا أتصوّر صباحاتٍ ستأتي فلا تجمعني بهم المحاورات والمشاكسات، وشموسًا ستشرق عليَّ وحيدًا بلا ونيس، وأعمالَ نسجٍ وخياطةٍ لن يكون لي فيها مُعين ولا رفيق. ومستورة ستقلّل خبيزَها وربّما تهجر فرنَها لتقضي وقتًا أطول في مراقبة الحمائم ومدِّ بصرها صوب طريقٍ تؤمن أنّ الجنود سيقطعونها يوم يعودون.

صارحتُهم بخوفي على أمّهم من مغبّات فكرتهم. تذرّعتُ بذلك لأخفي لوعتي. حاولتُ أن أجعل من أمّهم سورًا يحول بينهم وبين

تنفيذ مخطّطهم. فجاءت الطامّة الكبرى، إذ صارحني سعدون أنّ أمّهم شريكةٌ في الفكرة، مطّلعةٌ على خطواتها وسُبل تنفيذها.

وكانت مستورة تراوغ نظراتي وتُؤْثِر اجتنابَ مجلسي في الأيّام الأخيرة، متعلّلةً بتوعّكٍ أو متذرّعةً بانشغال. لم أتصوّر يومًا أن تمتلك تلك المرأة الوديعةُ قوّةً لتحثّ صِبْيتها على هجرانها. أبت الحقيقة أن تستقرَّ في رأسي، فكيف لمستورة -المسالمة- أن تتورّط في أفكارٍ كهذه؟ وماذا لو عجز الصّبْية عن الفرار من الجيش؟ أيحسبون معسكرات الجنود نزهةً اختياريّةً بإمكانهم إنهاؤها وقتما يتّفقون؟

كنت ثائرًا أكتُم غضبتي، أشعر أنّ مستورة خذلتني، وربّما تآمرت ضدّي بتشجيع أبنائنا على الرحيل. كتبوا طلبًا بالتطوّع، وذيّلوه ببصمات إبهاماتهم. ثمّ أرادوا مباركتي للأمر. قال سعدون إنّهم لن يقدّموا الطلبَ إلى الخوجة إلّا إذا منحتُهم صكَّ رضائي. فكنتُ أجادلهم بفمٍ مطبقٍ على عجزه، وكلماتٍ تذوب قهرًا قبل أن تُنطق. تنوح نظراتي وتتوسّل إليهم أن يرجعوا عمّا قرّروا، فيربّتون كتفي مواسين، بينما مستورة باسمةٌ مطمئنّة. أقذفها بنظرات اللوم والعتاب، فتتحدّث بلسانهم، وتروي عن أيّامٍ قادمةٍ ستحمل أخبارًا مبهجة، وتحكي عن احتفالاتٍ ستقام في استقبال العائدين، عن معطف الطبيب الذي سيطويه سعدون على ساعده الأيمن، عن صبايا الكفور والنجوع اللّاتي سيصطففْنَ للقيا سعد، وعن سعيد وقد صار رجلًا من عِلية القوم.

دوّى صخبُ الاحتفالات في أذنيّ، واقتحمت مخيّلتي مشاهدُ تجسّد ما ترويه مستورة. تسرّبت أصواتُ المهنّئين، وسمعتُ صوتَ الدبّاغ ينثر المواويل فوق رؤوس الحَشد الكبير، وتجسّدت في عينيَّ شواهي راقصةً بين الوافدين. اتّسعت ابتسامتي، فتذوّقتُ الطعمَ المالح لدموعٍ سالت من مقلتيّ. هززتُ رأسي وقد ابتلعتُ كلَّ الكلمات الخائرة التي كنتُ أرتّبها عبثًا، ذابت غضبتي، وتلاشت، وجمع خمستَنا عناقٌ طويل، قالت في إثره مستورة: **دعهم يثأروا لجدّهم.**

أخذتني دهشة. تأمّلت وجوهَهم، فوجدتُ فيها إصرارًا على كلمات أمّهم. حاولت أن أذكّرهم بأحلامهم البعيدة عن ساحات الحرب، فتعثّر اللسان. تعلّقت مستورة بعنقي بعد أن فرغ الصبية من تقبيل رأسي ويديّ. همستْ لي: «**لا تقلق، إن تأخّرت عودتهم فلديّ خطّةٌ لإنجاب المزيد، لم ينقطع حيضي بعد**».

لم أقوَ على التبسّم. مضى الثلاثة إلى دار الخوجة ليقدّموا طلبهم، لم يحكوا لي الكثيرَ عن خطّة هروبهم المزعوم من الجيش، لكنّهم كانوا على ثقةٍ من نجاحِ مخطّطهم. وحين عادوا بعدما وعدَهم الخوجة بتسريع الإجراءات مع معارفه، بدتْ أجسادُهم أخفّ وزنًا، وخطواتهم لا تكادُ تلامس التراب، كأنّهم بدؤوا عمليّة التحرّر عقب تخلّصهم من أوّل المؤرّقات: موافقة الأب على اقتصاص الأبناء للجدّ.

في الأيّام التالية، راحَ الوقتُ يعدو بوتيرةٍ متسارعة، وددتُ لو أمسك بتلابيب الزمن، أن أحاولَ تهدئته، أن نتوصّل إلى اتّفاقٍ

يقضي بإطالة أمد الانتظار ولا يَئِدُ رغبةَ الصِّبية في الهرب. ولكنْ سرعان ما ضاع الرجاء. عقب أيّام، أبلغني الخوجة بعد صلاة المغرب أنّ طلب التطوّع في الجنديّة قُبِل وأنّه جهّز الأوراق اللّازمة بمعرفته. ثمّ أثنى على وطنيّة الصِّبْية الثلاثة، وامتدحَ إيمانَهم بحلم الأمّة بوطنٍ عربيٍّ كبير. لم أعرف من أين جاء بكلماته تلك، خشيتُ أن يكون أحدُهم سرَّبَ قبسًا من سيرة جدّه أو شيئًا عن أصولنا. لكنّ الخوجة أوضح، ففهمتُ أنّهم أرادوا منحَ شرعيّةٍ لتطوّعهم، فراحوا يمتدحون العروبةَ ويعزفون على أوتار الخوجة بكلماتٍ يدركون أنّها تسهّل مهمّتهم.

قطعتُ الطريق -يومئذ- إلى الدار بخطواتٍ مهتزّة. وهمستُ ألّا مفرَّ الساعةَ من الوداع.

استرجعتُ مشاهدَ لوجوه الصبية في مختلف أطوار طفولتهم؛ كلماتهم الأولى، وخطواتهم الأولى، وضحكاتهم الأولى، مشاكستهم لأمّهم في مهدهم إذ كانوا يعضّون بأسنانهم النابتة على حلمتها وهي ترضعهم حتّى يدموها، ثمّ غضبهم وتوتّرهم وهي تجبرهم على الفطام، الحُصر التي بالوا عليها، والضحكات التي تقاسموها مع أمّهم، لعبهم ببكرات الخيط، وإفسادهم لعملي مائة مرّة، ووقوفي حائلًا أمام عقاب أمّهم لهم ألفَ مرّة، مراقبة استطالة ظلالهم على جدران الدار، بلوغهم الحلم، وخجلهم بينما أشرح لهم ما يستجدّ في أجسادهم، عزوف مستورة عن التطلّع في وجوههم طيلة أيّامٍ تعقب كلَّ جلسة شروحٍ تجمعني بهم لأوضّح وظائفَ الجسد

وآليّات الإنجاب، تَنَافُسهم في سباقات العوم في ترعة النجع حيث تتّسع قرب الجبّانة، وغبطتي وقد أتقنوا العومَ وأبوهم لا يجرؤ حتّى على القعود إلى جوار الترعة...

هاجمتْني كلُّ تلك المشاهد مصحوبةً بطنينٍ يُنتجه تزاحم الأصوات في رأسي. بكيتُ، بلغتُ الدار مترنّحًا، ألفيتُ مستورة منخرطةً في نوبات شرودها. جَزعَتْ لمرآيَ، فقصصتُ عليها ما قاله الخوجة، ووددتُ أن أقترح خطّةً بديلةً لنيل الحرّيّة، أو أيّ محاولةٍ من شأنها تأجيل انضمامهم إلى الجنديّة. لكنّها قطعت حبلَ أفكاري بزغرودةٍ طويلة، ختمتها بنشيجٍ صامتٍ ارتجّ له جسدها. ثمّ ركضت إلى الفراش باحثةً بين طيّاته عن ساعة سبات تعرف أنّها -قريبًا- لن تنعم به.

راح الصبية يجتمعون طوالَ الأيّام التالية، يراجعون مخطّطهم. ثمّ يضعون خططًا بديلةً يلتجئون إليها في حالة فشل الخطط الأصليّة. كنت أجالسهم في بعض تلك الاجتماعات التي تعقَد في ورشتي عقب إغلاقها. لكنّي لم أصغِ إلى كلماتهم، بقدر ما منّيتُ النفسَ بخبرٍ يبدّل الأقدارَ ويغيّر المسار؛ فلماذا لا تضع الحرب أوزارها قبل أن تبلعهم العربة المموّهة في معدتها الصفيحيّة؟ وكنت أتمادى في نسج الخيال، فأتساءل: ولماذا لا يموت الزعيم قبل ذلك فينطفئ فتيلُ الحرب؟

يطاردني ذلك الرجل بنظراته العدائيّة الحادّة، لا أعرف أَيُوجّه نظراته إلى العدو أم إليّ أنا أيضًا، لمجرد أنّي لا أصدّق كلماته ولا أشاركه الحلم، فلا أؤمن بنبوّته؟

ألا يعرف من أكون؟ أم تراهم يُعنْونُون ملفّي بكُنيتي المشتقّة من مهنتي؟ أيظنّني حقًّا زكريا النسّاج؟ أم تراه يعرف أنّني زكريا موسى الريماوي، ابن قرية القسطل الذي ناضلَ أبوه رفقة عبد القادر الحسيني حتّى استشهد الحسينيّ فغادر فلسطين؟ ألم يسمع بنضال موسى؟ وعن زوجته المصريّة التي لجأ إليها في صعيد مصر؟ أيعرف أنّ حصول موسى على هويّةٍ مصريّةٍ تمّ بشكلٍ غير قانونيٍّ عقب سقوط فلسطين، عبر وساطةٍ دبّرها له أناسٌ شرفاء؟ هل وصله خبرٌ عن طفولةٍ أمضيتُها مستمعًا لحكاياتٍ عن أبٍ يناضل بعيدًا وحين عاد أخيرًا لم يلعن أحدًا مثلما لعن العرب الذين تخلّوا عن فلسطين؟ وإنّه ظلّ ينعت جيوشهم بأنّها جيوش الورق والصدإ؟ أنا أسعد الناس بتحرّر فلسطين، أنا أكثرهم نشوةً بتحقيق القصاص لأبي ورفاقه، لكنّ شيئًا في صدري يكذّب الخوجة، وقلبي ما عاد يحتمل الانتظار. انتظرتُ أبي عشرين سنة، فكم تُراني أنتظر أبنائي؟ أأمرّرُ الأيّامَ كموسى الريماوي الذي راح يزرع الزيتونَ بظهرٍ محنيٍّ حتّى ماتَ ملفوفًا بصمتٍ لم يفارقه؟ أم يتوجّب عليَّ إنقاذُهم من مصيرٍ أثق أنّ مآله خذلانٌ جديدٌ لجدّهم؟

ذُيّلت صُورُ عبد الناصر المُعلّقةُ على أعمدة الإنارة بمقتطفاتٍ من كلماته، فكنتُ أتعمّدُ تمزيقَ ما تصل إليه يدايَ من هذه الملصقات. لم يكن ذلك لأنّي أكره الرجل، فأنا لا أعرفه، الأمر برمّته عِداءٌ صريحٌ لكلّ ما ينفثه وجهه من جيوشٍ ومعارك وشعاراتٍ لا ينتج عنها سوى تغيّب الصبية، وتجميد الزمن عبر إطالة آماد المعارك.

يقول بوجهه الصارم: «إنّ تحرير الأرض واجبٌ مقدّسٌ لا يمكن أن نتهاون فيه لحظة»، ثمّ يضيف أسفلَ صورةٍ مثبّتةٍ بالغراء على عمودٍ آخر: «ما أُخِذ بالقوّة لا يُستَرَدّ إلّا بالقوّة». أقرأ الكلمات، فأسمع صوتَه في أذنيّ. عرفتُ صوتَه جيّدًا، إذ ظلّت بعضُ الخطابات تُبَثُّ عبر الراديو قبل أن يصمت متأثّرًا بعطبٍ مفاجئ. اعتدتُ استعادةَ شذراتٍ من حكايات أبي كلّما انشغل الناسُ بتلاوة الخوجة لما تيسّر له حِفْظُه من كلمات الزعيم. سمع الناسُ خطابَ التأميم عشرات المرّات، وباتَ بعضهم يحفظُ كلماته عن قداسة الحرب، وأنا أقف مصلوبًا على عمودٍ مَزّقتُ كلّ ملصقاته على مقربةٍ من المسجد. أستمع إليه، وأجيبه، أُعنّفه، فلا يسمعني، يقول: إنّ «الناس لا يريدون الكلمات، إنّما يريدون صوت المعركة، معركة مصير»، فأصرخ: «مات أبي وأنت محاصر، وما عاد الناس يريدون سوى الحياة». يصرخُ الزعيم بصوته الحادّ: «ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد»، فأجيبه: «والله ما كنّا لنُستَعْبَد لو أعنتم أبي ورفاقه»، وأخاطبه: «تصرُّ على خطف أبنائي فتحيطهم بشباك صيدك المدجّجة بالبارود، تضيّق الخناقَ حتّى يتبدّد الهواء في صدورهم ويتملّك منهم ضجر الانتظار، فيلقون بأجسادهم داخل شباكك التي تُبسط على الأرض وتُبطّن السماء، لماذا لا تجيب؟».

يُطل وجه الزعيم باسمًا في صورةٍ مّا، ويصيح في جموعٍ لا أراها: «الخائفون لا يصنعون الحرّيّة والمتردّدون لن تقوى أيديهم المرتعشة على البناء»، فأتمتم: «تريدنا إذَنْ أقوياء نروّض الخوفَ ونعتلي قممَ

العزيمة؟ أحقًّا لا تريدنا خائفين ومتردّدين؟ فلماذا جعلتنا ثُللًا من المأسورين داخل جدران حلمك، ولماذا تخلّيتُم عن أبي والحسيني؟».

كنتُ أتأهّب لوداع الصِّبية. عانقتهم، اعتصرتُ ضلوعَهم حتّى كدتُ أحطّمها، لفح زفير الهجران وجوههم، وناحت مستورة. ثمّ أطلقت الزغاريد، فجاء صوتُها المخلوط بين ترحٍ وفرحٍ كأنّه عواءُ ذئبٍ وحيد.

مضيتُ بصحبتهم في طريقٍ بدَت أقصر كثيرًا ممّا اعتدناه. انسحبَ الوقتُ من حولنا بسرعةٍ، هربتْ منّي عقاربُ الساعة، لم أقُل الكثيرَ من الكلمات التي أعددتُها للوادع، ولم أتلُ عليهم سجلّات وصايا رحتُ أرتّبها طوالَ أيّام ما قبل الرحيل. وكلّ ما فعلتُه هو أنّي ذكّرتهم بلقبهم؛ الرياوي. ثمّ تمّ كلّ شيءٍ بسرعة، فوقع الانهيار.

غادرت العربة الصفيحيّة، غابت عن الأعين إلى حيث تعرف مسالكَها بين بذور النار. كان مرورُها مغايرًا لكلّ المرّات الفائتة، إذ باتَ أبنائي الثلاثة يرتجّون في جوفها الصفيحيّ، وفي جعبتهم آمالٌ ومخطّطات وصورٌ ملوّنةٌ لغدٍ مختلفٍ عن كلّ الأماسي. كانت مُؤَنُهم صرّةً من أحلامٍ اقتاتُوا عليها سرًّا طوالَ الشهور الأخيرة، أحلامٍ عظيمة بالثأر، ثمّ الانعتاق، فالحياة كما يفترض بها أن تكون.

لم يتبقّ أثرٌ من العربة سوى ذيل غبار. أطلقتُ لسيل الدمع العنانَ حتّى زاغ بصري. انتصبتْ مستورة إلى جواري كالوتدِ لتشدّ من أزري، شرعتْ تتلو على مسمعي قصصَ الغد، وتروي

حكاياتٍ عن بطولاتٍ ستُسعد أبي، ونجاحاتٍ ستخيّم على دارنا، وتتلوّن بها الأقمشة في منسجي المغلق منذ أيّام.

على جدران بيت الخوجة، يلُوح ملصقٌ كبيرٌ للزعيم، ينظر نحوي بابتسامةٍ شامتة، والكلمات المطبوعة عليه توثّق ما جرى: «كلّنا سنجاهد، كلّنا سنكافح، كلّنا سنفدي أوطانَنا بأرواحنا ودمائنا». تجاوزتُ عن استفزازاته فطاردتْني عباراته فوق جدارٍ آخر: «إذا فُرض علينا القتالُ فلن يُفرض علينا أبدًا الاستسلام.. سنقاتل.. سنقاتل..»، صرختُ بينما يقف الخوجة أمام دكّانه، ومستورة تحاول جاهدةً أن تكمّم فمي بكفّها: «فلتقاتل أنت، فلترسل أبناءك ليخوضوا حربَك المقدّسة، اترك لي صِبْيتي، لا تسقهم كأسَ الموت التي جرعها أبي قبل أن يتذوّقوا ثمرةَ الحياة».

تُطاردني صوره، وتحاصرني عباراته، تبدو الملصقات في عينيَّ الزائغتَين كأنّها تتكاثر وتتزايد، ثمّ تدور في دوّامةٍ من حولي كقراطيس ورقيّة، بينما يواصل الزعيم سردَ عباراته الرنّانة؛ «لا نقاتل لنغلب، لكنّنا نقاتل لنحرّر، ونحن لا نقاتل للتوسّع، لكنّنا نقاتل لنحيا». بصقتُ على خليل الخوجة وهو ذاهلٌ يتابع نوبةَ غضبي، يصرخ الزعيم؛ «ثمن الكرامة والحرّيّة فادح، لكنّ ثمن الذلّ أفدح».

بكيتُ، تحرّرتُ من قبضة مستورة وأخذتُ أعدو صوبَ الخوجة، «لا تحدّثني عن الذلّ»، صحتُ في وجه مندوب الحكومة المتّشح بمعطفٍ أبيض. وظلّ هو مُتسمّرًا في موضعه إذ جمّدتْه المفاجأة. لم يقوَ على قطع خطوةٍ واحدة. لمحتُ مستورة التي أسْقَطتْها

محاولة التعلّق بجلبابي، وربّما دفعتها، ذابَ خيط الغبار في الأفق دامغًا رحيلَ الصبية، فبزوال خيط الغبار تزول كلّ أسباب الصمت وتولَد ثورتي عارمة.

ظهر بعض الرجال في المشهد بغتةً كأنّهم انبثقوا من شقوق الجدران ليحولوا بيني وبين الفتك بالخوجة. صاح الرجل بهم أنّي جننتُ، وأنّ أبنائي هم من تطوّعوا للانضمام إلى الجبهة، وأنّ أحدًا لم يجبرهم على فعلتهم. تداخل صوتُه مع صوت زعيمه الهابط من سماءٍ رماديّةٍ كوحي ضلّ قِبلته: «إنّ الحقّ بغير القوة ضائع، والسلام بغير مقدرة الدفاع عنه استسلام»، رحتُ أكيل الضربات لكلّ من يحول بيني وبين الخوجة، لكنّ كثرتهم مكّنتهم من تكبيلي، سمعتُ صرخات مستورة ترجو الجمعَ ألّا يؤذيني.

ثمّ غبتُ عن الوعي.

***

-متى يستفيق؟

-عرفناه شديدَ التعلق ببنيه، ولكن هذه حالُ الناس جميعًا...

-كلّ دارٍ يقبع بين جدرانها مُنتظر، وفراشٌ بارد، وظلٌّ لغائبٍ رحل جسدُه إلى الجبهة...

-عسى الحرب أن تنتهي فيعود الجميع...

-الحرب باتت كأنّها حجرُ رحى، تطحن الأرواح والأجساد، وكلّ آمال الخلاص، لماذا نواصل الصمت ونستعذب الخضوع؟

- زكريا رجلٌ طيّب، ومؤمن، حتمًا سيعود إلى رشده، ما كان لمصر أن تقبل بالعدوان على الأشقّاء في فلسطين، ولو سكتت لكان أوّل من ندّد بضعفها وتهاونها، فلنَدْعُ له بزوال الكرب...

- نحن في منأًى عن النيران، لكنّها حولنا في كلّ مكان، أكاد أسمع أصوات الطلقات ودويّ المدافع...

- مسكين زكريا...

- ليس وحدَه، كلّنا ارتضينا أن نكون مجموعةً من المساكين، لماذا لا يجبيني أحدكم؟

- أنت تكره الخوجة فحسب، وتلومه منذ استدعي ولدك إلى الجنديّة، لكنّ خليلًا لم يشعل فتيلَ الحرب، ولم يدقّ طبولها...

- أشعر أنّ الحرب لن تنتهي قبل أن تحصد أرواحَنا جميعًا...

- أرواحكم أنتم، أمّا أنا فلَن يغمض لي جفنٌ حتّى أهرب رفقة ولدي يومَ يعود...

- ذلك إن عاد، لا أحد يعود من الجبهة...

- سيعود...

- كفاكم تناحرًا، جئنا لنطمئنّ على هذا الرجل الطيّب، الراقد بلا حراك...

- لا طبيب في النجع ولا حتّى تمرجي[1] يطبّبه...

(1) تمرجي: الممرّض، وقد اضطلع على امتداد عقودٍ طويلةٍ بمهامّ طبّيّة في القرى والنجوع الفقيرة في مصر، من دون دراسةٍ طبّيّة علميّة.

– لا طبيب، ولا عمدة، ولا خفر، الحياة كأنّها مصابة بالشلل...

– ذلك من أثمان الحرب...

– يجب أن نتقرّب إلى الله، فلا رادَّ لمشيئته، لن يزيح الغمّة سواه، أفلا تعقلون؟

– أظنّ النساجَ بخير، راح يتحدّث إبّان سباته حين أتيته أمس، أعتقد أنّه كان يهذي، لكنّه ليس مصابًا بالحمّى كما قالت امرأته...

– هو مصابٌ بالقهر، وغدًا ينال منّا جميعًا المصير ذاته...

– صحيح، سينال منّا القهرُ واحدًا تلو آخر...

– كفاكم بثًّا لليأس، ستضع الحرب أوزارَها ولو بعد حين...

– ثمّة من لا يريد لهذه الحرب أن تنتهي...

– لا تظلم خليل الخوجة...

– الأمر أكبر من الخوجة، لكنّه متواطئٌ بإخفاء الحقيقة...

– ولده يجلس إلى جوار النافذة ينتظر، عجيبٌ أن يتعاطف الصبيّ مع زكريا، والأغرب أنّه لم يهبّ ليدافع عن أبيه.

– ينتظرُ الصبيّ ليطمئنّ على مصابنا هذا، فحريّ بكم ألّا تذكروا أباه بسوءٍ...

– حتّى إن سمع، فهو أخرس، والأخرس لا يذيع السرّ...

– قد يكتبه، فهو قارئٌ وكاتبٌ جيّدٌ كما تعرفون، لا يتوقّف عن قراءة الكتب التي لا يمَسُّها أبوه...

– فليذهب رفقة أبيه إلى الجحيم، لن أكمّم خواطري وإن جلس الخوجة نفسه أسفلَ هذه النافذة...

–هو صبيٌّ لا ينفع ولا يضرّ، أستغفر الله العظيم، ما كلّ هذا السواد الذي يستعمر قلبك...؟!

– الرجل يتململ في فراشه... أظنّه يستفيق...

– هو على هذه الحال منذ يومين، تقول امرأته إنّها تسقيه الماء...

– أخشى ألّا يستفيق أبدًا...

–مسكينة امرأته، لم تتوقّف عن البكاء، لعلّها تبكي وداع أبنائها، وتخشى أن تبتلع دوّامة الكرب زوجها، سمعت أنّ أباه عاش ومات مكروبًا...

– لندعُ لهما بالصبر، ولأبيه بالرحمة...

– أراك لا تملك غير الدعاء يا شيخنا...

– ولمن نلجأ إن لم يكن اللجوء إلى الخالق عزّ وجل؟ الشيخ على حقّ...

تسرّبتْ إلى مسمعي محاوراتُ الجلوس من حولي. تدريجيًّا أدركتُ أنّي في فراشي، في دارٍ لم يعد لي صبيةٌ أسفل سقفها. كنت أسمع صوت أنفاسي صاخبة، وقلبي يدقّ كطبل الأعراس. عرفتُ ممّا تيسّر لي سماعُه أنّ نهارين قد انقضيا وأنا على هذه الحال. استعدت الوعيَ والإدراك تدريجيًّا، ميّزتُ صوت الشيخ أيوب، والنحّال والكلّاف، والدبّاغ والنجّار، وسط أصوات آخرين لم تمكّنّي الذاكرةُ

من التقاط وجوههم. حاولتُ أن أفتح عينيَّ فشعرتُ كأنّ أحجارًا صمّاء صُفَّتْ فوقهما. تذكّرت التمثالَ بذكر الحجر، وأسعدني أن شقَّه أحدُهم إلى نصفين، لعلّ أسطورة تجواله تندثر.

بعد جهدٍ عظيم، أفلحتُ أخيرًا في فتح عينيَّ. وجدتُ رأسي مائلًا تجاه النافذة فلم يميّز الجالسون إلى يساري استفاقتي. ألفيتُ الصبيَّ الأخرس يسترق النظرات نحوي بنصف وجه. ابتسم حالما التقت نظراتُنا، ولمحت في عينَيه طيفَ سعادةٍ عابرًا وبشائرَ دموع، ربّما لأنّي بخير.

كان يعتمر طاقيّةً صوفيّةً أهديتُه إيّاها منذ عام. أهي مصادفةٌ أم عرفان؟ لا فرق، فلطالما شعرتُ بعاطفةٍ تجيش في صدري كلّما التقيت بحكيم. لم أعرف يومًا سببًا مفهومًا لما أشعر به من شفقةٍ تجاهه، ربّما تخلّي أمّه عنه، أو الحالة المرضيّة التي أودت بصوته إلى سكونٍ دائم، ربّما لكونه ابن الخوجة، وربّما لكلّ تلك الأسباب مجتمعة. لم أقف على حقيقةٍ جليّة، كلّ ما في الأمر أنّي شعرت بارتياح لكونه أوّلَ من صافحته عيناي عقب زوال الأزمة واستسلامِ العقل لحقيقة رواح البنين.

مرّت عقبَ ذلك أيّامٌ دأبتُ فيها على التجوال بين الدروب بعد المغيب. توقّف الناس تدريجيًّا عن زيارتي، فتعاظم لديّ الشعور بالوحدة واللّامبالاة. بتُّ أميلُ إلى الانعزال عن الجميع. حتّى مستورة، كانت غارقةً هي أيضًا في بئرٍ من الترقّب، منخرطةً في صلاة أملٍ لا تَشَهُّد فيها ولا تسليم.

واصلتُ العملَ في الورشة بلا توقّف، رحتُ أحيك المفارش والجلابيب من دون أن يطلبها أحد، أصنع من كلّ جلبابٍ أكثرَ من مقاس، وكذا المفارش والحصر، ثمّ أخزّن ما أنهيه في مخزني الصغير داخل المنسج، ومن دون درايةٍ أو سابق تخطيط. اتّفق لي بطريقةٍ مّا أن أخيط أغلب الجلابيب لتناسب شبابًا فارعي الطول، كأنّي أتأهّب لعودة الجنود، مؤمنًا بما تُردّده مستورة.

فيما بعد، وجدتُ شيئًا من التسرية في مراقبة شؤون البشر عقب إغلاق الورشة بحلول صلاة العشاء. انغمستُ في رصد مشكلات الآخرين بعدما صعبَ عليَّ ترتيب الأحداث في ظلّ غياب النتائج المطبوعة. طفقتُ أتصفّح الوجوهَ الموشومةَ بالفقد والاشتياق إلى غائبٍ لا يعود، وشعرتُ بألفةٍ وقد أحاطت بي مشاعر الافتقاد وانعكست في عيون الجميع.

اعتصرتُ ذهني أكثر من مرّةٍ محاولًا استدعاءَ ملامح العمدة الذي غاب منذ استتباب الحصار. يقع مستقرُّه في القرية المتاخمة للنجع القديم، ونجعُنا ضمن ولايته، لكنّنا لم نعتد كثرةَ مروره بالنجع، حتّى انقطع تمامًا عن زيارتنا منذ زُرعت الألغام. أفكّر: أتكون قريتُه محاصرةً بحزامٍ ناريٍّ مُشَابه؟ لا أستطيع الجزم، كما لا أهتمّ، الواقع أنّ أحدًا لا يفتقد العمدة الغائب، بعدما آمنَ الناس بولاية الخوجة، وبايعوه ما بين مباركة العربات الصفيحيّة، وصمتهم المصبوغ بالقبول والرضا.

أمرُّ حذوَ الترعة، أقفُ على مقربةٍ من ضفّتها القريبة طاويًا

ساعاتٍ تفصلُ النهارَ عن اللّيل، أرمي بصري شطرَ النجع القديم، وأسترجع مآسي الجدود الغارقين. يتوق الناسُ إلى زيارة القُرى الهاجعة على امتداد الترعة خلفَ الجبّانة، حيث ترتصّ ديارٌ هادئةٌ تؤرّق نومَها القوافلُ والأسواق الأسبوعيّة، لكنّها غَدَت اليومَ حلمًا بعيدَ المنال.

ثمّة فجوةٌ شاسعةٌ بين ما يختمر في العقول وما ينطقه اللسان، اتّفقت الأغلبيّة على كَبحِ خواطرها والنطق فحسب بما هو مسموح، لم يُملِ عليهم أحدٌ ما هو ذلك المسموح، لكنّهم عرفُوه بفطرتهم، فدأبوا على السكوت، وإن بقيَ نوح النحّال من ذلك استثناءً.

أستدعي كلمات الرجل، هل حقًّا أقصانا الوطنُ خارج حدوده؟ وأتأمّل: تقلّصت مساحةُ النجع، واستحالَ النجعُ القديم أطلالًا تئنّ أحشاؤها كلَّ شهر؛ فهل حقًّا مُزِّقَت صفحةُ النجع من الخرائط الرسميّة، فباتت تلك الخرائط تحوي بقعةً من فراغٍ نعيش نحن فيه الآن؟

أُطالع وجوهَ الناس، أغلالٌ خفيّةٌ تُثبّتُ الزمن فوق رؤوسٍ مطرقة، القلوب مغلّلةٌ بعدم القدرة على الفعل، أو على التحرّك خارج الإطار المرسوم.

قرّرتُ إغلاقَ الورشة لنيل استراحة مؤقّتة. انتهيت من تخزين منتجاتٍ تنتظر زبائنها، ووضعتُ المزاليج على بابها. أخبرت مستورة بحاجتي إلى هدنةٍ قصيرة، فلم تعارضني وإن بدَتْ معتلّة الصحّة، إذ كثر سعالُها في الليالي التي سبقت إغلاقي الورشة، لكنّها قالت

إنّ الأعشابَ وبعضَ وصفات الخالة وداد المُجرّبة جعلتها أفضل حالًا. فصدّقتُها.

جعلتُ التجوالَ اليوميّ حذو الترعة وصولًا إلى الجبّانة طقسًا يوميًّا أواظب على مناسكه. ودحرتُ خوفي، فبتُّ أجلس القرفصاء في مواجهة مائها الراكد، قبل أن أسبل عينيّ وأسلم عقلي لفيوضٍ من الرؤى والذكريات. كنت أتصوّر أبي وهو يحاصر اليهودَ في القدس مع الحسيني، أبتئس بتصوّر ما عاناه بعدما فقَد سلاحَه فعاش بين شجر الزيتون، بعيدًا عن وطنه. ثمّ أتصوّر الخوجة كدلّال العبيد الذي روى عنه الأقدمون. أراه وقد وقف فوق تبّةٍ رمليّةٍ تستقرّ فوقها مصطبةٌ تسقفها عريشةٌ ذات تخاريم ينسكب منها ضيّ الشمس، وتتأرجح فوقها عراجين بلحٍ ذي حمرةٍ زاهية. يقفُ الدلّال مُحلّقًا فوق شواهد النظّار، يرفعون رقابهم كي يطالعوه، فيشرع في تعداد مزايا الصبية الثلاثة:

-ذلكم سعدون الريماوي، له بنيةٌ قويّة، حَمولٌ لا يعارض الأمر إذا جاءه، بشوشُ الوجه لا يعقد حاجبَيه حتّى إذا داهمه كابوسٌ مريع. ومن خلفه سعد وسعيد، وكلاهما صحيحُ البنيان، سليمٌ عصيٌّ على المرض والعلل. ثلاثتهم أشدّاء أصحّاء تمتدّ جذورُهم إلى فلسطين التي حرّرناها، يحترفون النسجَ كأبيهم المعتوه، بيد أنّهم ينسجون الآمال والأحلام والصور الملوّنة. عمّالٌ نُشطاء، يجيدون النقلَ والتخزين ورصّ جوالات الرمل في واجهة الثكنات، شبابٌ بمثل طموحهم،

حتمًا يواجهون رصاصات العدوّ بوجوهٍ ضاحكة، وصدورٍ عارية، وحيلةٍ واسعة، فلا يُخلّفون الكدرَ أينما مَضَوا أحياءً وأمواتًا. شبابٌ مسالمٌ يتلقّى الأوامر بحبورٍ وقبول، يصهر قلوبَهم عشقُ هذا الوطن، ويؤمنون بالزعيم إيمان الأقدمين بأنبياء الله، سيقاتلون ما بقيت صدورهم عامرةً بالأنفاس، فإذا ما أسلموا الروح فداءً للوطن، زهدوا في النياشين والجنازات العسكريّة.

تعجّبت من إلمام الخوجة بأصلي، ضايقني تفاديه ذكرَ أبي وبطولاته، وتجاهلَه أسبابَ هزيمته، لكنّي سرعان ما انتبهت إلى أنّي أهذي.

وجدت أنّ الخوجة لو أحاط ببسالة أبي وتاريخه، لما جرؤ على اتّهامي بمعاداة حربٍ حرّرت وطني الأمّ، وأراحت أبي في رقاده. لم يعرف ذاك اللئيمُ أنّي ضحيّةُ انتظارٍ حرمَني أُبُوّةً لم أنهل منها إلى القليل، وأنّي ما عدتُ قادرًا على خوض انتظارٍ جديد. ثمّ شردت وهلة: لا ريب في أنّ الخوجة يعرف كلَّ شيء، لا يُعقَل ألّا يعرف، فإن راوغته الحقيقة التي طمستها الهويّة المصريّة لموسى الريماوي، فزوّاره حتمًا يعلمون.

وجاءت ليلةٌ بصقتْ فيها مستورة دمًا. اصفرّ وجهُها كأوراق الخريف، وذبلَ جسدُها وضمر نهداها. باتت تترنّح كلّمَا مشت، تستند إلى جدران الدار ما لم تجد كتفي قريبًا، ثمّ ما عادت قادرةً على الوقوف.

قرّرتُ الالتجاءَ إلى خليل الخوجة بعد قطيعةٍ نشأت بيننا منذ ما جرى يوم رحيل الصبية. كنتُ قد قاطعت دكّانتَه ومجلسَه، لذلك أؤدّي الصلوات أمام باب المسجد إذا وجدتُه جالسًا في صحنه. وقد دأبتْ مستورة على استدعاء ولده حكيم لتملي عليه طلباتها في بداية مرضها. وكان الصبيّ يأتيها بما ينقصُ الدار. لم أقترب من بيته أو دكّانته منذ غادر الصّبْية، لكنّ تدهور حال مستورة أجبرني على مراجعة الأمور، فهو الحائز الوحيد للعقاقير الطبّيّة، وهو الوحيد القادر على جلب العون إذا شاء.

بدت أعراض الداء شبيهةً بأعراض السلّ، فاعتراني جزع، ودمعت عينايَ لتصوّر فقدان مستورة. جمعتني بالخوجة محاوراتٌ قليلةٌ منذ ذلك النهار الرماديّ المقبّض، دار معظمها عن مطالبته لي ببيع المنسوجات والحصر عبر دكّانته حرصًا على توريد حصّة المجهود الحربيّ للدولة. لكنّي رفضتُ من دون غضب، وقرّرت أن أحسب حسابي بنفسي، مدّخرًا حصّة الدولة من ريع تجارتي، كي أسلّمها إلى ممثّلها، يوم يعود الصبية وليس قبل ذلك.

مضيتُ نحو داره مسترجعًا أواخرَ الأحداث. حاول الخوجة مرارًا أن يضيّق عليَّ خناقه، وطفق يكرّر أنّي لا أدفع حصّتي من المجهود الحربيّ. فأقول إنّ أموال الدولة لديّ، لا أمسُّها، ولا أنتقص منها ملّيمًا. فيقول: فلتدفع إذَن. فأجيبه: لدى الدولة أبنائي الثلاثة، فلتردّهم إليَّ أوّلًا.

أنَّتْ عظامُ ركبتيَّ بينما أهرول صوبَ دار الخوجة. تهدّجت

أنفاسي، وتكالبت على مخيّلتي هواجس تتأرجح بين وداع مستورة ووداع الصبية. طويتُ الطريق بقدر ما سمح به الجسد من سرعة، حتّى لاح لي ظلّ ضخم وقد مال حتّى قطع الطريق أمام دار الخوجة.

بقي التمثال رمزًا للحرب حتّى بعد انشطاره نصفَين. وحين تسرّبت الحكايات من دارٍ إلى أخرى عن أسطورة تحرّك التمثال بالتزامن مع هبوط اللّيل، لم أشعر بالخوف، بقدر ما استوقفني تعبير العوام: «تمثال الزعيم»، فأنا أجهل مَن هو المقصود بذاك الزعيم، وما الذي قد يفعله زعيم -أيّ زعيم- في نجعنا المنسيّ أصلًا؟ ألا يجدر بالزعماء قيادة قوّاتنا وجنودنا في المعارك؟

أسترجع كلمات النحّال: «**آمن الناس بقداسة الصنم، حتّى اقتنعَ الصنمُ ذاته بقداسته فشرعَ يتجوّلُ بين رعيّته ويعيث في ديارهم رُعبًا ومجونًا**»، تبدو الكلمات أقربَ إلى ما استقرّ في عقول الناس من خرافات ساذجة، فلماذا اتّفقوا على إنكارها كلّما جهر بها نوح؟

عدتُ إلى الدار محمّلًا بالعقاقير الطبّيّة، بعضها للشرب وبعضها أقراصٌ للبلع. تفهّم الخوجة الأمر وإن بدا متبرّمًا، فخطّ بضع كلماتٍ على قصاصةٍ من ورق، ثمّ راح يكرّرها على مسمَعي بعدما ذكّرته -خجلًا- أنّني لا أجيد القراءة. راح يلصق القصاصات على أشرطة الدواء وعُلَبه، ثمّ جعل على القصاصات خطوطًا تشير إلى عدد مرّات تناول العقار.

حضر لقاءَنا حكيم، فزاد الأمرَ إيضاحًا بأن رسم إلى جوار الخطوط شمسًا تفيد بتناول جرعة الدواء نهارًا، وقمرًا لتناولها

مساءً، وراح أبوه يوضّح لي الفارق بين الشمس والقمر من خلال الخيوط الدالّة على شعاع الشمس. حفظتُ التعليمات عن ظهر قلب، ثم أدبرتُ شطرَ الدار. وساءت حالة مستورة. أعنْتها على شرب الدواء وابتلاع الأقراص، لكنّها سعلتْ كثيرًا، ثمّ راحت في سباتٍ هادئ، وبقيتُ أنا أصلّي على مقربةٍ من مرقدها، أتضرّع إلى الله، ويلفّني الخجل لأنّي أثقلت السماءَ بأدعيةٍ تتبدّل بين ردّ الغائب وشفاء المريض.

بعد أيّام، زارتنا الخالة وداد رفقةَ حكيم الأخرس. فعرفتُ أنّ الصبيّ استدعاها. وقد جزمتْ أنّ السلّ هو ما أصاب مستورة، وقالت إنّ امرأةً قبطيّةً تسكن القرية المجاورة طالما برعتْ في صنع وصفاتٍ عشبيّةٍ تعالج السلّ، لكنّ ما قالته لم يزدْني إلّا عجزًا وغمًّا. قالت إنّها ستبحث عن وسيلةٍ لاستقدام المرأة على الرغم من الحصار، أو جلب واحدةٍ من وصفاتها. ثمّ أعطتني أعشابًا قالت إنّها قد تفيد، وأشار حكيم إلى أنّ أباه قد تحدّث إلى زوّاره في شأن مستورة، إذ برم بيدَيْه شاربًا خفيًّا أسفل أنفه إشارةً إلى أبيه، ثمّ أشار إلى فمه دلالةً على الكلام، ثمّ ربّت بإبهامه ووسطاه على كتفه. فأومأتُ إليه شاكرًا بصوتٍ بلّلتْه دموعُ قلّة الحيلة. ونقدتُ الخالة وداد قيمةَ الأعشاب التي جلبتها، فرفضت بعناد. ثمّ مضيَا كلٌّ في اتّجاه داره.

في غضون أسابيع، أمست مستورة عاجزةً عن الجلوس. وازدادت كثافةُ الدم في بصاقها، وهزلت وكبرت عشرةَ أعوام.

شعرتْ بدُنُوّ الأجل فراحت تملي عليَّ وصاياها، وقد جاءت كلُّها متعلّقةً بالصبية. كانت تؤمن بحتميّة رجوعهم، تثق أن لا شيء سيُبطِل ذلك الإيمان، وطلبتْ أن يكون الوقوف على قبرها وقراءة الفاتحة هو أوّل ما يفعله الصبية يوم العودة. ثمّ أصابتها الحمّى فامتزجت الوصايا بالهذيان، وراحت تحدّد شروطًا لزوجة كلّ صبيٍّ على حدة. ثمّ استقرت داخل دوّامة هذيان، فأوصتْني أن أخبر الصبية أن يترقّبوا عودتَها قُرب غيّة الحمام، إذ تجيئهم في هيئة حمامةٍ شاهقة البياض، لها منقارٌ أخضر.

ماتتْ مستورة بعد ذلك بأيّام. ورفضتُ إقامة مجلس عزاءٍ، فوضعتُ المزاليج على باب الدار طوالَ أسبوعٍ عقب دفنها. أبلغتُ الناس فوق قبرها أنّ أبناءها وحدهم سيتلقّونَ العزاء، ولذلك فهو مُؤجَّلٌ حتّى عودتهم.

دقّ كثيرون بابَ الدار في أعقاب ذلك، نادوني بأبي سعدون، فصرخت بهم: **اسمي زكريا الرياوي**، وطلبتُ منهم الرحيل كلّما حاولوا رؤيتي.

وبمرور الأيّام، توقّف الناس عن المحاولة، واحترموا عزلةً نسجتُها حول هزيمتي. نسوا أمرَ مستورة، وانشغلوا بأخبار الحرب وانتظار العائدين من أبنائهم.

وجاء يومٌ تسربل في ليلٍ طويلٍ لا آخر له، عجزتُ عن النوم، وكبّلَ جفنيَّ سيلٌ من المشاهد الدامية على الجبهة، جثثٌ متناثرةٌ وأشلاء ممزّقة، رؤوسٌ مبتورةٌ تدور عيونُها في محاجرها بحثًا عن أجسادها، نهرٌ

أحمر ترتصُّ على ضفّتَيه خوذاتٌ وبيادات عسكريّة، وندّاهةٌ عاريةٌ تبرز من حمرته لتنادي أبنائي، واحدًا تلو آخر، تردّد الاسم عقب الاسم مقرونًا باسم مستورة، وفي نهاية الأمر: نادت اسم أبي. قرّرتُ الهروب من الفِراش والصبحُ جنينٌ لم يولد، صلّيتُ صلاةً في غير أوانها، وبكيتُ فوق الحصيرة وأنا أقرأ التشهّد. أمسكت المصحف، وحاولتُ أن أتذكّر الآيات السبع المنجيات، فخانتني ذاكرةٌ مكتظّة بصور الوداع. بدّلت جلبابي بآخر بُنّيٍّ ثقيل، مضيتُ مغمضَ العينين من دربٍ إلى زقاقٍ فطريقٍ يفضي إلى زروعٍ نائمة. شحّ ضياء القمر، فرسم للدور ظلالًا باهتة لا تكادُ ترى. شعرت بخطواتٍ تتبعني، حاولت سبرَ غور الظلام بعينَين أرهقهما السهر، لكنّي ما أبصرت غير ظلّي. تذكّرتُ الحكايات عن التمثال إذ ينشط عقب المغيب، فما تملّكني خوفٌ وما مسّني قلق، فقد امتلكتُ من مسبّبات الخوف ما يفوق في شناعته ألفَ تمثال وألفَ حجرٍ لزعيمٍ بلا رأس.

تجاهلتُ الدبيب المتصاعد من خلفي حين بلغتُ الترعة. فكّرتُ في زيارة قبر مستورة في تلك الساعة. وجدتُ في محادثتها تسريةً وطردًا للهواجس. وقفتُ عند ضفّة الترعة، ودقّقت النظر في صفحة مائها محاولًا التأكّد من لونه. إذ خشيتُ أن أجده مصطبغًا بالدم. كانت أخيلة الخوذات وأعضاء الجنود المبتورة تطاردني، والصورُ التي دهمتني بين اليقظة والسبات تتكاثف في عينيّ موشكةً على التجسّد. أغمضتُ عينيَّ وهلةً، ثمّ أعدتُ التدقيق في لون مياه الترعة، قبل أن أزفر ارتياحي وقد وجدتُها بلون الطمي.

بزغ النورُ، فميّزتُ ظلًّا من خلفي يتعاظَم مقتربًا. التفتُّ إذ ظننتُه ساهرًا آخرَ أقضَّ الأرقُ مضجَعه. فجاءت الدفعةُ قويّة حتّى طرتُ مسافةَ ذراعَين، التفتُّ بعينٍ مأخوذة صوبَه وأنا معلّقٌ في الهواء أتأمّل من دفعني، فميّزتُ حجرًا ضخمًا، يحمل رأسًا بشريًّا، تبدو ملامحُه مألوفة.

بكل حبي للحياة ولبلدي... وبكل بسمه فوق شفايف ولدي
وبكل شوقي للفجر وشروقي... وبكل نبض الثورة فِ عروقي
جتلك وأنا ضامم جراح الأمس، حالف لرجعلك عيون الشمس
جيش الظلام فْ يوم ما هاجم فجرنا...
إحنا جنودك يا بلدنا وحبنا
ماشين على طول الطريق اللي رسمناه كلنا



عبد الحليم حافظ

كلمات: محسن الخياط

لحن: بليغ حمدي

الثورة تلتهمُ الثوّار

النار تسودُ المشهد، تخترقُ سُترَ اللّيل وتنعكس لمعتُها في الأحداق. المشاعلُ تلفظُ غضبَها حِممًا بين الزروع. العشرات من الموبوئين بالقلق يخترقون الظلامَ في كتلةٍ واحدة، الأصوات غاضبة، والصياح يثيرُ الفزعَ في دار الخوجة، خليل يحتمي بزوّاره، والزائرون أيضًا لا يستوعبون ما يجري، صوت النحّال العجوز يخترق الأبوابَ، ينادي ولدَه الغائب، والناسُ من خلفه يردّدون النداء ذاتَه مع تبديل الأسماء، فكلّ منادٍ ينادي غائبَه، كلّ مكلومٍ يبوح بشكواه، وصبيٌّ جافلٌ متسمّرٌ خلف التمثال المشطور، يحمل على ظهره جِوالًا ضخمًا دسّ فيه صندوقًا خشبيًّا حوى جهازَي الراديو والجرامافون. كان يتابع زحف الجموع القلقة ومن خلفها قطعانٌ من الظلال تدكُّ الأرض بأقدامٍ حافيةٍ عازمةٍ على المضيّ قدمًا. ينكمش الصبيّ في مخبئه، يتحسّس صندوقَه في جِواله الثقيل، يطمئنه أنْ حمل معه كلّ الأصوات التي تأسره ولا يقدر على نطقها.

قضى الساعات الأخيرة قربَ المسجد، إلّا أنّه لم يجد الأمانَ كما ترجّى. وجدَ الشيخ اليائس من هجران الناس لصلاته أكثر رعبًا منه، ترتعدُ فرائصُه ويتلعثم لسانُه بينما يحدّث نفسَه عن صلاته المُبتدَعة.

يدعو الظلالَ إلى الصلاة وينادي أطياف المارّة أمام المسجد أن ينظّمُوا الصفوف، فلا يستمع إليه أحد. يبكي الشيخُ، ويسترجع الصبيُّ مشهدَه، فيدهمُه وجلٌ يعتصرُ قلبَه إذ يتصوّر مصيرَه المحتوم. تتسارع نبضاته، لكنّ الندمَ لا يساوره على الإطلاق. عرف أنّ ثمّة ثورةً على وشك النشوب، فعجّل بسطل ألوانه إشعالَ فتيلها. لقد رأى كلَّ مُسبّباتها على أهبة الانفجار منذ أسابيع، آمَن بما آمن به المنقلبون على الخوجة، فاعتنق الخلاصَ مذهبًا وإيمانًا. لم يشأ أغلبُ الناس الهرب بقدر ما تمنّوا لو يعرفون، لبّوا دعوة النحّال للانتفاض بغية أن يكون إبلاغهم بالحقيقة المخبوءة حجرَ أساسٍ يقرّرون في إثره ما يتوجّب عليهم الإتيان به، فإمّا الرحيل النهائيّ، أو مواصلة الانتظار.

شرع كلٌّ منهم يقذف المحاصَرين داخلَ دار الخوجة بوابلٍ من أسئلةٍ تخمّرت في صدورهم: **أين المحاربون؟ لماذا لا يعودون؟ أين جثامين القتلى والراحلين؟ ما مصيرُ مراد الوحيد المأخوذ بغير حقّ، أين أبناء النسّاج؟ لماذا لم يحقّق أحدٌ في مصرعه؟ أين الأطبّاء؟ أين البيطريّ؟ من جلب هذا التمثال؟ ولماذا جاؤوا به إلى نجعٍ مُحاصر؟ من يزرع النارَ حول حدود النجع؟ لماذا يُرسل البعض الخطابات والحوالات والبعض لا يرسلون؟ ماذا تقول اللّافتات الزرقاء المثبّتة خارج النجع؟ ولماذا تحمل كلماتٍ مختلفةً على جهتَيها؟ من يكتب العبارات على جدران البيوت؟ من ذا الذي يتجسّس على الناس ليذيع أخبارَهم ويخوض في أعراضهم؟**

راحت الاستفهامات تتوالى وتتحلّق حول دار الخوجة مُحكِمةً

حصارها، والصبيّ اليافع ينسحب تدريجيًّا من محيط الدار، يسمع دويّ إطلاق النار، ويشاهد مشاعل النار تتطاير ببطءٍ في الهواء حتّى تستقرَّ على تعريشة الدكّان وسقف الدار، وتعبر بيسرٍ نوافذَه التي تركها مشرعةً على الترقّب.

تلتهم النار الجائعة كلّ شيءٍ بنهم، وقرابة عشرين نفرًا ينقضّون بغتةً صوب التمثال؛ يرفعونه عن الأرض بمشقّة، قبل أن ينضمّ إليهم آخرون فيحملونه فوقَ أكتافهم كما تُحمل النعوش. يهرول الناس به صوبَ الترعة وقد مسّهم الجنون، فجعلوا يتحدّثون عن إغراقه في الترعة والتخلّص من سطوته وأسطورته.

تابعت عينَا الصبيّ جنازةَ التمثال بسعادة. ثمّ راحتَا تحدّقان في الأرض المسودّة حيث انتزعه الغاضبون، قبل أن يسقط أحدُ المشاعل المتطايرة فوق جِواله المثبت على ظهره.

اخترقَ صخبُ الرصاصات هدأة النجع، وبلغَ المهاجمون الدارَ فتعالت الصيحات واختلط الحابل بالنابل. آهاتٌ وأصواتٌ تتناسل فيبتلع بعضُها بعضًا. أعمى الغضبُ الناسَ فاقتحموا الدارَ بعدما شبّت فيها النار. طالت ألسنة اللهب حتّى ابتلعت المشهد بأكمله. عامت دار الخوجة ودكّانته فوق أمواجٍ من لهيبٍ مستعر، وبدا أنّ أحدًا لن ينجو من ذاك الجحيم سوى حمَلَة التمثال الذين مضوا شطر الترعة.

تصرّف المهاجمون كأنّهم ينشدون انتحارًا جماعيًّا، إذ بدا إحراق الدار قبل اقتحامها مخالفًا لغريزة البقاء، لكنّه فعل الغضب.

مرّت بضع ساعات، التمّت حول دار الخوجة المزيد من العربات المموّهة، النسوة قبعنَ في بيوتهنّ رفقة الأطفال، ومَن لم ينضمّ إلى المهاجمين من رجال النجع، وقف يشاهد أتون الجحيم، يضرب كفًّا بكفٍّ، يُحَوْقِل ويقرأ الآيات، بينما انشغل نفرٌ منهم بتحسّس البراح الملغّم حول النجع بقدمَين حذرتَين تلفّهما رجفةُ الخوف ونشوةُ الكشف.

اعتكف الشيخ أيّوب في المسجد، وَعَلَتْ سحبُ الدخان أسطحَ الدور فامتزجت باللّيل الهابط، وصعُبت الرؤية في الطرقات، انتشرت رائحةُ الشواء فاختلطت بالرماد المتطاير من دار الخوجة. تحوّل النجع إلى حفلة شواءٍ جماعيّ.

كان الصبيُّ المتمرّغ في التراب يحاولُ إخمادَ نارٍ نشبت في صندوقه وطالت جلبابَه. أخذ ذهنُه يستعيد مشاهدَ وحكاياتٍ ترسّخت في مخيّلته وشمًا لا يمحُوه الزمن: صلاةٌ فرديّةٌ تُقام في مسجد خالٍ، ساعةُ حائطٍ تسرّبَ من عقاربها إيقاع الحياة فبقيت صامتةً في دار تحترق... روزنامةُ حائطٍ يدويّةٌ مُعلّقةٌ على جدران المسجد ولا تمتدّ إليها يدٌ تبدّل الأيّامَ وتوثّق الزمن... ظلالُ جِمالٍ ونوقٍ شاردة تقترب من النجع رفقة ظلال الجنود الهاربين من مصائرهم... نجّارٌ يصنع القوارب على مرفإ اليبس، وينهمك في حفر ممرّ خلاصه... كلّاف غارق في هموم مواشيه حتّى إنّه استبدل بمعاشرتها مجالسة البشر... دبّاغٌ اعتزل الناس والدنيا مذْ ذاع خبره بين الناس واستقرّ به الحال في دار النسّاج المهجورة... دار الخالة وداد التي باتت هي أيضًا خالية،

بينما طيفُ العجوز يسرح بين عيونٍ وأفواهٍ حارت في تسميتها بين القابلة والسحّارة... صور الجنود والغنائم والزعيم تطلّ من صفحة جريدة «صوت الحرب»... صور الزعيم الباسم فوق عواميد النور، ورأسه الواجم الملقى في مدخل دار الخوجة بعدما فصله النحّال عن جسده ذات غضب... صورة زفافٍ مهملةٌ بين رفوف مكتبةٍ عامرةٍ بالكتب، وعناوين رواياتٍ تسرّبت منها الحكايات إلى عقل الصبيّ طوالَ سنوات الصمت... عُلبٌ من الكرتون طارت منها الفراشات وتركت أجسادَها القديمة رهنَ الحرق... أطلال النجع القديم وحكايات السيل والنهر والقدّيس... شواهي إذ تفترّ شفتاها عن بسمةِ ألقٍ تؤجّج في صدور النظّار نارًا... السماء يوم انشقّت عن نور البيان، وما تزامن مع الانفجار من صرخاتٍ لم يسعه الاستدلال على الأفواه التي أصدرتها، وأخيرًا، الوباء الذي استوطن الرؤوس والصدور منذئذ.

ينجح الصبيُّ في إخماد النار بعدما استحالَ صندوقُه رميمًا في غضون دقائق، ويشعر براحةٍ إذ أنّ غيّات الحمام فوق أسطح الدور القريبة ما زالت آمنةً لم تمسسها النار. لكنّه يميّز في الأفق المغبر صقورًا تحوم فوق النجع تتحيّن لحظةَ الانقضاض على جثثٍ تشتمّ رائحة موتها الآتي.

يركض الصبيّ، تتسرّب إلى مسامعه أنباء عن سقوط حَمَلة التمثال في حفرةٍ غائرةٍ في الأرض إبّان محاولة إغراقه، ويتحدّث الراكضون عن نفقٍ جرى إعدادُه تحت الأرض قربَ الترعة، ثمّ

تهدّم تحت ثقل التمثال وحامليه. يلتقط الصبيّ العبارات وهو يعدو حاملًا كلَّ الصور والحكايات، يجرُّ من خلفه ظلًّا صامتًا يسابقه في عدوه نحو الخلاص، يلتقط مشعلًا سقطَ إلى جواره، ويقرّر أن ينطلق من حيث توقّفت العربات المموّهة، متتبّعًا آثار عجلاتها التي عرّجت بين مدارات اللغم صوبَ البراح.

من خلفه، وعلى ضوء المشاعل، يتأمّل الناسُ عبارةً ضخمةً خُطَّت حديثًا على جدار بيت الخوجة، مفادُها أنّ عبد الحليم حافظ: قد مات.

خليني كلمه؛ تصحي الناس وتهديها
خليني رحمه؛ تمس جراح وتشفيها
خليني بسمه؛ تهني قلوب وترضيها
خليني همه
خليني همة لكل عزيمة تحييها



عبد الحليم حافظ

كلمات: عبد الفتاح مصطفى

لحن: محمد الموجي

الجلسة الثامنة

جعفر الوليّ

طَرقاتٌ متتاليةٌ على جدران الصمت، ولهاثٌ متواصلٌ يبذر الخوفَ والهلع، صوتُ الطرق يتعالى، وعيناي كأنّهما مختومتان بالشمع، تتردّد في صدري أصداء السؤال بين أجوبةٍ تراوغه، أيعقل أن يكون هذا هو الموت؟ أأنا ميّت؟ إن كنت غائصًا في باطن الأرض ملتحفًا بالغياب، فالميّت لا يسمع! الحواسّ برمّتها تزول وتتلاشى بانفصال الروح عن الجسد، فلماذا تضجّ أذناي بذلك الضجيج؟ ولماذا لا يتوقّف الطرق؟ ولِمَ أذكر كلَّ شيء!

انتهيتُ من صلاة العشاء وسُنَنِها، شعرتُ بدوارٍ يلفّني، وانسدلتْ على بصري غشاوةٌ من بياض، فتمدّدتُ على حُصر المسجد وحيدًا. تكاثرت النقاطُ السوداءُ في عينيَّ فأغمضتُهما. ناديتُ أيّوب فلم أعرف هل بلغ النداء مسمَعه، أم إنّ الوهن في صوتي خذلني. شعرتُ بقلبي يدقّ في حلقي، فغشيني جزع، ورحتُ أردّدُ ما ظلّ عالقًا بالعقل التّعِب من آياتٍ وأدعية، ثمّ أسلمتُ نفسي إلى نعاسٍ طويل...

فلماذا لا أستيقظ؟!

كانت رائحةُ الموت تتسلّل إلى خلاياي، تتملّك من حاسّة

الشمّ لديّ فلا يَظلّ حاضرًا في ذاكرتي سواها، هي خليطٌ من روائح الكفن والتراب والمسك والدموع، عرقُ الحزانى وعبقُ الحُصر المفروشة على أرض المسجد، الروث وماء الترعة المسوّد، الزروع والنخيل والخبيز الصابح، كأنّ للموت رائحةً تمزج مفردات الحياة بلحظات الرحيل.

عقلي المتحيّر أضحى هشًّا يؤوي كلَّ هواجس الموت. أين أكون؟ تتعالى الطرقات والضربات على جدارٍ لا أبصره، ثمّة صوتٌ لترابٍ ينهال فوق جسدٍ قد يكون جسدي، وفحيحُ أنفاسٍ مذعورةٍ تسابق الخوف.

لو كنت ميّتًا الآن، فإنّ الجسد كلّه انطفأ، إلّا أنفي وأذنيّ!

وفي خضمّ هواجس ما انفكّت تقتحم السواد المحيط، ارتعشتُ ما إن غزاني سؤالٌ بسيطٌ في ظاهره، لكنّه يكاد يعصف بما تبقّى لي من حواسّ؛ هل كنتُ على حقّ؟!

أيّ حقّ أعني؟!

تتكاثف أصداء السؤال: أكنتُ على حقٍّ في ما اتّبعتُ وما فهمت وفسّرت وطبّقت؟ أيّ عبث هذا الذي يخاتلني؟ أيُعقل أن تجتاحني جيوشُ الشكّ وقد سكَنت الأنفاسُ فسكنْتُ القبور؟ ألستُ على يقينٍ من أمري؟ بلى! هل أنا واثقٌ من أنّني على يقين؟ أشعر بسخونةٍ تعيد إليَّ الإحساسَ بحدود جسدي، أأنا حيٌّ إذَن؟

يعلو ضجيجُ الطرقات، أشعر بألمٍ في ساعديّ، أتذوّقُ طعوم التراب والجير. الميّتون لا يشعرون بالألم ولا يتذوّقون. ولكن كيف

لي أن أعرف ما يَخبُره الموتى؟! يرتدّ في صدري السؤال، هذا ممّا اطّلعْنا عليه في كتب المقدّسات وروايات السلف الصالح، لكنّ أحدًا لم يصف شيئًا ممّا أشعر به الآن، أميّتٌ أنا يستكشف زيفَ ما لُقِّنَه ولَقَّنه طيلةَ عقود؟ أم إنّني حيٌّ في برزخٍ غير مرئيٍّ بين الحياة والقبور؟ أيّ برزخ؟ ألا يفترض أن يستجوبني الملكان في هذه الساعة، أنا متأهّبٌ وأعرف الإجابات التي ستحملني حتمًا إلى جنان السماء، فلماذا لا يظهران؟ أكانا حقيقةً أم هما وهمٌ تجرّعه العقل من دون تفكّر؟! لا، هما حتمًا حقيقيّان موثّقان في كتب الله والصالحين من الأئمّة، إن كانا حقيقيّين فهما إلى ظهورٍ حتميّ، ولكن ماذا لو لم يظهرا؟

قديمًا، كنت إذا أتاني الناس بشخصٍ يتشكّكون في إتيانه جرمًا مّا، سرقةً أو قتلًا أو إلحاقَ ضررٍ بأرضٍ أو زرعٍ أو ماشية، آمرُ الشخص الموصومَ بالشكوك أن يخطو عشر خطواتٍ فوق الجمر المشتعل. فإن أحرقت النار قدمَيه ثَبَتَتْ إدانتُه. وإن نجا حكمتُ ببراءته، ورددتُ له اعتبارَه أمام قومه وعشيرته، أمّا وقد بتُّ أنا الشاكي والمشتكى بحقّه، فهل تعرج بي الملائكةُ لأخطوَ فوقَ النار حتّى تنمحي ظنوني أو تترسّخ إلى الأبد؟

اختزنتُ عبرَ السنين أطنانًا من الحسَنَات وتأهّبتُ لحسن الثواب، فإن غاب الملكان تداعت جدران الحكاية، هل أندم على فعل الخير؟ لا يُعقَل أن يكون الموتُ رداءَ صمتٍ أسود يلتفُّ حولَنَا كشرنقةٍ خانقةٍ لتتناوب علينا الهواجس والشكوك! حسنًا، هو اختبارٌ إلهيٌّ لا ريب...

سامحني يا ربّي، فقد شتّتني الخوفُ وتملّكني الجزع. أتوب إليك وأعود، فهل تسامحني؟ لا يفترض بالله أن يجيب سؤالَ العباد منطوقًا، ولكن لا مانعَ من إشارة، أيّ إشارة؟ تلك التي أفنيتَ عمرك في انتظارها يا جعفر، حتّى بَلَتْ سجاجيدُ الصلاة أسفلَ جبهتك؟ هل أُنكر؟ لا أُنكر، لكنّ الأمر لم ينبع من شكّ، ولم تفرزه أبالسةُ دماغي. ترجّيت الله كثيرًا أن يهبني إشارةً على صحّة ما اتّبعتُ وصدقِ مَن جاءني منقولًا فوق ألسنة الصالحين. تمنّيتُ إشارةً ظننتُ أنّي أستحقُّها، زخّةَ مطر، نعيقَ غراب، عواءَ ذئب، هزيمَ رعد، ولكنْ... لا شيء.

أتُراني لم أستحقّ يومًا تلك المنحَة السماويّة التي اختصّ بها الله الأنبياء والرسل والصالحين؟ أَوَ لَمْ أكُ صالحًا؟ وما القياس؟ أيكون القياسُ وفقًا للكتب التي سألت الله أن يأتيك ببشارة توثّق صحّتها؟ هل كنت على ضلالٍ من أمري طوالَ سبعة عقود، أم إنّني أخطو للتوّ فوقَ أولى عتبات الضلال؟

أتحسب أنّ الله لم يركَ يا جعفر وأنتَ تحجّ متخفّيًا إلى حانة الغجريّة؟ أتنسى أنّك مَن أفتيتَ بجواز إقامة الحانة لا لشيءٍ سوى خوفك من هروب شواهي خارجَ النجع؟ أيّ رحمةٍ ترجو، وأيّ إشارةٍ ترجّيت؟

الطَّرقُ يتعالى، والملائكةُ لا تطرق الأبوابَ ولا تستوقفها الأسوار، فمَن يكون الطارق الذي يبثّ الحواسّ في روحٍ فارقت مادّيّتَها؟ وكيف للروح أن تشكّ وقد تركت عقلَها يخبو كذبالة شمعةٍ مطفأة؟

أتكون الكتب برمّتها محشوّةً بالأكاذيب؟ لا يُعقل! ولِمَ لا يعقل؟ لأنّ التكذيبَ لا يكون بمثل هذه البساطة، ولا يستقيم أن يمرّ من دون عقابٍ أو حساب، فإنكار المقدّسات ينسحب على رجالاتٍ استحقّوا مراتبَ النبوّة. ربّما أُنعَت بين الناس بالجنون لو شككتُ في الوجود الإلهيّ، لكنّ إنكار مكانة الزعيم، حتمًا ستترتّب عليه أمور أشدّ قسوةً، وتنكيلٌ لا يحتمله عجوزٌ مثلي!

الميّتُ لا يسمع، ولا يشمّ، ولا يشعر، وأنا أسمع صوتَ طرقاتٍ يصمّ الآذان، وأشمّ رائحةَ غبارٍ وجيرٍ وترابٍ كثيف، وأشعر بحجرٍ مربوطٍ على صدري. ربّما لم أَمُتْ أصلًا! فماذا أكون إذَن إن لم أكُ ميّتًا وما عدتُ حيًّا؟

يتسلّل الخدرُ إلى ساعديّ، ما زلتُ أملك ساعدَين إذَن! ولذلك فجسدي باقٍ لم يبلَ، ترتقي جيوش النمل ساعدي حتّى تبلغ كتفيّ، ويحجب الترقّب سحبَ شكٍّ انزرعتُ بينها من دون تخيير. ربّما أعيدُ التفكيرَ في كلّ تلك الأمور فيما بعد، ولكن إذا مُنحت فرصةً لمواصلة الحياة التي أعرفها فحسب. لستُ مستعدًّا للموت، لا أحد متأهّبٌ للقيا ذلك الغامض المجهول وإن ادَّعى العكس.

الكُتبُ صحيحة، الكُتبُ زائفة، لا أبالي، إلّا أنّه لا يمكنني الجهر بذلك أمام العوامّ لو استردّتني الحياة، خصوصًا ما يخصّ قداسة الحرب ومكانة الزعيم، لأعُدْ إذَن وإن من دون عقل، أو بغير لسان، سيكون الصمتُ نبراسي ومسلكي، حتّى أتدبّر أمري وأستقرّ على عتبةٍ راسخةٍ بين عتبات الشكوك.

الألم ينتشر في جسدي، ويعيدُ إليَّ أطرافي المفقودة، أشعر أنّني أرتجّ في مرقدي، ضوءٌ خافتٌ مغمس بالضباب يتسلّل إليّ، واهنٌ كضيِّ القمر في أمسيةٍ شتويّة، أيكون الملكان قد حضرا أخيرًا؟ منكر ونكير؟

أخاف أن يقتحما دُثري بأصواتهما الزاعقة وهيئتهما المخيفة إذ يقولان من ربّك، وما دينك، ومن نبيّك. هل يسألان ميّتًا مثلي: من زعيمك؟ وما حربك المقدّسة؟ وماذا فعلتَ لنصرة الزعيم في حربه التي لا تنتهي؟

يرتفع الصوتُ ويتسرّب إليه شيءٌ من ضجيجٍ يتعالى بالتزامن مع تسلّل الألم إلى خلاياي. تتشكّل نتفٌ من الضباب مشكّلةً مشاهدَ باهتةً في عينيّ المتحرّرتَين من أختام الشمع، أنا قابع في صندوق، وربّما هو قبر، فمي معبّأٌ بالغبار، ضجّةٌ بشريّةٌ قادمةٌ من حيث تكون السماء، خيوطٌ من الضوء تنغرس في عينيَّ كالإبر، وتجبرني على خفض ساعديّ إلى الأسفل.

أكنت أنَا -إذَن- مُحدِثَ الضجيج؟ أكان ساعداي يدكّان الأرضَ من فوقي طوالَ الوقت، وأنا ذاك المذعورُ الذي يطرق جدرانَ مشيمة الحياة عائدًا من رحم الموت؟

تتسرّب الروح إلى الجسد، فأشعر بثقله. أيادٍ تمتدّ محمّلةً بالتراب، وحناجر تفور في نسقٍ تصاعديٍّ بأن الله أكبر! ماذا أقول لهم إذا سُئلت عن معالم الآخرة؟ أيصدّق أيٌّ منهم طوافَ روحي لساعاتٍ فوق جسدي قبل أن تعود إليه من جديد، أيّ أعجوبةٍ ردّتني إلى

الحياة؟ سينهال عليَّ الناسُ بالاستفسارات والاستعلامات، فهل أعترف لهم أنّي قضّيتُ ساعات المعجزة في وديان الشكّ؟

الله أكبر ولله الحمد...

يا وليّ الله يا جعفر...

عاد الشيخ من الموت...

أصواتٌ تتكاثفُ من حولي بينما قوّةٌ هائلةٌ تنتزعني من موتي المؤقّت. لا أقوى على صلب جسدي، أتهاوى بين الكفوف والسواعد، ضرباتٌ تنهال عليَّ قاصدةً إهالة التراب عن كفنٍ راحَ ينزاح كاشفًا عُريي.

يأتي أحدهم بلباسٍ يسترني فأجدُ له رائحةَ المنيّ..

وحدَه المنيّ يدمغُ عودتي إلى الحياة ويصبغها بقدسيّة الميلاد الأوّل. أهمسُ أنّي حيٌّ فتتعالى الحناجرُ مجدّدًا بالتكبير والتهليل. تتّسع مدارات الضوء في عينيَّ، فأرى رجالاتٍ يطوّقون هزالي وفزعي. أميّزُ صوتَ ولدي أيّوب ينشجُ بآياتٍ وابتهالات، ويمدّ يمينَه تحت إبطي ليحملني رفقة المتجمهرين، يهمس في أذني معتذرًا عن مسارعته بدفني، ويذرف كلماته دامعةً مثقلةً بشكوكٍ تتقصّد المعجزة.

أسعى إلى ترك طوفان الشكوك في القبر، فلا أقدر على تصفية ذهني. أحاول الكلام، فتخرجُ الحروفُ مشوّشةً مبتورة. أحارُ في كيفيّة تكوين الجُمَل، وأشعر بشفقةٍ تعتريني حيال المكبّرين المحتفلين بميلادي الثاني، بالقدر ذاته الذي أشفق به على عجزي المستجدّ.

أيكون عجزًا طارئًا، أم إنّ عودتي إلى الحياة جاءت مشروطةً بالعجز عن إفشاء السرّ ونشر الشكوك؟ فمن شَرَط؟ ومَن نفّذَ إن لم يكن الله الذي عبدتُه وشككتُ في وجوده فاستحققتُ العقاب؟

أيكون الأمر عقابًا، أم تُراه قانون الحياة الذي لا تُعلِن عنه إلّا لشيخٍ مثلي، خابر الآخرة وغرقَ في مدّ الظنون حتّى لفظه الموتُ إلى الحياة مرّةً أخرى؟ كم فرصةً يستحقّها الإنسان فوق الأرض؟ وهل تظلّ الفرص سانحةً في رحم التراب؟

أتخفّف من وعثاء الرحيل والسفر، ويرقد الشكّ على اللسان فيلجمه. يرتدّ إليَّ بعضُ بصري فألمح الشكوكَ والتساؤلات تموج في عينَيْ أيّوب، أكتفي بمنح الناس إيماءاتٍ وبسمات، وأُلبس المعجزةَ ثوبَ الصمت. لا أقدر على الجَهر قائلًا إنّني متّ فلم أجد حسابًا، أو إنّني شككت في ديني حالما أطبقَ عليّ الظلام، ولا أن أجزم بأنّ الله استثناني من لوائح الآخرة التي طالما لقّنتها للعوامّ في دروس الدين. لا أثق الساعة بأيّ شيء، سأُمضي ما تبقّى مِن حياتي الثانية في مبادلة الناس التحايا ومَنْحِهم التبريكات. وقبل ذلك وبعده، سأنخرط في مناجاة الله عبر جولاتٍ متتاليةٍ من الصلاة والدعاء، حتّى يمنحني الإشارةَ الغائبة، ويغفر لي شكوكي.

يا مركبي سيري فْ طريقك... ولا تخافي الرياح
لو فيه ظلام فِي الوجود... قلبي أنا ملاح
يا بخت من قاسى يا دنيا... عشان كل البشر يرتاح
يا مركبي سيري



عبد الحليم حافظ

كلمات: محمد حمزة

لحن: محمد الموجي

استشارة طبّيّة

– اكتب ما تشعر به!

يقول ذو المعطف الأبيض، يرتكز بساعدَيْه على مكتبٍ معدنيٍّ قديم، ويبتسم. فيخطُّ الشابُّ عبارةً على وريقةٍ صغيرةٍ ويناوله إيّاها. يقرأ الطبيب، ثمّ يجيب عن استفسار الشابّ:

–نعم، كلّ ما تشعر به، فأنت تشير إلى صدرك وحنجرتك دلالةً على صعوبة في التنفّس أو البلع. الطبيب الذي أحلتك إليه في البداية أفاد أنّك صحيح الجسد، لذلك أنتَ هنا الآن، لسنَا على عجلةٍ من أمرنا، اكتب ما تشعُر به، تحرّر ممّا يثقل صدرَك على الورق، اكتب ما يؤرّقك، كلّ ما يؤرّقك.

يعيدُ الشابّ الكتابة، ويناول الطبيب قصاصةَ ورقٍ أخرى. يعتدل الطبيب في مجلسه، وتتّسع ابتسامته:

–لديّ الوقت لأقرأ، لا تقلق، ولا تنشغل بتجربتك مع الطبيب السابق، اعتبرها كأنّها لم تكن، أثق أنّك ستشعر بتحسّنٍ ما إن تكتب هذه المرّة، حتّى قبل أن أنتهي أنا من القراءة. لستَ مُضطرًا إلى كتابة كلّ شيءٍ دفعةً واحدة، بإمكانك أن تدوّن

مواقف أو مشاهد بعينها تلحُّ على خاطرك، الأحلام كذلك والكوابيس المتكرّرة. لا تتجاهل الأشياءَ التي قد تظنّ أنّها غير ذات معنى، بإمكانك أن تحكي كلَّ شيءٍ من البداية، على أن تمدّني بأوراقك التي تنتهي منها أوّلًا بأوّل. سأكون في غاية السعادة بقراءة ما تكتبه، وملاحظتي الأولى أنّك تكتب بخطٍّ منمّقٍ وواضحٍ وأسلوبٍ جميل، ربّما يعكس ذلك صفاء المخيّلة والثقة في ما تقول وتروي.

يخطُّ الشابُّ بضعة أسطرٍ متتاليةٍ على ورقةٍ أكبر حجمًا، يتأمّلها وهلةً قبل أن يعرضها على الطبيب بتوتّرٍ ملحوظ. يفكّر الطبيب لحظاتٍ في كلمات الشابّ الصامت، ثمّ يميل نحوه بألفة، ويعقب:

- أراكَ تُصعّب الأمور قليلًا، أو لعليّ لا أفهم ما تقصده بأنّك سوف تتقمّص شخصيّات الشهود هذه المرّة، ولا كيف ستستعير ألسنتَهم لتعوّض المنقوصَ من لسانك! لم أقرأ ما كتبتَه للطبيب السابق، ولن أفعل، سنُعيدُ التجربة كاملة، لذا أرجوك ألّا تهتمّ كثيرًا بأن أصدّق ما تكتبه أم لا، لا تكترث بتقييمي للمكتوب ولا تتصوّرني قارئًا أوحدَ لكتابتك، تصوّر أنّك تكتب ما سيقرؤه العالم بأسره. اكتب ما تودّ تذكّره وما تودّ نسيانَه على حدٍّ سواء.

يُخرج الشابّ من جيب سترته ورقةً مطويّةً بعناية، يَفردها على المكتب المعدنيّ، ويثبّت أطرافَها الملتوية، فتظهر كصفحةٍ مقتطعةٍ من جريدةٍ قديمةٍ مصفرّة. يضع سبّابتَه على عنوانٍ صغير، ولا يكتب

شيئًا. فيعقد الطبيب حاجبَيه، ويشرد وهلةً، ويطلق تنهيدةً حارّةً قبل أن يضيف:

- ربّما أغدو قادرًا على تكوين صورةٍ واضحةٍ لما تقصده عقب القراءة. مرّةً أخرى، لسنا على عجلةٍ من أمرنا، ولا ضرورة إلى القفز على ترتيب الأحداث، لا ينبغي أن يكون الأمر شديد التعقيد، على النقيض، الأمرُ في غاية البساطة، نحن بحاجة إلى عقد جلسات استماع للتعرّف على المشكلة. ونظرًا إلى حالتك، سوف نستبدل بالاستماع الكتابةَ والقراءة، وهو أمرٌ ينطوي على نوعٍ من التسلية والتغيير لكلينا. ما عليكَ إلّا أن تهوّن على نفسك، وألّا تنشغل بأثر الكتابة بقدر ما تركّز على الكتابة في حدّ ذاتها.

يزفر الشابّ بارتياح، يطوي صفحة الجريدة ويدسّها في جيبه باهتمام. ثمّ يصافح الطبيبَ الذي كسَا الكدرُ وجهه، ثمّ يخطّ له عبارةً أخيرة، فيؤكّد الطبيبُ أنّه سيزوره مجدّدًا بعدَ أسبوعين. يهزّ الشابُّ رأسَه مُمتنًّا لكون المدّة كافية، يتبادلان البسمات، ولا يلحظ أحدُهما عينَي الآخرِ وقد اغرورقتَا بالدموع.

عدّي النهار، والمغربية جايّة... تتخفّى ورا ضهر الشجر
وعشان نتوه في السكة... شالِت من ليالينا القمر
وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها
جانا نهار مقدرش يدفع مهرها
يا هل ترى اللّيل الحزين... أبو النجوم الدبلانين
أبوالغناوي المجروحين.. يقدر ينسّيها الصباح
أبو شمس بترش الحنين؟



عبد الحليم حافظ

كلمات: عبد الرحمن الأبنودي

لحن: بليغ حمدي

هوامش كاتب الجلسات

ورقة (٥)

أنا كاتبُ الجلسات...

أعفاني الله من عثرات الكلام يومَ وضعَ لساني في يدي لأستبدل بالمنطوق المكتوب. وواقعُ الأمر أنّ الكتابة تُوفّر كلَّ صنوف العناء، إذ تُجنّب المرءَ التردّدَ واللعثمة، وتُحرّره من سطوة نظرات المستمع.

خلف الورق تتوارى مشاعرُ وتختبئ دموعٌ وتحتبس صرخاتٌ ربّما كان لها أن تُشَتِّت الأسماع، وفوق ذلك تُرتَّب الأحداث، وتكتسي الحكايةُ بالهدوء.

جرّبتُ كلَّ شيء، مضيتُ والوطن جنينٌ ينبض في أحشائي، لم أعرف كيف تُرسَم حدود الأوطان بالألغام ولافتاتِ التحذير والأسلاكِ الشائكة، ولأيّ غاية تُسال من أجلها شلّالاتُ الدم بغير حساب. وطني الذي أذكره اختطفه خليل، ووطني الذي أصبو إلى معانقته ما يزال جنينًا يتنقل بين حجرات الذاكرة، يبحث عن مخرج، عن وسيلةٍ للتلامس، عن مقصّاتٍ تمزّق الأسلاكَ الشائكة، وعن بندقيّةٍ تطردُ الظلال.

حاولت أن أواصل، أن أترك كلَّ شيءٍ خلفي، أن أحرق صحف الأمس، أن أُقِرّ بتمام جنوني وسيلةً للنسيان. جاهدت، فخانتني كلّ الموجودات، إلّا ذاكرتي ووجوه الشخوص التي ما انفكّت تطالبني بالقصّ، وأنا مقصوصُ اللسان! أتساءل وأنا أخطّ هذه الصفحات الأخيرة؛ أأفلحتُ في تقمّصهم وتلاوة حكايتهم، أم فشلتُ في ترضيتهم؟ هل بُحتُ بما أرادوه، أم تسرّب غضبي ومأساتي إلى كتابتي قصًّا ونهجًا فأغفلتُ حدثًا أو أسقطت واقعة؟ ألحّت عليَّ طيوفهم الحوّامة حول وسادتي طويلًا كي أطلق -بين الأوراق- لسانَ قلبي، أن أنشبَ أظافري وأسناني في ذيول الحكايات قبل أن تُطوى إلى الأبد، وها قد حاولت...

أنا إذَن محرّرُ ألسنة الصامتين، نزلاء العتمة والأسر الدائمين، أولئك الذين لم يتسوّلوا من الله سوى حفنةٍ من الحقائق تُهال على رؤوسهم كالسيل الذي أغرقَ ديار الجدود. أنا مدوّنُ الكَلِم غير المنطوق، القادمُ من بلاد الصوت المسروق، الهاربُ من أرض الحلم الواحد الذي يوزّع على النيام قسرًا. أنا المحكوم بالخرس أحكي، فهل نجَوْتُم من أقدار الصمم حتّى تسمعوا؟

ورقة (1)

بدأ الأمر بالعثور على قرصٍ بلاستيكيٍّ قديم!

بهذه البساطة، قطعةٌ بلاستيكيّةٌ دائريّةٌ جامدةٌ تنقِّل المستمع بين موجات الراديو. كان جُرمُ أمّي الأشنعُ وذنبُها الأعظمُ هو العثور

على ذلك القرص الشبيه بالساقية ذات يومٍ بعيد. وجَدَتْه واستعمَلَته، فكانت الطامّة الكبرى أن عَرفتْ أمي، اطّلعتْ على المحجوب فكَشَفَت المستور، واجهت وثارت، فكان مصيرها أن غاصتْ في سراديب الضياع.

وضاعَ القرص مرة أخرى، فظلّتْ مخيّلتي تدور بين المحطّات المكتومة، والجهاز الأخرس الذي فقَدَ قدرتَه على النطق مثلي.

امتزجتْ خيالاتُ الراديو التي لم أتوقّف عن تصوّرها مع الصوت الدافئ المنساب من جهاز الجرامافون؛ عبد الحليم حافظ، بنبراتٍ له تعانقُ وحدتي وتمسّ وجعي، وتنهّداتٍ تستدعي أنفاسَ أمّي في لحظات ما قبل النعاس، وصوتها الباسم يتناغى بحكاية، وينساب برواية. وقتئذٍ كنتُ أكرّرُ من خلفها بضعةَ مقاطع من الحكي، وأعيدُ الاستفهامات ذاتها فرحًا بالقدرة على التداخل مع حكاياتها.

ومن زمرة حكاياتها، ما زلت أتذكّر واحدةً آسِرة عن طفلٍ ولد في جزيرةٍ بعيدةٍ عشيّةَ إعصارٍ أفنى الزرعَ واقتلع البيوت، فنعته الناس بأنّه جلّابُ شؤمٍ ونذيرُ شرّ، وكيف أنّ الأقدار أبت إلّا أن تحمل هذا الطفل على مهادٍ من المجد، فغدَا في صباه فارسًا ينالُ من المهابة والتقدير ما لم ينله أحدٌ من آل الجزيرة، حتّى نصّبوه حاكمًا على الأرض والمحيط.

كنت أعرف أنّي مولودٌ في الخامس من يونيو. توافقت ذكرى ميلادي مع يوم الهزيمة التي تصوّرها الناس بعد أيّامٍ نصرًا مُبينًا.

لكنّ إصرارَ أمّي على الترتيب للاحتفال بذكرى مولدي قبل الحرب بساعاتٍ جلبَ لها المتاعب. إذ اتّفقت عقولُ الناس المنغلقة على موروثاتها أنّ أمّي، البحراويّة الغريبة عن النجع، قد أتت بدعةً غير مسبوقةٍ في احتفالها بعيد ميلاد وحيدها الخامس، فراحت تذبح الطيرَ وتنحر الغنم وتجهّز الولائم لاحتفالٍ يُقَام عشيّةَ الخامس من يونيو. صار ذلك مدعاة نفورٍ وشماتةٍ من بعض الجارات حين أُلغيت الولائم بفعل الحرب، وبأمرٍ مباشرٍ من أبي خليل الخوجة لانشغاله بمتابعة مُجرياتها ونتائجها. وعلى الرغم من تبدّل الحال بين ليلةٍ ونهار، وتقلّب الوجوه ما بين انكسار وافتخار، ألصق الناس بي صفةَ الشؤم. وعلى صخب احتفالهم بالنصر الذي أعلنَه الخوجة عقب أيّام، نسوا وتناسوا أن ينزعوا عنّي ذلك الوصم، ونسي الخوجة أن يقيم الولائم، فبقيتُ طيلة سنوات طفولتي مُلاحَقًا بنظراتٍ تَعُدُّني طفلًا منحُوسًا.

اختلقتْ أمّي حكاية الفارس لتنفي عنّي هذه الصفة، ولتبذرَ في عقلي الأملَ بأنّ الغد يحمل لي مصيرًا مغايرًا ومكانةً غير مسبوقة. أستعيد الآن تفاصيل ما جرى، فأدركُ أنّ ذكرى مريرةً ظلّت مَجدُولةً بتلك الأيّام، أسترجعُها كما أتصفّح أسماء المغادرين إلى الجبهة في كشوفات الخوجة التي يراجعها مع زوّاره الغامضين. بدت الحرب كبئرٍ تفجّرت تحت أقدام الأهالي، وراحت تبتلع أبناءهم واحدًا تلو آخر. أفلا تكون الحرب هي ما جلبَ الشؤم إلى الديار، وما أنا إلّا كبش فداءٍ بريء؟

ورقة (2)

خفتتْ ريحُ الزمن، تشابهت دوراتُه وتكاثرت، حتّى انتهى بي الأمر مرّةً أخرى إلى العثور على قرص الراديو. وجدتُه داخل صندوق الساعة الخشبيّ بينما كنت أحرّك البندول الساكن. تداعى الأمل في عودة أمّي بمرور الوقت ونموّ الوعي. كنتُ آمل أن أبلغ طورَ الصبا، لا لشيءٍ سوى القدرة على الهرب من دار الخوجة والبحث عنها لو صدقت روايته. تعثّرت يدي بالقرص المخفيّ. أمسكتُ به، فتأرجح الكرسيّ الذي اعتليتُه، وسقطتُ قبل أن أميّز ما حوتْه يميني. سقط القرص، وتدحرج فوق الحصيرة، تتبّعتُه بعينيَّ فكان يدور ببطء حتّى استقرّ على مقربةٍ منّي. شعرتُ برجفةٍ تزلزلني، فقبضت عليه بيديّ، هرعتُ إلى غرفتي، وقرّرتُ أن أستخدمه بعدمَا ينقضي صخبُ البيع والشراء، وتتوقّف زياراتُ الأهالي، ويطوي ظلامُ غرفة الخوجة جسدَه النائم.

خفق قلبي حين وقفتُ متسمّرًا أمام الراديو. البطّاريات لم تكن معطوبةً في أواخر الأيّام. أسكنتُ القرصَ في موضعه، وشرعتُ أديره بكفٍّ مرتعشة، طربتُ لسماع الأزيز الذي يفصل بين بثّ المحطّات الإذاعيّة. تداخلت أصواتٌ عربيّةٌ وأخرى أجنبيّة. وبعد ثوانٍ من الدوران بين رحى الأصوات، راحت موسيقى مألوفةٌ تنساب من الراديو. كانت أغنيَة عبد الحليم «في يوم في شهر في سنة». شعرتُ بسعادةٍ تلفّني، فهذا يعني أنّي قادرٌ على التنقّل حُرًّا بين موجات الإذاعة، لذلك غمرتْني سعادةٌ فاضت على محيّاي.

جلستُ القرفصاء إلى جوار تلك الآلة السحريّة حريصًا على ألّا يعلو الصوت بما يوقظ خليل بعدما اعتاد النوم كالثعالب منذ اختفاء أمّي. كان عبد الحليم ينوح حزنًا، واللحن الشجيّ يغلّف المشهد بلوعة الفقد والفراق. تذكّرتُ أمّي، وتصوّرتُ عبد الحليم يتحدّث عن مرارة فقدي لها، فاستحالت غبطتي غمًّا. بكيتُ حتّى خشيتُ أن يبلغ النشيجُ مسمَع الراقد في الجوار، لكنّه أنهك نفسه كثيرًا في تلك اللّيلة فلم يستيقظ، إذ أمضى القسم الأعظم من سواد اللّيل يعبّئ ويُعَنْونُ مظاريف رسائل يمليها عليَّ فأكتبها، لتبدوَ كأنّها مُرسلةٌ من المحاربين على الجبهة. دأبت على مشاركته تزييفَ وجدان الناس، من دون أن أفهم، ومن دون أن أملك من وسائل الاعتراض سوى تنهّداتٍ تشرخ جدارَ صمتي.

انتهت الأغنيَة، فجاء صوت المذيع الحزين مقبضًا مترعًا بالفقد هو أيضًا. راح يتحدّث عن عذوبة الأغنيّة، ودفء صوت عبد الحليم، وعبقريّة اللحن والأداء وحساسيّة الإلقاء، قبل أن يصفه بما يبّس أوصالي، إذ قال في ختام كلماته:

-استمعنا الآن إلى أغنيَة (في يوم في شهر في سنة) للعندليب الراحل عبد الحليم حافظ، الذي رحل عن دنيانا اليوم في لندن، الأغنيَة من كلمات الشاعر مرسي جميل عزيز ومن ألحان الموسيقار كمال الطويل...

اخترقتْ حلقي صرخةٌ مكتومةٌ وثقبتْ صدري قشعريرة. لقد أغمد القدر سيفًا جديدًا في خاصرتي، وانسكب البرد في أضلعي

وتنامى ككرةٍ من ثلج. ثمّ شعرتُ بحِممٍ تتأجج في جوفي، فاجتمعتْ في جسدي برودةُ الفقد ونارُ اللوعة، وغشتني غمامةُ وحدةٍ راحت تتعاظم. كان الحدث جللًا، والمصاب عظيمَ الشأن، فقد غادرَ اليوم جليسي وونيسي ورفيق سهري ومَعين أحلامي، غاصَ في سراديب الغائبين، ليغنّي حيث تسمعه أمّي.

وضعتُ يديّ على رأسي، وصرتُ أتمايلُ كالعجائز إذ ينخرطن في وداع حبيبٍ ويُهِلْن على رؤوسهنّ التراب، أنثني وأرتعش. رحتُ أسترجع كلمات الرجل الجالس داخلَ صندوق الراديو: العندليب، الراحل، رحل عن دنيانا، لندن! تفجّر الدمعُ، وتبخّر حرصي على عدم إحداث جلبة، لكنّ مفجوعًا بلا صوتٍ مثلي لم يمتلك القدرةَ على صنع الصخب.

توالت أغاني عبد الحليم، الراحل، في لندن، مصحوبةً بطوفانٍ من الصور ما انفكّ يطوف حولَ رأسي المطرق. جعلتُ الصور تتماسّ مع الصوت، فترسمُ مشاهد تصل الكلمات بزمان سماعها، وأحداثٍ سرَت بضفاف الموسيقى، وجهاز الجرامافون وأسطواناته السوداء، جدران العالم الذي عرفته راحت تتداعى، والسماء باتت واطئة مثخنةً بالحزَن، ماذا بقيَ لي؟ تساءلت؛ أمٌّ حبيسةُ الغياب، وصوتٌ مسروق، وحصارٌ وألغامٌ وسياجُ نار، وحكاياتٌ عن تماثيل وقتلى وحجارة تسقط من السماء، وصلاةٌ مبتدعة، وحياةٌ لم يعد فيها عبد الحليم حافظ، أنيس الصمت ورفيق الحلم المغزول من السكات، وشريك الصور المشبّكة في نياط القلب، ماذا تبقّى؟

أنشأتُ أنتحبُ وفي الحلق سؤالٌ مكتوم. بكيتُ حتّى جفّف الكمَد عينيّ، وكسا العظامَ وهنٌ شلّ حركتي. ماذا بقيَ لي من مخزون الحكايات؟ استعادني السؤال مرّات، حتّى عزمتُ على هدم أعمدة كلّ الحكايات الأخرى، وإماطة اللثام عن كلّ الأكاذيب، وأوّلها حكاية الخوجة التي أرخاها كخيمةٍ فوق رؤوس الناس في نجع المناسي.

عندما فقدتُ عبد الحليم، تذكّرتُ فقدي لأمّي، وتأكّدتُ أنها لن تعود. تقوّض في داخلي الأملُ في مواصلة الحياة التي عرفتها، أردتُ إعادةَ تشكيل العالم بما يناسبني بعدمَا فقدتُ أسباب الاستمرار. كنت أعرف أنّ معول الحقيقة هدَّام، وأنّه كفيلٌ بنَسْف قصص الخوجة وفضحِ كلّ المتواطئين بالصمت مع القهر.

عدتُ إلى غرفتي عقبَ استيفاء مراسم تشييعي للعندليب. ثمّ أخفيتُ قرص الراديو السحريّ حيث وجدته. وبهدوءٍ، تربّعت فوق الفراش المعدنيّ حريصًا على ألّا تصدر عنه ضوضاؤه المعتادة. أرخيت الناموسيّة البيضاء، ولفّتني نوبة تذكّر وترتيب للأمور: كيف بدأ الأمر كلّه؟

ورقة (3)

أحاول ترتيبَ ما حوته حقائب الذاكرة في أرفف الزمن الراهن، أنفضُ الغبار عن أحداثٍ لم ترضخ يومًا للنسيان. كان لا بدّ من عجلةِ حربٍ تدور فلا تستوقفها الصرخاتُ ولا يعرقل مساراتها الزمن.

من الحتميّ أن توجد آلة دمارٍ تطحن الكلمات بمرورها، لا يهمّ مَن يكون العدوّ، ولا ينبغي أن يأبه الناس بتعداد الضحايا وحساب الخسائر. كلّ ما في الأمر أنّه لا بدّ من استمرار الحرب، فبالحرب وحدَها ينخفض سقفُ التمنّي، وبالحرب يغدو المتاح مأمولًا تتنازعه الأمنيَات.

لا شيء غير الحرب يقدر على أن يجعل الغياب أمرًا عاديًّا طالما ظلّتْ طبولُها تدقّ. ذلك سحر الحرب الأبديّ، ذريعةُ كلّ طاغية، آلتُه التي تكمّم الأفواهَ وتمسخ الأحلام من دون أن يُطلق رصاصاته أو يرفع عصاه. يكفي ذكر الحرب لترضخ الألسنة تحت ثقل العبارات الحماسيّة الرنّانة، فلا يليق أن تطالب الأمّ الثكلى بجثمان ولدها إذا انصبّ اهتمام جريدة «صوت الحرب» على مطالبتها بالصبر الجميل.

والصبر الجميل لم يكن سوى وهمٍ تمرّره كلماتُ الجريدة، ويتغنّى به الشيخ أيّوب من فوق منبره، ويطالب به خليل الخوجة جموعَ المصطفّين في طوابير تصبغ أيّامهم برتابة التكرار.

دقّت طبولُ الحرب، فتوقّفت الحياة في نجع المناسي، وتجمّدت الأحلامُ، اخترق التمثال الأرض المخضّبة بالوعود الآفلة، فانتصب بين الوقوف يذكّرهم بسطوته. استغرقت الجباه المحنيّة في طوافٍ محمومٍ ابتلَع من حيواتهم عشر سنوات، وعشرات الصبية اليافعين، فما استجابت لدعواتهم سماء العروبة، وما انفتحت لهم أبوابُ كعبة الخوجة.

كنّا نتابع أسرابَ الحمام في حسرةٍ كلّما حلّقت فوق الحصار، نطربُ لعواء الذئاب إذ تبشّر أن ثمّة حياة خلف سياج النار، نتوسّل صافرة القطار أن تدوّي، نناجي الصقورَ والنسور السابحة في فضاء النجع ونسألها الخبر اليقين، تدور في رؤوسنا تساؤلاتٌ حبلى بغضبٍ مكتوم؛ لماذا اختصّنا الله بسماءٍ تمطر الحجارة وأرضٍ تنبت منها النار، ثمّ حجب عن أعيننا دروبَ الحقيقة؟

لم نكن نتوسّم حياةً سعيدة، ولم نبتغِ رخاءً ولا رغدًا في العيش، لم نتوهّم في أنفسنا القدرة على تغيير المسارات، ولم ننشد تبديل المصائر، فلا طاقة كانت لدينا ولا همّة، ولا أمل، كنّا نريد أن نعرف الحقيقة وحسْب.

وأضاءت السماءُ فحلّت في العقول هواجس لم يعرف الناس دوافعَها. تعدّدت الأقاويلُ والتأويلاتُ، فلم يرَ أحدٌ الحقيقة التي يدور الناس في مداراتها ولا يجرؤون على لمسها. أيقنت أنّ الناس ضجّوا من الضلال، ربّما لم يعرفوا كيف يعبّرون عمّا يؤرّقهم وقد اعتنقوا الصمت مذهبًا منذ عقود، فلم يقدروا على صياغة صرخةٍ واحدةٍ يطالبون فيها بالحقيقة طيلة سنوات، حتّى استحالت محاولاتهم توتّرًا عظيمًا، فتبادلوا العداوة. والواقع أنّهم كانوا توّاقين إلى تنشّق الهواء خارجَ النجع المحاصر. دأبوا على كَتْم الشكوى، وكَبْت البوح، حتّى باتُوا غير قادرين على الكلام.

سَقَطَ الحجرُ رسالةً سماويّة، فتسلّل الوباءُ إلى الصدور، وظهر النحّال المسكين مدفوعًا بالشوق إلى لُقْيَا ولده الغائب، راح العجوز

يبشّر الناسَ بخلاصٍ مُتاح، وعندئذٍ فحسْب، تفجّرت الحلوق بالصراخ وحاصرت قلعةَ الطاغية.

وبعدما قرأتُ تاريخَ الإنسانيّة عقبَ فراري من النجع، عرفتُ أنّ صحف التاريخ، جميعها، لم تعرف طاغيةً داهيةً كخليل الخوجة.

ورقة (4)

أراني أحمل السطلَ المعبّأ بالطلاء الأسود، وعصًا لففتُ طرفَها بالقماش، أردّد أغاني عبد الحليم حافظ إبّانَ تسلّلي بين عيدان القصب حذوَ ترعة طالما اتّسعت لبوح الناس، فما أفشتْ سرًّا، وما ضاقت بتكرار الكلم. أتسلّل وأنا ألفُّ شال أمّي الأزرق على وجهي، أقفز بين الحجارة والزرع والضفادع، والترعة نحيلة تطفو على صفحتها أعشابٌ وطحالب خضراء وورودٌ سوداء.

قلَّ منسوب الترعة عقب انتشال جثمان النسّاج، بدت حزينةً بعدما دنّسها الموت، وقد انشقّت لتجلب الحياة إلى النجع، إلّا أنّها عادت يومَ تسلّلي إلى عادتها في ابتلاع الأسرار، فما عكستْ ظلّي على صفحتها، ولا كشفت مروري حذوها.

غُرستْ بذرةُ الخوف في الصدور منذ زمنٍ بعيد، ظلّ القلقُ المتجسّد يغذّي جذورَها، ومخزون الحكايات الممنوعة يرويها فكبرتْ وترعرعت، حتّى كادت تقتلني خنقًا. كنتُ أعرف أن لا فرصة لي في الخلاص ما لم يجتثّها أملٌ عظيمٌ بالتحرّر، لذا كان من الحتميّ أن يبتدئ العبورُ بفضح المستور.

هكذا وُلدَ ردُّ فعلي عقب إضافة عبد الحليم حافظ إلى لائحة المفقودين. لسببٍ مّا قرّرتُ أن أنبش الماضي وأحرّرَ حكاياته، لعلّ السماء المكتظّة بتوسّلات الداعين تنقشع غيومُها فتكشف عن صفاءٍ يكسو قبّتها، بعدما تصبّ مطرَها أدعيةً ودموعًا، وشجونًا.

فُطرتُ منذ سنوات على استقبال المطر بالشجن، زخّاته الرتيبة تستدعي أرقَّ مشاهد الطفولة، وأعذب الضحكات وأصفى الأوقات التي زيّنتْها ضحكات أمّي. يكسو الندى أوراقَ الشجر ويبلّل سطحَ الفرن والمصطبة، فيتجسد طيف أمّي مع أوّل خيطٍ من نورٍ يلامس طرف ثوبها، رأيتها في حلمي تخرج بصعوبةٍ من سرداب مخفيّ تحت التمثال الجاثم على مدخله، كأنّ سجّانها أراد أن يمنع عن جثمانها الضوء الدافئ ونسيمَ الفجر. وتصورتها مرارًا تقفُ أمام الفرن فور عودتها، تشير إليَّ أن أُقبل تجاهها، ثمّ تمنحني ابتسامةً تبتلع كلَّ الحزن الموجود في النجع.

تبتهج الوجوه كلّها بضفاف بسمة أمّي، في مقلتيها يعود الجنود من الجبهة، يذوب التمثال وينصهر أسفلَ قدميها، تنفجر الألغام وتصدر دويًّا خافتًا، تمتدُّ المعابر حاملةً الناس إلى ما وراء الكثبان، يرقص العمّ زكريا النسّاج ابتهاجًا بعودة بنيّه، وينهض الأطفال المعيبون من القبور ويهرعون صوبَ دورهم، وشواهي ترقص في الأزقّة فتنمحي الكتابات عن الجدران، وتعود الألوان إلى رسومات الكعبة على جدران العائدين من الحجّ: الحياة برمّتها يُعاد تشكيلها في عيني أمّي؛ يوم تعود.

تُمسك بيدي وتمضي بي بين الزروع، تتوغّل في الغيطان، ويدُها الباردة تقبض على كفّ الصغير الذي كنته، أحاول تدفئة كفّها بكلتا يديّ ولا أفلح، فتمنحني نظرةً تبثّ الدفء في أوصالي.

تجلسُ على حافّة القنان، يدور الشادوف[1] فور أن يلامسه ظلّها، الدرّاسة[2] تشرع في فصل الغلّة عن القشور، والطاحون يدور على مقربةٍ من مجلسها، الرحى في البيوت تدور، والصوامع تمتلئ بالغلال. أقضي النهارَ برفقتها، وصوت عبد الحليم حافظ يمنح لقياها بهجة.

تفترُ حرارة الشمس رويدًا، تشير إليّ أمّي أنّ أوان الرواح قد آن، أبكي فتتّسع بسمتها، وتضيء بعينيها طريقَ العودة. شيئًا فشيئًا أستشعر ملمس الرمل في كفّي، تذوبُ كفّها كحفنةٍ من تراب، وطيفُها يُضحي أكثر شفافيّة حتّى أكاد لا أميّزه. أقبض بيديّ على ذرّات التراب المتسرّبة من بين أصابعي، أضغطُ ما تبقّى من كفّها، أحاول أن أحتضنها، لكنّ كلَّ شيءٍ يذوب، حتّى تتهاوى أمام ناظريّ كدفقة من غبار.

أفترشُ الأرض التي امتصّتها منذ لحظات، أحاول إزاحة التمثال لعله يخفي سردابًا كذاك الذي رأيته في الحلم، لكنّي كنت طفلًا، والتمثالُ ضخم، مُقبّض كمسخٍ دميمٍ صُنع لترويع

---

(1) آلة بدائيّة لرفع المياه من المناطق المنخفضة إلى المناطق المرتفعة بغرض الريّ، ابتُكرت واستُخدمت في عهد المصريّين القدماء.

(2) الدرّاسة: آلة بدائيّة تستخدم في عمليّة فصل الجزء الصالح للأكل من حبوب النبات عن قشورها.

الأطفال. أتساءل بينما أراقبه؛ لماذا لا يتحرّك الآن في واحدةٍ من جولاته التي يحكي عنها الناس؟ أفكّر؛ ربّما عليَّ أن أنتظر حتّى يتحرّك، فأتمكّن من تحريك قاعدته، ثمّ أحفر الأرض بحثًا عن بقايا الحلم القديم.

كم سنة مضت على غياب أمّي؟ أهربت كما يُشاع؟ وما الذي يدفع أمًّا مثلها على هجراني؟ أتُراها مأسورة في عدمٍ أحاطها به خليل عقب ثورتها الأولى والأخيرة؟

أتذكّر مشاجرتها مع خليل، وتشابكهما باليد واللسان. صراخه الذي وأد صرخاتها، أكانت -وقتذاك- تستغيث؟ أم كانت بي تستجير؟ لم أعرف ما فعلتْ، ولم أعِ ما استوجب الشجار العظيم. جمعتهُما في البدء مُشادّةٌ بدت مألوفةً، وما بلغني من شذرات حديثهما دارَ عن اكتشافها أنّ الراديو غير معطوب، وأنّ قرص ساقيته أُخفي عن قصدٍ بمعرفة خليل، وأنّ المذيع تحدّث عن موت جمال عبد الناصر منذ أيّام. لماذا يتعارك رجلٌ مع زوجتَه بمثل هذه الضراوة لأنّ عبد الناصر قد مات؟!

حين انتهت المعركة بينهما، ألفيته واجمًا بُعد خطواتٍ من الدار، يتكئ على ساق شجرة الجمّيز التي قلعها لاحقًا ليثبّت تمثالَ الزعيم في محلّها، شاهدني واقفًا عند المصطبة بعدما بلّل الخوفُ سروالي، فهرع نحوي وضمّني بقوّة إلى صدره. أضمّني خليل قبل ذلك اليوم، أو بعده؟ بكيتُ، فبكى وارتجف، قال إنّه لم يقصد إيذاءها، وجزم أنّ ما جرى لا يُصنّف إلا كحادث غير مقصود، وأنّه حتمًا

سيجد ما يعوّضني عمّا جرى، ثم قطع أنه فور انبلاج الصبح؛ سيعيد الأمور إلى نصابها.

أذكر أنّي بكيتُ حتّى غلبني النعاس. دهمتني كوابيس رأيتُ فيها خليل، الذي اعتبرتُه أبي حتّى تلك اللحظة، يفتح كوّة في الأرض، ويحبسني فيها كما تصوّرته فعل مع أمّي. فحزنتُ لتصوّر ما تشعر به في محبسها، إذ كيف تسنّى لها أن تتبخر من دون توديعي؟ ولماذا رأيت مِعولًا قرب شجرة الجميز؟

فتحتُ عينيَّ على ألمٍ عظيم، فرأيتُ الخوجة ينكفئ مذعورًا على فراشي، وشعرتُ بسائلٍ ساخنٍ لزجٍ يملأ فمي، ووجعٍ لم أقدر على تحديد مصدره، لكنّي رأيت فوق وسادتي مضغةً صغيرةً من لحمٍ أحمر. حاولت التحدّث فبصقتُ دمًا داكنَ الحمرة، ثمّ غبتُ عن الوعي.

مضت أيّامٌ قبل أن يهدأ خليل ويحدّثني، أنشأ يطبّب الجرحَ في فمي فيطّهره بسائلٍ حارقٍ كلَّ نهار، ثمّ يربطه بشيء له مذاقٌ معدنيّ، يحشو الفراغَ في فمي -قدر ما استطاع- بلفائف من شاشٍ وقطنٍ سرعان ما كنت ألفظها. تحدّث الخوجة فقال إنّ أمّي بادرت بالتطاول، فجعلت تسبّه وتلعنه وتضربه بقبضتيها، قبل أن تترك وراءها عارًا يثق أنه لن يُمحى بسهولة. بكيتُ في صمت، واحتمى هو من نظراتي التي تصرخ «لِمَاذا لم تُشر إلى الحادث والفعل غير المقصود الذي أتيت به؟»، لكنه بادرَ بإنكار ما لم ألفظه، إذ ردّ كلَّ ما قد أتذكره إلى كابوسٍ أعقب هروب أمّي، وكانت التشنجّات

التي عضضتُ خلالها لساني فقطعتُه تحت وطأة الذعر، دليله على اضطرابي العصبي.

جعلني الخوجة أشك في الأمر برمته، كانت تلك قدرته الإعجازية، المراوغة والتزييف والإقناع بغير المعقول. وعلاوة على ذلك، اعتاد أن يذكرني كلما لاح في عينيّ شكٌّ؛ أنّي لولاه لأماتَني النزيف. وبالتبعيّة، تبخّر كلامه عن تعويضي عمّا جرى، وإعادة الأمور إلى نصابها.

سمعتُه يتحدّث عمّا وقعَ لي مع أشخاصٍ وفَدُوا إلى دارنا، أسمعه وأحاول فصل الأحداث المضفورة في عقلي. هل آذى خليل أمّي؟ هل حبسها في سرداب تحت الأرض؟ أم كان الأمرُ برمّته حلمًا؟ هل هربت أمي قبل أن تهبني عناقًا أخيرًا؟ ولماذا خلّفتني وراءها؟ أحقًا غادرت، أو غُيّبت؟ ألهذا لا أسمعُ صوتها ولا أشمّ رائحةَ الخبيز الصابح، ولا أقدر على الكلام؟

يوم قطعت لساني كبرتُ عدة أعوامًا دفعةً واحدة، كانت الخواطر قاتمةً لا تتّفق مع طفلٍ حريٍّ به أن يرتع في مروج الخيال. حتّى الروائح التي رحتُ أستدعيها منذ انكببتُ على كتابة هذه الأوراق، بخلاف رائحة أمّي وعبق الخبز، لا أجد منها في ذاكرتي سوى روائح التراب والتمثال والدم، وعرق الوافدين لمواساة رجلٍ هربت امرأتُه من داره وفَقَد وحيدُه صوته.

رأيت خليل يُكثر من ريّ الأرض حول التمثال، ويبذر حبيباتٍ صفراء سرعان ما استحالت شجرًا يسوّر قاعدته المثبتة محلّ شجرة

الجمّيز المغدورة. رحتُ أتصور مدخل السرداب لو صح ظني بوجوده، وأتساءل؛ أيطول غيابها -كالجنود- حتّى يلامس الأبديّة؟

قرّرت نبشَ الأرض وقتَما أستردّ عافيتي، نزفتُ كثيرًا كما استنتجتُ لاحقًا، وهَنَ جسدي فغدَا نحيفًا كعود قصب. تقوقعت في فراشي، وصوتُ عبد الحليم يؤنس وحشتي، الجرامافون يبثّ الأغاني الوطنيّة بحماسٍ مطّرد، الأغاني نفسُها تُعاد، لكنّ عبد الحليم جعل يرفع صوته في كلّ مرّةٍ عن سابقتها.

جثمتْ خيمةٌ من الكآبة على بيوت النجع فبدت السماء بلون الرصاص، وفي صدرها لمعتْ شمسٌ واهنة. وقفتُ أمام نافذة الطابق العلويّ أطالعُ غيمةً رماديّةً علقت في قمم الشجر، وأعدُّ طيورًا تغادر أعشاشها نحوَ أفقٍ مفتوحٍ لا يعرف اللغم. الطفل في صدري يؤمن أنّ أمّه عائدة، فهي إما غاضبةٌ، أو محبوسةٌ في سردابٍ تحت الأرض. أهمس باسمها، أناديها، أتحرّى صوتَها، أسمعها تناديني، أسمع اسمي آتيًا من الفضاء وراء الألغام، أفتّش السكون وأحبس أنفاسي، فتبلغ دقّاتُ قلبها مسمعي. توقّف خليل عن محادثتي بعدما عرف أنّه لن يقدر على تزييف ذاكرتي كُليًّا. اختفى قرص المذياع من موضعه في جوف الساعة، وبقي مؤشّره جامدًا يبثّ إذاعة القرآن الكريم، لا صوتَ يعلو فوق صوت التلاوة. ترك لي جهاز الجرامافون وأسطواناته، فرُحتُ أمرّر الزمن برفقته، يكاد عبد الحليم يبكي لوعة، يناجي حبيبةً فارقته، فأبكي أنا حبيبةً لا أعرف مصيرها، وتخونني ذاكرتي كلما أوشكت أن أقبض على الحقيقة.

أفكّر، لو أنّ الزمان يعود! لو يفتح لي الماضي كوّةً أعبر منها إلى أيّامٍ سبقت فراقها؟ كنتُ سأسرق منها شيئًا أخبّئه، رائحتها، بسمتها الدائمة، صدرها الدافئ، عبق أنفاسها، نظراتها الفوّاحة بمحبّةٍ غير مشروطة، جلبابها المغموس برائحة الخبز. سلبني خليل ذلك كلَّه ذات غضب، سرق أسبابَ البهجة من الكون، تمامًا كما سُلبت الحقَّ في التفوّه بالكلمات. فلماذا نشأ هذا كلّه؟ لأنّ الراديو استعاد قرصه فنال حريّته بالتنقّل بين الموجات؟ أم لأنّ عبد الناصر قد مات؟ أرأى الخوجة في رحيله خسارةً فادحةً حتمًا ستحيق به وتفتّت مملكتَه المتنامية؟

كبرتُ، وما أفلح الزمن في مداواة فجيعتي، فظلَّ الجرح في فمي نازفًا لا يندمل، أبصقُ دمًا كلَّ صباح، فأتذوّق طعمَ الدم قبل الخبز.

بعد سنوات، أصبحت قادرًا على استيعاب أنّ صمتي أسعد خليل الخوجة، إذ منعني الصمت عن البوح لأحدٍ بما جرى، وحاصرني جهل الناس فأقعدني عن الكتابة. منذ ذلك الحين، قرّرتُ أنّه لم يعد لي أبًا، وعلى الرغم من ذلك، بقيت غير قادرٍ على إذاعة السرّ.

عاش خليل بضفاف كذبةٍ شُيِّدتْ على كتمان النبإ، جعل يستمدّ قوّتَه من وجود الزعيم، وتمثاله الذي رأيت النحّال ينقضُّ عليه بفأسه ذات عشيّة فشعرتُ بارتياحٍ عظيم، لم تكن لي استفادةٌ مباشرةٌ من تحطيم التمثال، أو شَطْرِ جسده إلى نصفَين كما جرى. على العكس، فقد استقرت ذراعُه وكتفُه ورأسه المنفوخ بالعظمة في صدر الدار كأنها تراقبني، في حين بقي جسدُه مرتعًا للطيور المنهكة،

محطّةً بالية تتغوّط عليها الحمائم والغربان، وخرافةً تستلب عقولًا أنهكها الصمت وصهر العجز عقلانيّتها.

أمّا الأغرب من ذلك كلّه، فهو اكتشافي حقيقةَ أنّ التمثال لا يخصّ الزعيم!

أضحى وجهُ التمثال حين وُضِعَ داخل الدار أكثر وضوحًا، لم تكن له ملامح عبد الناصر، ولا كان له طول الزعيم الخالد، على العكس، مجرّد تمثالٍ استخدمه الخوجة كخيال مآتة[1] يُبعد عنه الأسئلة. فكّرتُ فيما بعد أنّه تمثال لمحمّد نجيب أو لعبد المنعم رياض، إذ أنّ كليهما أقصر من عبد الناصر، استبعدتُ عبد المنعم رياض لاحقًا حين عرفت تاريخَ استشهاده على الجبهة، فرجّحتُ أنّه لمحمّد نجيب، لِقِصر قامته، ولسهولة الحصول على تمثالٍ لم يعد أحدٌ في حاجةٍ إليه. لم أستقرّ على رأيٍ في النهاية، ربّما هو مجرّد تمثالٍ صُنع بالأساس لتكريم الجنديّ المجهول، وربّما نُحت لزعيمٍ آخر مات منذ عقود. وحسب ما قرأتُ في كتب التاريخ: ما أكثر ما مرّ علينا من زعماء؛ نحن شعوبٌ ينقصها كلّ شيءٍ إلّا سِيَر الزعماء الأسطوريّة! المهمّ أنّ التمثال لم يكن يومًا لجمال عبد الناصر، فلماذا كانت له هذه السطوة؟ أيعقل أن يظلّ الغافلون في خصومةٍ مع رجلٍ ميّت، لمجرّد أن عمد كهنته إلى ترسيخ فكرة خلوده؟ ألم

(1) خيال المآتة: خيال المآتة أو الفزَّاعَة: دمية تكون عادة على شكل إنسان وتصنع من القش ثم يتم كسوه بالثياب، ويستخدم في العادة لإخافة الطيور وإبعادها عن المحاصيل الزراعية والثمار.

يلاحظ الخوجة يومًا أنّ الناس لم يعارضوا الحربَ بقدر ما أرادوا الحقيقة؟

ورقة (5)

أكتبُ اليومَ لأنّي مطالبٌ بالكشف عن أوجاعي وتفسير علّتي بعدما خُتم فمي بالخرس. اعتدتُ أن أستبدل باللسان القلم. لكلّ نبرةٍ لونٌ يعبّر عنها، لذلك فأنا أخطّ هذه العبارات الآن باللون الأسود، لون الحزن والأسى، لون الزمن الذي تركتْ أحداثُه ندباتٍ في جسدي، وما أفلحتْ أيّامُه المتعاقبة في مَحْو أثرها.

رويتُ الحكاية بكلماتٍ يخضّبُها العجز، استجبتُ لرغبات العيون الملحاحة، الألسن التي كبّلها الخوف فارتْ كلماتُها حممًا، فاستكملتُ بألسنة الصامتين وشهاداتهم قطعةً مبتورةً من لساني. جالستُ طيوفَهم القلقة مُستجوبًا، فأفلتت الكلمات من أفواه الجميع وتراصّت فوق السطور عقبَ كلّ جلسةٍ رافقتُ خلالها طيفَ وجهٍ ألِفْتُه واستودعني حكايته.

الظهور التي انحنت تحت وطأة القهر استقامت فوق أوراقي وعانقت ظلالَها. عاد المفقودون ووارى المكلومون جثامين ذويهم تحت حروفي، أقمتُ لكلّ شهيدٍ جنازةً مهيبةً فوق سطرٍ من سطور الحكاية. لم أزدْ حرفًا ولم أختزل صرخةً واحدة. ربّما تظلّ الحقيقةُ أثقل من حجر، وقد تكون لها رائحةٌ خانقةٌ كتلك التي تفوحُ من أوراقي الآن، لكنّ القلم ما كان ليروي غيرها. لم يكن في الأصل قلمًا، إنّما هو لسانٌ يرى ويسمع ويتكلّم، ينقل التفاصيل، ليرسم

لوحةً لما كان وما قيلَ وما ظلّ حبيس الصدور.

طبيبي العزيز، ألتمسُ لك العذر إن قطعتَ بجنوني، فليس بمقدورك أن تعي ما يعنيه أن أطوي كلَّ هذا الحزن في روحي، وأمضي به إلى عنوانٍ غير معلوم. لا يسع المرء أن يعانق هذا الحزن صباح مساء. أمّا أنا، فقد أمضيتُ السنوات التي أضاعتْني منذئذٍ مُسترجعًا الحكايةَ كلّ يوم، كأنّي أدسّ إصبعي في حلقي لأتقيّأ القصص. طاردتْني الوجوه، فمضيتُ مُضاعًا كالنجع، لا محلّ لي في خرائط البشر. ولولا أن صادفني الجواد الذي هربت به شواهي من قلب النار، لقضيتُ نحبي في صحراء لم نعرف لها حدّا.

لولا أنّ الغجريّة ساعدت صبيًّا عشقها في محاريب الصمت، لما صرتُ اليوم شابًّا، يجابه الألمَ بأملٍ فاترٍ هو أشبه بأصداء حكاياتٍ رويت منذ عصور.

ظلّ الحزن يلحّ عليَّ فيُثقِل صدري ويُقيّد أنفاسي. شعرتُ بصعوبة التعايش مع الناس، ومع نفسي. أستعيدُ الحكايةَ مع مغيب كلّ شمس، كلَّ الحكاية، أستمع لها بأصوات رواةٍ ما فتئوا يتجسّدون حولي، تهاجمني التفاصيل كسرب نحلٍ يلسعني حتّى أضيقَ بسيل الوخز فأبكي، أبلّلُ وسادتي كلَّ ليلةٍ فأغيّرها قبل شروق الشمس.

ورقة (6)

بطبيعة الحال، لم أكن أتوجّه بالدعاء إلى السماء. كنتُ في خصومة

معها منذ واصلَ الكونُ دورتَه التقليديّة عقب غياب أمّي. أشرقت الشمسُ في موعدها وغابت في أوان زوالها كأنّ شيئًا لم يحدث! الطيور وسائر الكائنات واصلت طقوس حياتها، والناس واصلوا التزاور كأنّ أمّي لم تكن موجودةً بالأساس. ثمّ باتت عيون الناس جافّة، غائرةً، مطفأةً، وظلّوا على نسيانهم لأمّي.

بقيتُ أستمعُ إلى الفلّاحين يترنّمُون بأدعيةٍ وتمنّياتٍ بطول العمر لرجلٍ استحالتْ عظامُه رميمًا. تُحلّق كلماتُهم فوق رؤوسهم خاشعةً مطالبةً بالعمر المديد والرزق الموفور لزعيمٍ لا يمرض ولا يفنى، ولا يستقيم ناموس الكون لو مات. كأنّ غياب أمّي محض خبرٍ لا يستحقّ حتّى التنويه العابر، بل إنّ الناس تمادوا في غيّهم، فراحوا يتهامسون عن فجورها وهروبها مع غريبٍ إمعانًا في ظلمها. هكذا تتحوّل البريئة فاجرة، والجاني خَيّرًا مظلومًا.

كنت أصغي إلى خليل الخوجة بينما يقصّ على زوّاره أخبارَ الأهالي، ويرتّب أنباءهم وخطاباتهم في ملفّاتٍ يحمل كلٌّ منها اسمًا ليس بينها اسمُ أمّي. حالات الوفاة شحيحة، والمتوفّون أغلبهم معمّرون جاوزوا المائة عام، كأنّ الموت ذاته ما عاد يمرّ بالنجع إلّا في دوريّات شروده. كلّ بابٍ مطويٌّ على فجيعةٍ مّا أو فضيحةٍ يظنّها صاحبُها مطمورةً تحت جدارٍ غليظٍ من السرّيّة. يُقبِل الزوّار فأتظاهر بأنّي آويت إلى فراشي، وأصدرُ من الأصوات ما يستتبّ به يقين خليل بخلودي إلى سباتٍ عميق. ثمّ أتسحّب كقطٍّ من قطط الخالة وداد، وأقف حيث لا يفصلني عن المجتمعين سوى جدارٍ

خشبيٍّ رقيق، فأكتم أنفاسي حين يتفجّر شلّال الحكايات، وأكبح شهقات الدهشة وأواري أمارات الحيرة والارتياع.

عشتُ كإسفنجةٍ تختزن الحكايات. ولم أكن أعرف متى تفور بها امتصّته من أسرار الناس، لكنّي بقيتُ حريصًا على الاختزان والحفظ، محمومًا بتسجيل التفاصيل، حتّى إنّي خصّصتُ كرّاسًا لتدوين الوقائع التي كنت أخشى أن تسقطها ذاكرتي. ضاع الكرّاس في الحريق لكنّي بقيتُ واثقًا أنّ الفوار قادمٌ لا محالة. خلال ذلك، بقيت في خصومةٍ مع السماء، لا أبوح لها بشكواي، ولا أطمئنّ لبوحٍ يجمعني بها ما دامت أمّي ملتحفةً بالغياب.

ورقة (7)

أواصل التدوين عاملًا بتوصيتك طبيبي العزيز، لكنّك لا تعرف الألمَ الذي تسبّبه لي الكتابة، ولن تتصوّر ما أراه فوقَ الأوراق العارية حتّى أغمرَها بالحبر. في الصفحة الفارغة إلى يساري، يتماوج شعر شواهي بين الأسطر، ويطفو نهدُها كغيمة حتّى يفارق الصفحة، تبتسم الخالة وداد بينما تُطعم قططها، يربّت العمّ زكريا كتفَ النحّال يواسيه، يبكي الكلّاف بهيمته، يركع الدبّاغ أمام طفلته طالبًا العفوَ والغفران، يبحر محجوب بقاربه في الرمال، يستعيد الشيخ جعفر صوتَه فيهتف في الناس أنّه لم يكن يومًا وليًّا، وفي فراغ الهامش السفليّ ترقد أمّي في سرداب مفتوح.

أقلّب أوراقي، فأحار: هل أفكّر يومًا في العودة إلى نجع المناسي؟

هل أمزّق ثوبَ الغربة -يومًا- وأركضُ إلى الماضي عاريًا، متحررًا ممّا يُثقلني؟

لم أنتمِ يومًا لذاك المكان، شاهدتُ كلّ ما أطفأه الخوفُ في عيون الناس، لساني الذي أذكرُه اعتاد النطق بلهجة أمّي البحراويّة، بينما ظلّت لهجتُهم مغايرة. حتّى حين فقدتُ من اللسان نصفه، كنت كلّما استرجعتُ محاورات الناس، تجيئني بلكنة أمّي. بقيتُ غريبًا منزوعَ الهويّة، لا أعرف عن العالم سوى عينيها، وصوت عبد الحليم، وابتسامة شواهي، وحرب البلاد المقدّسة، والتمثال الغريب الذي نُسب إلى شخصٍ ميّت.

لا أؤمن أنّ عقارب الساعة قد تدورُ بعكس ناموسها، لذلك لا أفكّر في العودة، ولا يغزوني الشوقُ إلى استرجاع الآلام. لعلَّ كلَّ ما أحنّ إليه هو أمّي، طيفها، أو مكانها، أو سرداب حُبِسَت فيه حبسًا أبديًّا. باستثناء ذلك لا أقوى على الاشتياق إلى أماكن وُشمت في ذاكرتي.

الماضي لن يعود، والجياد لا تعدو إلى الوراء، لذلك لن أرجع، على العكس، فكم أودّ لو أمحو تلك الصور من عقلي، إلى الأبد.

ورقة (8)

ظننتُ فارسًا يقودُ جوادها الأشهب، وقرص الشمس المشتعل بالغروب من خلفها يمنح مشهدَها جلالًا أسطوريًّا، تصوّرتُها

متشبّثةً بخصره القويّ بينما حوافرُ الحصان تنبش الأرضَ فتحفر مسلك الخلاص. أقبلت الغجريّة من فوق التبّة الرمليّة فور أن ميّزت وجودي، هَبطتْ مُثبّطةً من عزم جوادها وجُموح فارسها. دنتْ منّي، فوقفتُ مهزوزًا. عبرتْ يدُها نسيجَ الدخان كاشفةً عن عينَين جامحتَين خلف لثامها، ففطنتُ إلى أنّ جِوالًا من الخيش هو ما يفصل بين صدرها الرجراج وعنق الجواد.

كانت هاربةً من أتون النجع، فوق جوادٍ هي فارسته، وشعرُها الذي استعصى على الوباء ينسدل من خلفها. اعتليتُ الجواد بقفزةٍ أعانتني بها يدُها المزخرفة بنقوشٍ شتّى، فأحطتُ خصرَها بذراعيّ الراجفتَين، قالت: «**تشبّث**». فغرزتُ أصابعي في لحمها حتّى سرى الخدر في أوصالي، والجواد يعدو كمَن يعرف طريقه وغايته.

جعلت الغجريّة الملثّمة تعلو وتهبط كأنّها ربّةُ الصحراء وقد هبّت لنجدة ممالكها. تئنّ وتصرخ وتلهث، تُصدِر أصواتًا تحثُّ الجوادَ على الركض. تلتفتُ إلى الوراء بين فينةٍ وأخرى، تضغط ساعديَّ تحثّني ألّا أُفلتها. شعرتُ أنّي أتماوج فوقَ غيمةٍ مخمليّة، مثل جذع شجرةٍ يسبح مع مجرى الترعة. أصوات الغاضبين من خلفي تخفتُ باتّساع مساحة الركض، وألسنة النار ترتفع في دار الخوجة من ورائي. أتذكّر مشهدَ جموعٍ تحمل التمثالَ شطر الترعة. تنفلتُ الوساوس من جعاب الحكايات، فيتفتّت الضياءُ في السماء حتّى تنسدل خيمة اللّيل.

كأنّ الغجريّة تشعر بخفّة جسدي وقد راحتْ أطرافي تتراخى

حول خصرها، فتربطهما حولَ جسدها بدوبارةٍ قطعتها من جوالها. ركض الفرسُ من دون سرج، والغجريّةُ تتشبّث بعُرفه فينطلق من دون لجام. وجفناي المثقلان باللوعة والخوف كانَا يُسبلان على مشهدٍ مهيبٍ تمتزج فيه ألوان الصحراء بالحريّة المطوّقة لخصر الغجريّة.

حين أفقتُ من لوثتي تلك، لم أجد جوادًا. تواصل الارتجاج، وأنا جثمانٌ مسجّى على أرضيّةٍ تناثرت في جنباتها أكوامُ تبنٍ وقشٍّ ميّزتُ ملمسها، وأغراض أخرى لم تُمكِّنِّي الظلمة من استبيانها. شعرتُ أنّني قابعٌ في جوف صندوق محكم الغلق، لا يخدش سوادَه سوى ضياء نجماتٍ يتسلّل من فرج دقيقةٍ في جدرانه.

كنّا نتحرّك، نتمايل، والصندوقُ يرتجُّ بعنفٍ، وصفير هواءٍ يتسرّب من حيث لا أدري مُنبئًا بسرعة انطلاق الركب. حاولتُ إصدارَ جلبةٍ تعلن عن وجودي، أردتُ أن أصرخ أنّي حيّ، تحسّستُ لساني المقصوص كأنّي أنبشُ فمي باحثًا عن صوتٍ يبرهن على وجودي، لكنّ محاولاتي أنتجتْ زمجرةً تلاها ما يُشبه العويل. ولمّا مسّدتُ وجنتيَّ بكفيّ ميّزتُ دموعًا، وعلا الصوتُ هامسًا:

- انتهى كلّ شيء...

ناعمَة حانيةً جاءت نبراتها، جفلتُ، وشعرتُ أنّي أنسحب داخل دوّامة صمت. هدأت الجلبة، فتلفّتُّ مُستطلعًا مصدرَ الصوت. الدوار ينسحب من رأسي، جاء صوتها كالوجس:

- لا نار، لا غضب، لا حرب، ولا شيء من خلفك يطاردك يا حكيم، أنت الآن في طور مخاضك، تولدُ من جديدٍ فوق مهدٍ من نور البيان، تمزّقتْ آخر صفحات الحكاية واحترقَ الرواة، ذابت الأسطر وامّحت العناوين، فارقدْ هانئًا مستكينًا، شمس الصباح تحمل إليك حياةً مغايرة، فلا تخف...

انثال صوتُها مصحوبًا بدفء أنفاسها، ذلك وقْع الغجريّة التي قهرت الوباء. حاولتُ مجدّدًا ترتيبَ الأحداث بما يتّسق مع صبيٍّ في الخامسة عشرة، أتخيّل وجهَها فأطمئنّ. هي الميناء والمرسى، هي حالةُ ألفةٍ تشكّلت في وجداني طفلًا وترسّخت خلف أسوار العقل كطلاسم لم آبه يومًا بتفسيرها. لامستني، فانتفضتُ، تصوّرتُها عاريةً تستتر بالظلام، سرت الدماء حممًا في عروقي، ونفضَتْ عن عقلي ما تبقّى من أثر الدوار. ثمّ أحاطتْ كتفيّ بعطف أمٍّ وشوق حبيبة، وكان صدري عاريًا. همسَتْ:

- ها قد نبت جناحاك، هل تشعر؟ ها أنت تتحرّر من صندوق الدود، غدًا تُحلّق فوقَ تلال الحكايات وتسترجع أصداءها، قد تُخاتلك ظلالُها وتراوغك الأطياف، لكنّك لن تعيشها مرّةً أخرى، أُوصدَ البابُ الذي لُفظتَ منه إلى الدنيا، ذابت تماثيل الشمع، هجّت جنّيّات الحكي، واستحالت الأصنامُ رميمًا...

وتتنهّد فتلفح نارُ الوجد جسدي، أشعر بأنفاسها تهدر على رقبتي وكتفي، وأنا غضٌّ أخرس غير قادرٍ على الفعل. أميّز وضعيّتي فوق القشّ، وأرتّب الأصوات والحواسّ، أحاول إقناعَ نفسي أنّني

لم أعشقها يومًا، أرمي إلى عَقْد معاهدةٍ مع قلبي كي لا يفتضح في حضرتها أمري، فهي الإلهة الغجريّة، وما أنا سوى صبيٍّ يتيم أخرس. أودُّ لو أنفي عن نفسي اتّهامًا لم يُوجَّه إليّ، فتسبق كلماتُها خواطري:

- أتودّ إقناعي أنّك عشت تغضُّ بصرك وتحجب عن عينَيك وهجَ حضوري؟ أتذكر حكاية النبيّ مع امرأة العزيز؟ غضّ النبيّ بصره حين أدرك عجزه عن مقاومتها إذا أمعن النظر في تفاصيلها. فكيف له أن يحيط بجمالها ما لم يتأمّلها كما يليق بكلّ رجلٍ في حضرة أنثى بهيّة مثلها؟! ملأ النبيّ عينَيه بها أوّلًا، فإذا بها طاغيةٌ في حضورها، تفيض رغبتُها البرّيّة من عينَيها الفوّاحتَين بالاشتهاء، بيد أنّ يوسف كان نبيًّا تُكبّله مواثيق النبوّة. أما أنت؛ فلو كنت نبيًّا كيوسف يا حكيم، لمّا أطعت الله وعصيتني، ففي حضرة شواهي، لن يُنجيك إلّا أن تكون يعقوب في طور عماه...

ألفيتُها مستلقيةً خلفي، يتّكئ رأسي على خصرها بينما أطالع سقفَ الصندوق الذي يحوي جسدَينا. وجِلتُ وقد استشعرت عُريي وعُريَها، سالَ العرق من رأسي على جسدها فاختلطَ بعرقها، لم أقوَ على الحراك، شعرتُ أنّ جسدي يوشك على الاحتراق. تذكّرتُ ديدان القزّ مرّةً أخرى، وتصوّرت أنّي ملفوفٌ بخيوطٍ محكمةٍ من حريرٍ فتسارعتْ أنفاسي...

- نذرتُ نفسي لفارسٍ يخلّصني من الأسر، ويحرّرني من الأشراك

المنصوبة فوق شفاه الناس، حلمتُ كثيرًا بذلك المغوار إذ يطلّ من فوق الكثبان مُشهرًا سيفَه المسكوك من ضيّ القمر، فيستر جسدي المصلوبَ فوق أجفانهم. أردته فارسًا يصرخ في وجوه الجياع: ما لكم والغجريّة؟ ما ذنب امرأةٍ حرّةٍ هربت من الاستعباد إلى حصارٍ مقيم؟ امتدّت جذور حكايتي بين الدور، واستحلتُ قِبلةً لمن ينشد الهوى الحرام، فما أسكرتني الخمر التي تناوبوا على سكبها في أجوافهم، وما مسّ كبيرُهم ولا شيخُهم خصلةً من شعري. بقيتُ حرّة، تقيّدُهم حرّيّتي، ويُكبّل عقولَهم انطلاقي بين الدور والحانة، راقصة باسمة تنبض بحياةٍ لم يَخْبَروها...

تغشاني رجفة، يغُوص رأسي في جسدها المخمليّ الناعم، تستقرّ في مساحةٍ ليّنةٍ بين نتوءات عظام حوضها وأضلعها. أستشعر حرارةً تتصاعد من تلامسنا، تُمرّر أناملَها في خصلات شعري فيسري خدرٌ في خلاياي، تهمس:

- هذه أوّل تجربة لي بركوب القطار، وأظنّك مثلي بطبيعة الحال، كنتُ أعرف أنّه يمرّ على مقربةٍ من نجعنا جهةَ الشمال. تركنا الفرس من خلفنا، سيعود من حيث جاء، ألفيتُه وقد أفزعته النار وانتقل إليه وباء الخوف من عيون الناس، أظنّه جوادًا نبيلًا، حتمًا سيعود إلى صاحبه. أمّا نحن، فها قد تسلّلنا إلى قطارٍ ينقل البضائع من حيث لا ندري إلى حيث لا نعلم. سيمضي بنَا إلى وجهةٍ لا نعرفها، لنبتدئ حياةً جديدة حيث

تنتهي رحلتُه. ربّما نحطُّ الرحال في قريةٍ أخرى، أو نجعٍ آخر، أو ربّما نجد أنفسنا في مدينةٍ كبيرةٍ كأسيوط، أو القاهرة، أو حتّى الإسكندريّة. لا يهمّني ما ينتظرنا أمام مقدّمة القطار حين تسكن حركتُه. الآن اختمرت الحكاية، سنولد من جديدٍ يا حكيم، سيلفُظنا القطار فوق رصيف محطّةٍ مّا، لكنّ الخالة وداد لن تكون حاضرةً لتلتقطنا. أَوَلَسْنا شبيهين بمن لحقَ بسفين النبيّ؟ سمعتُ الكثير عن حكاية الطوفان بين الغجر، لها قداسةٌ خاصّةٌ بين سير الأنبياء ومعجزاتهم.

تنزلق إلى جواري وكلماتُها تنسابُ بنعومةٍ. توهّج جسدُها وقد وارى جلبابُها الذي خلعته نصفَها السفليّ، أمّا أنا فقد ميّزتْ يداي جسدي وقد أضحى عاريًا بالكامل، متى تعريّت؟ أو متى جرّدتني الغجريّة من أسمالي؟

شعرتُ بأعضائي تتمدّد، وبمسام جسدي تتفتّح كبتلات الزهر، صار رأسانَا متوازيين، انسابَ شعرها على كتفي ووجهي، شعرتُ بأنفاسها تكاد تصهرني، تماسّت شفتانا، همستْ قائلة إنّها لا تعرف كيف سيكون الأمر، ببساطة لأنّها لم تجرّبه من قبل. ثمّ طمأنتني إلى أنّ كلّ شيءٍ سيكون -حتمًا- على ما يرام. مالت على جنبها وطوّقتني، لفّت يميني على خصرها العاري، سقط رأسي فغاص بين نهديها. أهذا ما يكون بين رجلٍ وامرأته؟ أيكون محرَّمًا كفعل الدبّاغ بابنته المعوقة؟ أم ملعونًا كمواقعة الكلّاف لبهائمه، أم محمودًا كمعاشرة الشيخ أيّوب لزوجاته الثلاث؟

هل أقدر على الإتيان بأفعال الكبار وقد بكيتُ جزعًا حين بلغت الحلم قبل عامين؟ أخذَ جسدُها يمتصّني، يسحبني داخلَها. التحم الجسدان في تناغمٍ وانسجام، قادتْني يداي إلى التجوّل بين هضابها ووديانها، وخيوط النور المتسلّلة عبر شقوق العربة تتكفّل برسم تفاصيل جسدها في عينيّ وشمًا لا ينمحي.

أغمضتُ عينيّ، ارتميت بفمي فوق ثمرة اللوز البارزة في منتصف نهدها، صدرت عنها شهقةٌ. راحت تضمّني بقوّةٍ إلى صدرها كأنّها تحثّني على بلوغ أعمق مكامنها. ضاعت أصابعي صعودًا وهبوطًا بين الجِيد والكتف فالعضد، مرورًا بالزند والكاهل والعجيزة وانتهاءً بربلتي الساق. ذاب الزمان بين جسدينا فما عاد الوقتُ محسوسًا.

طوّقتْني بذراعَيها وطوّقتُها بذراعي، ثمّ طوّقتني بساقَيها، فكنّا جسدَين مضفورَين فوق سحابةٍ من قش. ما زلتُ أذكر كلّ التفاصيل وأدقّها: الهمسات، التنهّدات، حركات الكفّين والتحام الشفاه، آهات الشبق، البلل والخجل، لحظة التوحّد التي غدا فيها الجسدان جسدًا واحدًا موصولًا برباط العشق، تناوبي على لقم ثمرتي اللوز وما سال منهما في خيالي فبلغتُ به نشوة الارتواء، حركات المدّ والجزر التي لم نتعلّمها من قبل، انقباض العضلات وتراخيها، وزفير النهاية الطويل الحارّ. انخرطنا في صلاة جسدٍ مقدّسة، آمنتُ في إثرها أنّ ما صدّعته الحربُ يرمّمه عناقٌ صادق، وما قصمه الفراق تَجبره صلاة مُحبّ.

تكرّر الأمر تواليًا، بالترتيب ذاته، ومن دون اتّفاق، كنّا نفقد الوعي ثمّ نستعيده لنستكملَ ما بدأناه. سقطتُ في ما يشبه الغيبوبة، ثمّ أفقت فوجدتُني وقد تدثّرتُ معها بجلبابها الفضفاض، استيقظتُ قبلها فرحتُ أفكّ وثاق جسدَينا تدريجيًّا. فاضت النشوة بأملٍ متعاظمٍ في حياةٍ مغايرةٍ، وتململت الغجرية في مرقدها عقب انفصال جسدينا.

لم يمنحنا القطار براحًا زمنيًّا جديدًا، إذ راح يتباطأ تدريجيًّا حين كنت جالسًا من خلفها أضفر خصلات شعرها كما طلبتْ. كشف ضياء الفجر عن حمرةٍ تكسُو وجهها وابتسامةٍ هانئةٍ لا تذوب فوق شفتيْها. مسّدتْ شعري بعدما انتهيتُ من ضفر شعرها، منحتني جلبابًا جديدًا من جِوالها، ثمّ ناولتني ورقةً وقلمًا، وطلبت منّي تدوين بضع كلمات غرامٍ عمّا جرى تحتَ أستار اللّيل، علاوة على ما كتبته على جدار دارها. قالت إنّها لا تقرأ، وأطرقتْ مضيفةً أنّي لا أتكلّم، لذلك فهي تودّ أن تسمع صوتي فوق الورق، حين تتعلّم القراءة عمّا قريب.

كتبتُ الكثير من الكلمات عن نشوة الحرّيّة، والأمل، ومتعة الخلق من جديد، ووصفتُ جسدَها، اختتمتُ كلماتي بخوفٍ من عدم تكرار اللقاء، قبل أن أذيّل الأسطرَ بملحوظةٍ مفادُها أنّ عبد الحليم حافظ قد مات.

طوت الغجريةُ الورقةَ مرّات، ثمّ دسّتْها في صدرها. ألقت عليَّ عنوانًا طلبت منّي تدوينه، لم يكن عنوانًا محدَّدًا، إذ جعلت تعدّد أحياءً أو مناطق في مدنٍ عديدةٍ سأجدها في أيّ منها. لكنّ أمانًا ظلَّ

يحوطني طالما ظلّت هي برفقتي، وهو الأمر الذي لم يدم طويلًا، إذ افترقنا على رصيف القطار في بلدٍ لا يعرفه أيّ منّا عقبَ ذلك بوقتٍ قصير. منحتني نقودًا، وقالت إنّها ستظلّ في الجوار، وستعرف كيف تجدني متى أرادت، ووقتَما أردتُ أنا!

ورقة (9)

أتساءل الآن، أكان انصهارُ الجسدين في عربة القطار حقيقيًّا؟ هل جرى ما جرى بالفعل؟ أم هو محض حلم؟ وكيف يكون الأمرُ حلمًا وأنا قادرٌ حتّى اليوم على استعادة رائحة أنفاسها وعبق شعرها ومذاق اللوزتَين؟

بقيت شواهي حاضرةً كساحرة ألقت تعويذتها على الرؤوس وغابت. ظلّ حضورها –على الرغم من الغياب– طاغيًا على النجع، يتشكّل ظلّها بين الظلال الهاربة فوق الجدران، وترتحل سيرتها بين شفاه السائلين.

هي شواهي، إكسير الحياة الذي تمنّاه الجميع. هي الاستثناء لكلّ العادات، هي حكايةٌ لم تُرْوَ بعد، موّالٌ لم يغنّه أحدٌ، قافلةٌ تضجُّ بالحياة، وحياةٌ لا تتّسع لها ألف قافلة، هي حوريّة الجنّة التي ملّت انتظارَ القيامة، هي حواء التي نبتت من كلّ الضلوع، وعاثت نظراتها في كلّ الصدور. فهل يُعقل أن تصطفيني امرأةٌ كتلك من بين جموعِ مريديها؟ أيكون الصبيّ الممنوع من البَوح نبيًّا يرشف الوحيَ من جسدها؟

سألتْني قبل أن تسحبني فوق حصانها؛ **أنت من سطرتَ الكلمات على جدران الدور، أليس كذلك؟** أومأتُ بالإيجاب، فأطلقت ضحكةً بين النصر والغواية. اعترفتْ عيناي صاغرتين، أغشاني نورها وأسرني دفء جسدها.

بقيتُ طوالَ سنواتٍ تلت تلك اللّيلة في حيرةٍ من أمري، لم أصدّق يومًا أنّ الحياة قادرةٌ على منحي تلك الجرعة من النشوة والسعادة الصافية، لا يمكن أن يكون الأمر برمّته حقيقيًّا، ثمّة حلمٌ مخلوطٌ بالحقيقة، أو حقيقةٌ ضاقت بها جدران العقل فأحالتْها صورةً ضبابيّة، كلّ ما أعرفه أنّي بقيتُ وحدي منذئذٍ.

-في انتظارك عالمٌ شاسع كالمحيط، فاجعل عقلك إمامك، وقلبك منارتك. حكى لي الغجر من أحفاد بني هلال عن المحيط في المغرب، قالوا إنّه ينسدل كبساطٍ تتماسّ حدودُه مع آخر الدنيا، ذلك هو العالم الذي ينتظرك، فأبحر فوق سفينٍ لا شراع له، لا مُرساة تعطّله ولا شاطئ ينتظره. أحكم قبضتَك على مجدافَيْك، وأسلم للريح شراعك، استدْعِ صوت عبد الحليم ووجهَ أمّك، وامْضِ حتّى تلامس الشمس. اهجر صحف الأمس يا صغيري، مزّقها، أحرقها وانثر رمادها، عِشْ مخاضَك الأوّل، أقبل على اللحظة كأنّها آخر فرص بقائك. عش يا حكيم كما تصبو، وسَطِّرْ منذ الساعة تاريخ مولدك الأوّل.

أسترجع صدى الكلمات بعدمَا بتُّ وحيدًا على رصيفٍ قديم، لا أثق بما إذا كانت شواهي مَن قالت هذه العبارات، أم إنّها كلماتٌ هطلت على عقلي لتُسمعني ما وددتُ سماعه. كنتُ في بلدةٍ مّا، في ساعةٍ مّا من يومٍ مّا. شعرت أنّي أضعف من أوراق شجرةٍ انتزعها الخريف، واقشعرّ جسدي عندما تسرّبت إلى مسامه برودة الوحدة.

مرّ قطارٌ أمامي محدثًا عاصفةً من صخب، وصرخت صرختي الأولى، ثمّ جعلتُ أتصفّح وجوهَ الناس بفضولٍ ودهشة. ابتدأت أولى لحظات حياتي بانتهاء كابوس نجع المناسي، غرٌّ رضيعٌ تأجّل ميلادُه خمس عشرة سنةً يقف على شفا كونٍ جديد. لم أشاهد شواهي منذئذ، لم أبحث عنها، وارتضيتُ بتصوّر أنّها أرادت الشيء ذاته، محتفظًا بصورتها في كنف ظلمة القطار، صورةً أخيرة لا يرضيني تغييرها.

أين أنتَ؟ سألت ربَّ السماء، تذكّرته بغتةً بعد أن هدأ الصخب ورحلَ القطار يجرّ من خلفه خمس عشرة سنةً طويتُها في نجع المناسي، تحوّلت إليه بكلّ ما عجزت عن نطقه. سألتُه عمّا أغضبَه من فعلي، وأنا اليتيم الصامتُ المُكبَّل الإرادة، لم أنطق كفرًا، وما مرّت بعقلي خاطرةُ احتجاجٍ على المصير، لم أعش يومًا كما أردت. حتّى هروبي هذا أتيتُه مرغمًا وقد أحرقَ الغاضبون دارًا لم أعرف غيرَها. تيبّست في حلقي صرخةُ غضب: أجب فإنّي لا أفهم!

ماجت الكلماتُ في صدري، فأطرقتُ. ارتعشت شفتاي بهمهماتٍ

خافتةٍ لا تبلغ السماء. صمتتْ أصوات القطارات، فلم أعد أسمع سوى أصداء أنفاسٍ لاهثةٍ مستقرُّها صدري، ودوّت في أذني عبارةٌ أحسبها لشواهي:

«لم يمسسك الوباءُ لحكمةٍ يا حكيم، تمامًا كما هي حالي. مُقدّرٌ لنا أن نولد من جديدٍ في أرضٍ لا تعرف الحصار، وضعت السماءُ لنا مسارًا بديلًا، ربّما لم تتّضح معالمُه بعد، لكنّه موجود».

ولد الصخب من حولي مجدّدًا، فجفلت. انطلقت صافراتُ القُطُر، وزفرت الأنفاس الحبيسة. فرغت السماءُ من الحمائم، وانسحبت الغيوم، سالت على وجنتي قطرةٌ ساخنةٌ جاءت من سماءٍ بلا غيم، فتيقّنت ساعتئذٍ أنّ السماء ربّما قالت كلمتَها قبل أن أرميها بوابلِ أسئلتي.

كانت تلك القطرة هي الإشارة التي تمنّاها الشيخ جعفر المنسيّ.

ورقة (10)

كيف مرّت الأيّامُ والشهور والسنون؟ وكيف اتّفق لشابّ صغيرٍ، أخرس، أن يشيّدَ حياةً فيما أعقب تلك اللحظة؟ كيف اشتدّ عودُه الرخو الأخضر؟ وإلامَ آلت أموره؟

أَيَهمّ ذلك أحدًا عزيزي الطبيب؟ لم يهتمّ زميلك الأوّل بذلك، وأنا أتّفق معه، فبقيّةُ الحكاية لا تستحقّ أن تُروى، فهي أمورٌ هامشيّةٌ وإن صعبت تفاصيلُها، تظلّ أمورًا عاديّة، حكاياتٌ ومرويّاتٌ

مشابهةٌ لقصص الكثير من الناجين من صعاب العيش، والمكافحين في شعاب الدنيا.

قصصتُ للتوّ الحكاية الوحيدة التي تستحقّ أن تُوثّق، ابتدأت الفصولُ بسقطة حجر، وكان ختامُها بداية، وما بينهما روايتي متلوّةً بمختلف الألسن. نفّذتُ توصيتَك بكتابتي هذه، استدعيتُ الشخوص وجالستُهم، ونقلت لك ما كانَ لهم أن يقولوه لو قابلوك. خصّصت لهم جلساتٍ شبيهةً بجلساتنا منتحلًا صفتَك. المهمّ أنّي رويتُ، وحكيتُ وكفى. فكم من روحٍ ستؤرّقها كتابتي وتنتقص من ساعات سُباتِها دقائقَ تختلسها في استرجاع حكايتي؟

أحيانًا، أشعرُ حيالك -عزيزي الطبيب- بالشفقة، فأنتَ مُلزمٌ بالكلام، بالحكي الجهريّ، مقدور لك أن تتكبّد مشقّةَ رَصْفِ الكلمات وتعبيد مسارات القصّ، بينما توفّر الكتابة كلَّ هذا العناء، إذ تُجنّب المرءَ التردّدَ وتمنحه الحقَّ في الكشط والشطب والتعديل.

أعرف أنّهم سيكذبون ويجادلون، من هم؟ الجميع! سيقولون من أين لك هذا الخيال وما أنا بأفّاقٍ كذوب، سيتناولون المسرودَ بعينٍ تحتقر السارد، سيقول أحدهم راجعْ ما كتبت، فأصرخ ما أنا بكاذب، ويزيد فأُعيد، ما أنا بكاذب!

حتّى شخوصي، رفاق هذه الرحلة، قد يكذّبونني. لمَ لا وقد تعرّوا بين أوراقي وأَذعْت فضائحهم! تعتريني الآن نوبةٌ من الضحك إذ تصوّرت انطباعهم لو قرؤوا أو قُرئ عليهم ما كتبت.

لهذا بتُّ أنتظر زيارةَ طيوفهم بشغفٍ وترقّب، موطِّنًا نفسي على كلّ الاحتمالات.

والغريب، عزيزي الطبيب، أنّه باتَ من الحتميّ عليَّ الآن أن أواصل الكتابةَ على الرغم من وجعها. لا أعرف ما قد أكتب أو أضيف إلى ما أتممت، لكنّ مهمّتك هي تشجيعي وتحفيزي على تفريغ كلّ ما أختزنه من صورٍ ومشاعر وكلماتٍ حبيسة، مرّةً تلو أخرى. الأوراق والأقلام هي صلتي الوحيدة بالعالم، فإن انقطعت هذه الصلة سقطتُ في عوالمي البديلة. الحبر هو ما يغذّي طاقتي ويروي الخيال فيبقيني حيًّا، فإن جفّ الحبر ذبلتُ وسقطتْ أوراقي، وتأهّبتُ للرحيل.

أعرف أنّ حكايتي ربّما تؤاخي الجنونَ وفقًا لكلّ الأعراف والتفاسير الرسميّة، لكنّي لا أبالي بأحدٍ سواك، ولعلّي لا أبالغ حين أُسرُّ لك بأنّي سعيدٌ بمنجزي هذا؛ ربّما خاط الربّ فمي، لكنّه منحني عوضًا عن ذلك ذاكرةً تُراكِم الصورَ والحكايات، وصوتًا لم تكمّمه الحروب، وقلمًا يفيض بنور البيان.

بين يديك عزيزي الطبيب أضعُ أوراقي هذه، ولك القرار الأخير. طلبتَ أن أدوّن ما أشعر به تفصيلًا، وما يُثقل أنفاسِي فتضيقُ به شِعابُ صدري، وها قد فعلتُ مرّةً أخرى. حاول من قبلك طبيبٌ آخر، لكنّه لم يقرأ نصفَ ما كتبتُ. أمّا وقد أعدتُ الكتابة واستفضت في الشروح ومارستُ ألاعيب السرد، فاستدعيتُ

شهودًا ما كانوا ليرووا ما جرى أمام الجهات الرسمية؛ فهل تقدر الآن على وصف العلاج إذا اطّلعتَ على أعراض العلّة ومسبّبات الاعتلال؟ هل تطمس أصواتَ الحرب في عقلي، وتصف لي عقارًا يخرسُ أصوات القذائف وطبول الاقتتال الـمُغيرة على مسمعي؟ أتقضي بتمام جنوني؟ أم تراك تصدّق ما جاء في أوراقي؟

أنا ابن زمان الصوت الواحد، والنبرة الواحدة، والنشيد الواحد، والصحيفة الواحدة؛ فهل تعيد التناغم والتجانس بين هذا العالم البرّيّ الكاذب ورجلٍ مثلي عاشَ بلا صوت، ولم يعرف من ألوان الصوت سوى نغمةٍ واحدة؟

أيُقدَّر لي يومًا أن أنعم بسُباتٍ هانئٍ كذاك الذي تمنّيتُه منذ الأزل؟ ومن دون عقاقير منوّمة؟ هل تحرّرني كلماتي هذه من أسرٍ لا أعي مسبّباته؟ أم تغدو دليلَ إدانةٍ يدمغ عدم أهليّتي لمواصلة الحياة؟ أتجودُ عليَّ المصائرُ بالخلود إلى نوبة راحةٍ أجرِّدُ فيها مخيّلتي من هاجسها الدائم بأنّ الحرب في نجع المناسي، لا تزال مستمرة؟! وبأنّ صلاة الشيخ أيّوب ما زالت تنتظرُ المصلّين؟

مستعمرة الجذام



الجمعة ١٥ أبريل ١٩٧٧

الأهرام

أخبار الحوادث

يحظر النسخ
خاص - مستشفى الصحة النفسية بالعباسية

تمرد فى مستعمرة للجذام

كشف مصدر مسؤول فى وزارة الصحة المصرية عن سيطرة قوات حرس الحدود على واقعة تمرد جرت منذ أيام فى واحدة من مستعمرات مرض الجذام سريع العدوى، وذلك فى منطقة صحراوية تقع على مسافة مئة وخمسين كيلومتر شرقىّ سوهاج، وقال المصدر إن بعض المختلين عقليًّا من نزلاء المستعمرة قد حاولوا الفرار إلى القرى والنجوع القريبة بعدما أشعلوا النيران فى مقر طبيب الوحدة، إلا أن إحدى دوريات قوات حرس الحدود قد لاحظت الأمر وتوجهت إلى المستعمرة بصحبة قوات إضافية، وتمت السيطرة على الوضع. هذا وقد سقط خلال هذه المحاولة غير مفهومة الدوافع ما يقارب خمسةً وعشرين قتيلاً، وخلّف عشرات المصابين، علاوة على إتلاف الكثير من الممتلكات العامة.

كما أشار مصدرنا إلى أن الأمور قد استقرت فى المستعمرة، بعد السيطرة على الوضع، واستقدام لجنة طبية جديدة لمتابعة حالات المرضى، وانتداب لجنة من مستشفى الصحة النفسية لدراسة سلوكياتهم والوقوف على درجة الاعتلال العقلى لديهم، كما انتقل فريق أمنى من مديرية أمن سوهاج لمباشرة التحقيقات فى الحادثة وأسباب وقوعها.

نهاية، فقد أشار ذات المصدر إلى أن الحادث ليست له أية تأثيرات على القرى والمدن المجاورة وذلك بعد التأكد من عدم هروب أى مريض من المسجلين فى المستعمرة، الأمر الذى كان لتنتج عنه كارثة إذ ما اختلط المصابون بالمرض مع عموم المواطنين.

تقرير حالة

السيّد مدير مستشفى الصحّة النفسيّة بالعبّاسيّة

تحيّة طيبة، وبعد؛

وفقًا لمراجعة ملفّ المريض عبد الحكيم خليل مسعد الخوجة، ملفّ رقم (1067)، والاطّلاع على بروتوكول العلاج المتّبع مع الحالة، والتقارير السابقة، ومع الاطّلاع على الأوراق التي كتبها المريضُ وجاءت في حدود 170 صفحة فلوسكاب، وبناءً على طلبكم بإبداء الرأي، أرجو العلم بأنّي انتهيت إلى ملاحظاتٍ عديدةٍ أُوجِزُها في ما يلي:

1) أوراق المريض جاءت حافلةً بالأحداث وبأسماء الأشخاص الذين جمعتْه بهم علاقاتٌ متباينة. قمت بمخاطبة وزارة الداخليّة لاستبيان حقيقة أحداث نجع المناسي في عام 1977 عملًا على مراجعة أقوال المريض والفصل بين الواقعيّ والمتخيّل، وقد أبدت وزارة الداخلية درجةً كبيرةً من التفهّم برغم بعض التحفّظ بخصوص بعض التفاصيل الخاصّة بالأمن العامّ، علمًا بأنّ اسم النجع القديم قد تغيّر، وبات يحمل اسمًا جديدًا هو نجع المجاذيب.

2) توصّلتُ إلى أنّ العديد من الأسماء التي وردت في أوراق المريض تخصّ أشخاصًا حقيقيّين وَرَدَ ذكرُهم بالفعل في تحقيقات النيابة في أحداث نجع المناسي، التي جاء تقرير النيابة بخصوصها مختلفًا عمّا نشرته الصحف حولَ وجود مستعمرة للجذام في النجع، وإن كان التقرير لم يبيّن ما هي الأحداث بشكلٍ واضح في النهاية.

3) خليل الخوجة، والد المريض، لقيَ حتفه في أحداث 1977، رفقة خمسة عشر شخصًا آخرين من ضمنهم شيخ الزاوية، وهو ما يخالف العدد المذكور في جريدة الأهرام (مرفق صورة ضوئيّة من نصّ الخبر حصلت عليها من المريض وتأكّدتُ من صحّتها من أرشيف الأهرام). كما لم توضّح السجلّات الحكوميّة مصيرَ أُمّ المريض التي ادّعى أنّها هربت أو سجنت بمعرفة أبيه في النجع، حيث أنّها -وفقًا للسجلّات الرسمية- لا تزال على قيد الحياة.

4) لم تذكر الأوراق أيَّ شيءٍ عن حياة المريض في محافظة الإسماعيليّة التي شهدت التحفّظَ عليه أوّل مرّة، إذ أنّها تنتهي بالأحداث المذكورة أعلاه دون المزيد من الإيضاحات، لتختفي بذلك (تقريبًا) عشر سنواتٍ كاملة من حياة المريض ربّما كان لها أن توضِّح المزيدَ عن حالته. الأوراق كذلك تنقصُها تفاصيل مهمّة، أهمّها مستوى التعليم الذي تلقّاه المريضُ وأهّلَه لكتابة هذه الأوراق في صورةٍ أقرب إلى النصّ الروائيّ، واستخدامه للسجع في الكثير من المواضع، وإن استوقفني الإسهاب في العموم، وخصوصًا في تكرار بعض العبارات التي لها دلالة نفسيّة مهمّة، مثل القلق والهواجس والكوابيس والوساوس والخيالات والأوهام، وتكرار القصص ذاتها، والإكثار من وصف الطبيعة على حساب وصف ملامح الناس، علاوةً على حرصه الشديد على دمج أغاني عبد الحليم حافظ في كتابته.

5) التقارير الطبّيّة السابقة أفادت أنّ لسانَ المريض قُطِع بواسطة أسنانه، وحدّدت تاريخ هذه الحادثة بتاريخٍ يتّفق بشكلٍ كبيرٍ مع ما قاله المريض. والمثبت في سجلات المستشفى منذ وصوله أنه لم يصب بأي حالات عصبية تصحبها تشنّجات.

6) لم تُشِر التحقيقات، وكذا التحرّيات، إلى وجود امرأةٍ تُدعَى شواهي كما جاء في أوراق المريض، أو أيّ امرأةٍ أخرى لها أوصافٌ مشابهة، كما لم يتمّ تأكيد وجود خمّارةٍ في النجع، وهو أمرٌ مستغرَبٌ ومستبعدٌ لطبيعة المكان، علاوةً

على أنّ مسجد النجع كان أشبه بزاويةٍ صغيرةٍ بلا مئذنة، عرفت بزاوية الشيخ جعفر.

7) النيابة نفت تمامًا ما أشار إليه المريض من حصار النجع وزرع الألغام والعلاقات التي -ربّما- جمعت المدعوّ خليل مسعد الخوجة بأيّ جهةٍ حكوميّة، لكنّ النيابة كانت قد ضمّت إلى ملفّ التحقيقات نسخةً من جريدة غير رسميّةٍ مطبوعةٍ بطريقةٍ بدائيّةٍ عنوانها «صوت الحرب»، وهو ما يتّفق مع جزءٍ ممّا جاء في رواية المريض.

وعليه، وفي ضوء ما تقدّم؛

أرى أنّ المريض لا يختلق الأحداث بالكامل، لكنّه ربما يجمع بين الوقائع التي عاشها وخيالاتٍ وأحلامٍ وكوابيس طاردته. هذا الخلط بين الأمرين قد يكون المسبّبَ الرئيسيَّ لنوباتِ الغضب التي تصيبه من حين إلى آخر، فهي نتيجةٌ لعجزه عن الفصل بين الأمرين، لأنّه هو نفسه يشكّ في حقيقة ما يدور في عقله، وتصيبه الحيرة بخصوص تمييز الذكريات التي حدثت، عن الأحلام التي أربكت عقلَه واستقرّت في موضعٍ ضبابيٍّ من ذاكرته.

كذلك فإنّني أرى أنّ التقرير الأوّليّ للحالة، أعني التقرير الذي وضعه الطبيب السابق عقب جلسات كتابةٍ قصيرة -ومع احترامي البالغ للطبيب- قد جانبَ الصواب في التشخيص إلى حدٍّ كبير، ولم يكن استنتاجه دقيقًا إذ لم يلتفت إلى الكثير من الأمور، وشخّص الحالة على أنّها نوعٌ من العشق المرضيّ لعبد الحليم حافظ (متلازمة دي كليرامبو أو الإيروتومانيا)، بما يعني أنّ عقلَ المريض أنكر موتَ المطرب المشهور، ففقد اتزانه.

لذلك، فأنا أقضي مطمئنًّا -بعد جلسات قراءةٍ عديدةٍ تخلّلها أكثر من فحصٍ سريريّ- بعدم دقّة التشخيص السابق، والأصوب هنا أنّنا أمام حالةٍ نوعيّةٍ من الذهان، وإن كانت لم تبلغ درجةَ الفصام بالمعنى العلميّ المتعارف عليه، فالمريض لا يعاني أيَّ خللٍ في التفكير أو الوجدان يفقده اتّصاله بالواقع.

المريض هنا يواجه صعوبةً في تمييز ما وقع ممّا تصوّرَ هو وقوعَه، لكنّه لم يجد صعوبةً في التعامل معي برغم عجزه عن الكلام، ولم يُبد أيّ ميولٍ عدوانيّةٍ تجاهَ نفسه أو تجاه الغير، ولم يقترح أيًّ أفكارٍ مشابهةٍ في كتاباته. لذلك فإنّ حالته الشعوريّةَ طبيعيّةٌ ومناسبةٌ لتاريخه الشخصيّ وظروفه الحاليّة.

درجة الانطواء لدى المريض مقبولةٌ في ظلّ عجزه عن الكلام، ثمّ إنّ الشخصيّات التي يختلقها (في الأغلب) مرتبطةٌ بالماضي فحسب، ولا تزوره في الواقع منذ ما يزيد عن عشر سنوات، لذلك فأعراضٌ مثل الهلوسة السمعيّة والبصريّة غير موجودةٍ إلّا في أوراقه (إن صحّ الظنّ بأنّه يؤلّف بعضها)، ذلك لأنّ الحكاية التي يرويها المريض لها أصلٌ مثبت، وإن كانت بعض التفاصيل والشخصيّات الأساسيّة (مثل مصير الأمّ وشخصية شواهي)، لم يثبت حدوثها/ وجودها، فإنّ ذلك لا ينفي الأمرَ بقدر ما يجعله عرضةً لاحتمالين مختلفين، كلاهما بلا دليل.

بروتوكول العلاج الموضوع مقبولٌ في وجهة نظري، وإن كنت أنصح بتقليل جرعات المهدّئات العصبيّة، نظرًا إلى قلّة معدّلات نوبات الغضب التي تصيبُ المريضَ كما وردَ في تقارير الشهور الثلاثة الأخيرة، ربّما يكون في حاجةٍ إلى منشّطاتٍ للدورة الدمويّة عملًا على تقوية الذاكرة، لعلّه ينجح في إكمال النقص في حكايته. كما أنّي لا أرى أنّ عزله عن بقيّة المرضى ما يزال ضروريًا في ظلّ التقارير الأخيرة.

أوصي بتشجيع المريض على كتابة المزيد من الخواطر والحكايات بلا وصايةٍ مباشرة، ودون إبداء الرأي، سواء بالسلب أو الإيجاب. لا يجب الاستهزاء بما يكتبه المريض ليبقى حريصًا على الكتابة، كي لا تنقطع الصلةُ بينه وبين الفريق الطبّيّ المعالج، خصوصًا إذا استمرّ رفضه المتكرر لحضور جلسات المحاورة المكتوبة.

ملاحظة: المريض غير مؤهّلٍ للتعامل مع العالم الخارجيّ بعد، ولا يُنصح بخروجه في المدى القريب، ولا سيّما أنّه لا يملك عائلةً تُعينه على تجاوز أزمته، وتساعدُه على ضبط مواعيد وجرعات العلاج.

سوف أعيد تقييم الحالة بعد ثلاثة أشهرٍ من تاريخه.

أخيرًا؛ من الحتميّ أن يواصل المريضُ الكتابة، لا بدّ من تشجيعه وتحفيزه على تفريغ كلّ ما يختزنه من صورٍ ومشاعر وكلمات حبيسة، الأوراق والأقلام هي صلته الوحيدة بالعالم، فإن انقطعت هذه الصلة سقطَ في عوالمه البديلة، الحبر هو ما يغذّي طاقتَه ويروي خياله ليبقيه حيًّا، فإن جفّ الحبر ذبل الجسد، واستعدت الروح للرحيل.

د. سعدون زكريا

18 **يناير** 1988

تمّت

القاهرة

مارس 2022

شكر وامتنان

تحيّة عرفان أتوجّه بها إلى أساتذة وأصدقاءٍ استفدتُ كثيرًا من آرائهم وملاحظاتهم في أثناء كتابة المسوّدات الثمان لهذا النص. من دون ترتيب، ومع حفظ الألقاب، أودُّ أن أتوجّه بالشكر إلى السادة: رشيد الضعيف، هشام الخشن، أحمد القرملاوي، عبد الوهاب الحمادي، ناصر عراق، منصور الصويّم، د. محمد القاضي، وعيسى الجابلي.

كما أودّ أن أطوّق بالودّ أعناق أشقّاء آنسوا غربتي ودعموني، وآمنوا بي، وبنصّي هذا، ربّما أكثر ممّا آمنت: ريما بالي، فايز غازي، مصطفى خالد، نادية بادي، فاطمة عزلاوي، أماني أبو صبح، الدكتور أحمد عسيلي، وصديقي العزيز زياد ندا.

إشارة

في عام 2019، قرأت كتابًا شيّقًا للكاتب الصحفيّ اللبنانيّ يوسف بشير، عنوانه «حين حدث ما لم يحدث»، فولدتْ فكرة هذه الرواية. عبّرت عن الفكرة من خلال قصيدةٍ كتبتها بالعامّيّة المصريّة، وعنونتها بـ «يوم مشهود».

وبمرور الوقت، وبطريقةٍ لا أعرفها، تحوّلت تلك القصيدة إلى هذه الرواية!

لذا، يتوجّب عليَّ هنا أن أتوجّه باعتذارٍ صادقٍ إلى السّيد يوسف بشير، إذ أنّني، كلّما تصوّرت نصرًا عربيًّا يفضي إلى تحرير فلسطين، راوغتني الكلمات، وقادتني السطور إلى هزيمةٍ جديدة، هزيمة أكثر إيلامًا.

محمّد سمير ندا

صلاة القلق

قريةٌ مزروعةٌ في النسيان، يهزّ أديمها انفجارٌ غامضٌ لجسمٍ مجهولٍ سنة 1977، فتتحوّل فجأةً إلى عُلبةٍ مُحكمةِ الغلق يعيش فيها كلّ قرويّ ملحمته الخاصّة: المتمرّدون المضطهدون يطلبون الحريّة والطغاة المستبدّون يُحكمون قبضاتهم على الأرواح والأعناق. لكنّ خيط السّرد لا يتقدّم إلّا ليعود بنا إلى الوراء، فتُلقي الرواية الضوء على عشريّةٍ قاسية تمتد من نكسة حزيران سنة 1967 إلى لحظة وقوع الانفجار وانقلاب وجوه القرويّين إلى سلاحف.

حدثٌ واحدٌ في «النجع» ترويه ثماني شخصيّات مختلفة، تُشكّل مرويّاتها فسيفساء الحكاية تشكيلاً ساحرًا. أمّا قاع الرواية فمساءلة سرديّة للنّكسة وما تلاها من أوهام بالسيادة والنصر. فمَن يكتب التاريخ الحقيقيّ: الجزمة والبندقية وسلاسل الحديد أم صرخات التمرّد التي لا تموت؟ وما الّذي يوقظه فينا العام 1977؟ موت المعنى والفنّ أم عبث المصير والسلام الزائف؟ أليست قرية «المناسي» استعارةً كُبرى لجيلٍ من الممسوخين؟

مهما تكن الإجابة فحسبُ «صلاة القلق» أن تجمع في خيطٍ واحدٍ: تناثرَ الدلالة ومتانة الحَبْك.